فلاديمير نابوكوف

مكتبة

حياة سبستيان نايت الحقيقية

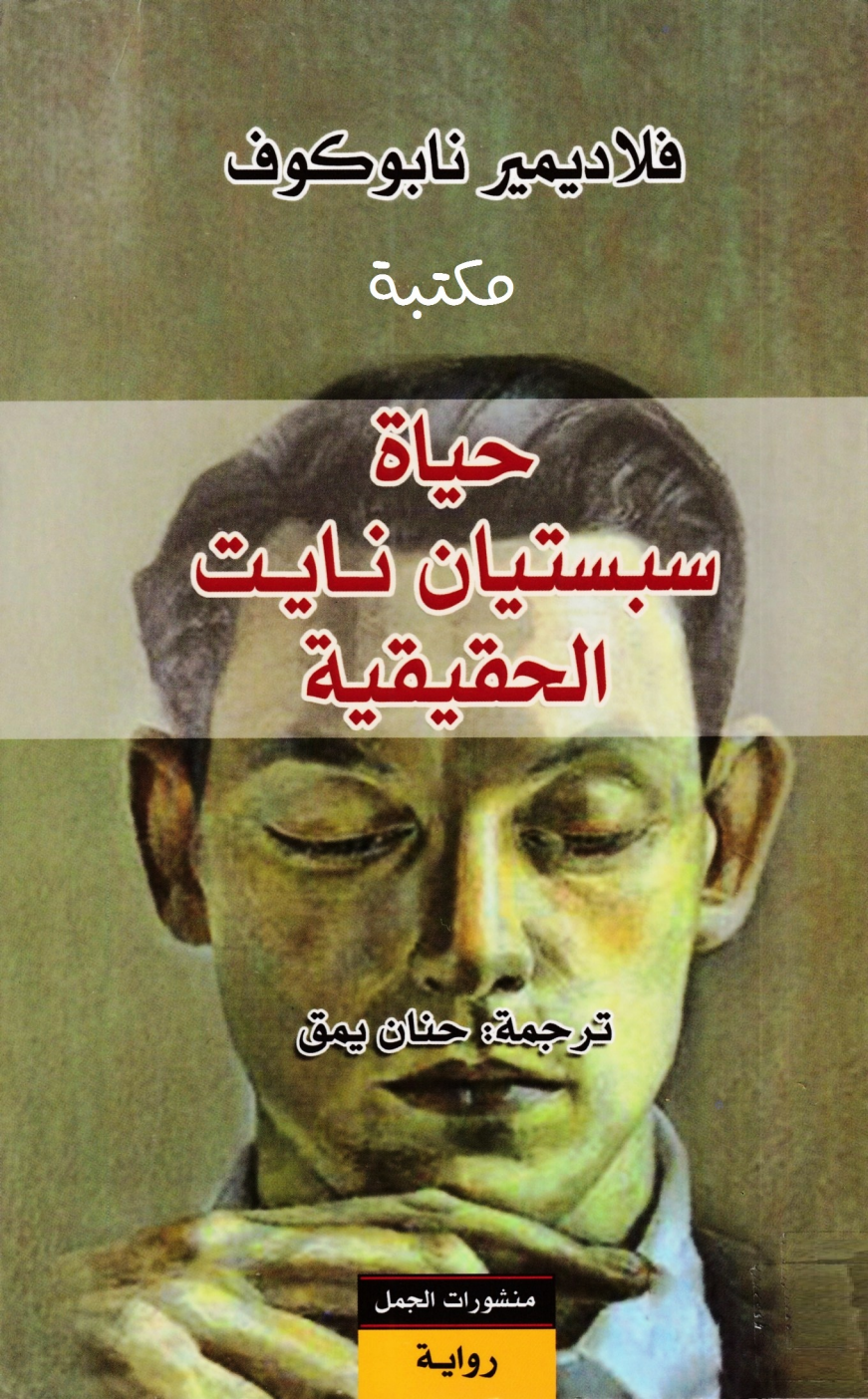

ترجمة: حنان يمق

منشورات الجمل

رواية

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط

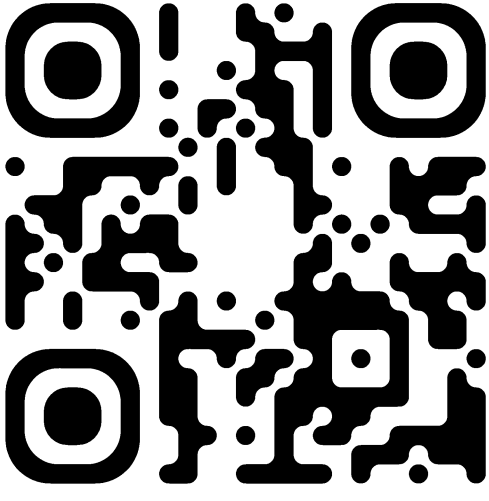

telegram @soramnqraa

فلاديمير نابوكوف: حياة سبستيان نايت الحقيقية، رواية

فلاديمير نابوكوف

مكتبة
t.me/soramnqraa

حياة سبستيان نايت الحقيقية

رواية

ترجمة: حنان يمق

منشورات الجمل

مكتبة
t.me/soramnqraa

فلاديمير نابوكوف: **حياة سبستيان نايت الحقيقية**، رواية، الطبعة الأولى
ترجمة: حنان يمق
كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت – بغداد ٢٠٢١
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Vladimir Nabokov: *The Real Life of Sebastian Knight*, roman
© 1941, Vladimir Nabokov
All rights reserved

© *Al-Kamel Verlag* 2021
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الأول

وُلد سبستيان نايت(*) في ٣١ ديسمبر ١٨٩٩، في العاصمة السابقة لوطني. كشفت لي سيدة روسية عجوز، بعد أن رأتني صدفة في باريس، عن دفتر مذكرات كانت قد احتفظت به من الماضي، وقد رجتني، لأسباب غامضة، أن لا أكشف عن اسمها. كانت تلك السنوات (على ما يبدو) فقيرة بالأحداث الهامة، لدرجة أن جمع وتسجيل التفاصيل اليومية (الطريقة البائسة للحفاظ على ذواتنا) كانا مقتصرَين في الغالب على الوصف الموجز للأحوال الجوية؛ تجدر الملاحظة في هذا الصدد، أن يوميات الملوك - بغض النظر عن المشاكل المحيقة بممالكهم - تُظهر بدورها ميلاً غريباً لهذا الموضوع. عرفت كم كنت محظوظاً بعدما أصبحت وحيداً مع الدفتر، إذ أدركت أني قد مُنحت شيئاً لم أكن أبداً لأبحث عنه، حتى وإن كان طريدتي المختارة. وعليه أستطيع التصريح أن صباح ميلاد سبستيان كان صافياً لا رياح فيه، مع اثنتي عشرة درجة تحت الصفر، على سلم ريمور(**)... بكل الأحوال، هذا كل ما وجدته السيدة

(*) نايت: وهي بالإنكليزية knight أي فارس، وknight أيضاً هو اسم حجر الشطرنج الذي ندعوه بالحصان، القادر على القيام بحركة على شكل L. سبستيان نايت اسم افتراضي لكاتب افتراضي. (مترجم)

(**) سلم ريمور: سلم قياس حراري، اعتُمد للمرة الأولى في فرنسا (١٧٣٠). تغلي الماء حسب سلم ريمور على درجة ثمانين. (مترجم)

الطيبة جديراً بالتدوين. بعد التمعن بالأمر، لا أستطيع إيجاد أي ضرورة حقيقية للإذعان لطلبها بعدم الكشف عن هويتها. أن تقرأ يوماً هذا الكتاب، يبدو أمراً بعيد الاحتمال. كان اسمها، ولا يزال، أولغا أوليغوفنا أورلوفا - جناس بيضاوي(*)، سيكون من المؤسف أن يُحجب.

لا يمكن لأرقامها الجافة أن تنقل للقارئ الذي لم يسافر مرة إلى سانت بطرسبورغ، فكرة عن السحر والمسرات الضمنية في نهار شتوي هناك، كالذي وصفته؛ الفخامة النقية لسماء نقية، غير مصممة لتدفئة الأجساد، بل لإمتاع النظر فقط؛ الأخاديد اللامعة التي تركتها المزاليج فوق الثلج الخشن في الشوارع الواسعة، التي تظهر فوق مساراتها الوسطى مسحة مصفرة، قد خلّفها مزيج غني من روث الخيول؛ الألوان المبهرة لبالونات الأطفال، يبيعها متجول يضع مئزراً؛ الانحناءات الناعمة لقبة، قد أبهتَ مخملُ الصقيع لونَ الذهب فيها؛ أشجار البتولا في الحدائق العامة، مع خطوط بيضاء فوق غصيناتها الأكثر ضعفاً؛ صرير وتردد حركة المرور في فصل الشتاء... وبالمناسبة، كم هو غريب هذا الشعور الذي يراودنا حين ننظر إلى بطاقة بريدية قديمة (كتلك التي احتفظ بها فوق مكتبي لأُسعد بها، ولو للحظة، ذاك الفتى القابع في ذاكرتي) لنتأمل الطريقة العشوائية التي كانت تعتمدها عربات الأجرة الروسية للانعطاف أينما، متى وكيفما أراد سائقها، إذ إننا، بدلاً من حركة المرور الحديثة، المستقيمة والمنظمة، نرى في تلك الصورة شارعاً بعرض

(*) جناس بيضاوي: تكرار الحرف O في اسمها الثلاثي ليصير O-O-O وهي أيضاً (أي O-O-O) رمز لحركة في الشطرنج تسمى بالتبييت أو التحصين (castling). (مترجم)

الأحلام، تتمايل خلاله عربات دروشكي(*) تحت سماء فائقة الزرقة، الزرقة التي تذوب تلقائياً، بعيداً، في زاوية البطاقة، لتصير توهجاً ورودياً لذاكرة سخيفة.

لم أتمكن من الحصول على صورة للبيت الذي وُلد فيه سبستيان، ولكني أعرفه جيداً، إذ إني وُلدت فيه أيضاً، بعد حوالي ست سنوات. كان لنا والد واحد: تزوج مرة ثانية بعد فترة وجيزة من طلاقه لوالدة سبستيان. مما يبعث على الاستغراب، أن ذلك الزواج الثاني لم يُذكر أبداً في عمل السيد غودمان، «تراجيديا سبستيان نايت» (الذي ظهر عام ١٩٣٦، والذي أتيحت لي الفرصة لأزيد عليه كثيراً من الإشارات المكملة)؛ وعليه، فإنني، بالنسبة لقراء غودمان، غير موجود، أو قد أكون نسيباً زائفاً، أو محتالاً ثرثاراً؛ ولكن سبستيان نفسه، وفي أكثر أعماله التي تحوي سيرة ذاتية («ملكية مفقودة») قد وجد بعض الكلمات الحنونة ليقولها عن والدته - وأعتقد أنها كانت لتستحقها حقاً. لم يكن صحيحاً ما اقترحته الصحافة البريطانية بعد وفاة سبستيان، وهو أن والده قد مات مقتولاً في المبارزة التي خاضها عام ١٩١٣؛ في الواقع، كانت رصاصة قد اخترقت صدره في ذاك النزال، ولكن كان يتماثل للشفاء عندما - بعد شهر كامل - أصيب بنزلة برد حادة لم تتمكن رئتاه من التغلب عليها.

القلب الدافئ، روح الجندي الجميلة، روح الدعابة، عزة النفس، سلسلة غنية من خصال مغامر لا يهدأ، قد حملها سبستيان في دمه، ميراثاً قد ترجمه حين بدأ بالكتابة. في الشتاء الماضي،

(*) دروشكي: عربة كانت تستخدم في روسيا، وهي عربة مكشوفة بأربع عجلات، يجرها حصان. (مترجم)

خلال مأدبة غداء أدبي، في جنوب كنسينغتون، تطرّق ناقد عجوز شهير، لطالما أكبرتُ فيه الثقافة والذكاء، للمشاركة في الحديث الذي دار حول موت سبستيان نايت المفاجئ: «نايت المسكين! للحق، لقد كان له في حياته الأدبية مرحلتان، الأولى - رجل ممل يكتب بإنكليزية مكسّرة، الثانية - رجل مكسور يكتب بإنكليزية مملة.» ملاحظة شريرة، ملاحظة سيئة بأكثر من وجه، إذ إنه لا أسهل من الحديث عن كاتب متوفى، من وراء ظهر كتبه. أرغب في الاعتقاد أن ذلك المستهزئ لا يشعر بالفخر عند استذكاره دعابته تلك، بقدر ما شعر بالذنب أثناء نقده لأعمال سبستيان نايت، قبل عدّة سنوات.

ومع ذلك، علينا الاعتراف بأن أسلوب سبستيان الأدبي قد افتقر، بمعنى ما، إلى الدينامية المذهلة، على الرغم من كونه بعيداً كل البعد عن الملل. في كل مرة أقوم فيها بفتح كتبه، يتراءى لي والدي مندفعاً نحو الغرفة - تلك الطريقة الخاصة التي كان يرفس بها الباب ليفتحه وينقضّ مباشرة على شيء أراده أو مخلوق أحبه. انطباعي الأول عنه هو دائماً ذلك الانبهار الذي يقطع الأنفاس، كما لو أني رُفعت عن الأرض على نحو ينذر بالخطر، مع نصف قطاري ما زال مدلىً من يدي، وحبات الكريستال المتدلية من الثريا وقد أصبحت قرب رأسي. كان يرميني فجأة ليلتقطني قبل أن أقع، ثم يرفعني ثانية، تماماً كما كان نثر سبستيان يسحب البساط، فجأة، من تحت أقدام قرائه، ليسمح لهم بهبوط صادم فوق التفاهة المبهجة للفقرة المتوحشة التالية. كما يبدو أن بعض تهكمات والدي قد أثمرت زهوراً رائعة، ظهرت في قصص نايت النموذجية، كـ «ألبينوس(*) باللون الأسود»، أو «الجبل المضحك»، أفضل ما لديه

(*) ألبينوس: Albino وتعني الأمهق، وأيضاً تعني إنكلترا بلغة الشعر. (مترجم)

ربما، التي دائماً ما تدفعني حكايتها الرائعة الغريبة للتفكير في ولد يضحك أثناء نومه.

كان ذلك في الخارج، في إيطاليا على حد علمي، حين قابل والدي فيرجينيا نايت، وكان حينذاك حارساً شاباً في إجازة. ارتبط لقاؤهما الأول بمطاردة الثعالب في روما، حوالي عام ١٨٩٠، ولكن هل أعرف تلك الذكرى من أمي؟ أم أني أتذكرها لاشعورياً بسبب بعض صور قد رأيتها في ألبوم العائلة ولا تزال عالقة في ذهني؟ لا أدري حقيقة. تودد إليها لفترة طويلة. كانت ابنة إدوارد نايت، نبيل ذي ثروة؛ هذا كل ما أعرفه عنه؛ ولكن باعتبار أن جدتي، المرأة المتزمّتة والمتسلطة (أذكر منها مروحتها، قفازاتها وأصابعها البيضاء الباردة) قد عارضت زواجهما بشكل قاطع، وستعاود اعتراضاتها حتى بعد أن تزوج أبي ثانية، فإنني أميل للاستنتاج أن عائلة نايت (أياً كانت) لم تصل إلى المعيار (أياً كان ذلك المعيار) المطلوب من ذوي «الكعوب الحمراء» في نظام روسيا القديم. لست متأكداً ما إذا كان زواج والدي الأول ليتعارض، بطريقة ما، مع تقاليد فوجه؛ بكل الأحوال، لم يبدأ نجاحه العسكري الحقيقي إلا مع الحرب ضد اليابان، التي بدأت بعد أن تركته زوجته.

كنت ما أزال طفلاً حين فقدت والدي؛ وبعد ذلك بفترة طويلة، عام ١٩٢٢، قامت والدتي، قبل أشهر قليلة من العملية الجراحية، الأخيرة والقاتلة، التي أجرتها، بإخباري ببضعة أمور اعتقدت أن عليَّ معرفتها. لم يكن زواج والدي الأول سعيداً. امرأة غريبة، طائشة دائمة الهياج - ولكن ليس بالهياج الذي يحبه والدي. كان هو رجل سعي لا يتوقف، ما إن يحصل على هدف حتى يبدأ ببحثه عن آخر. أما هي، فكانت فاترة المسعى، متقلبة وغريبة الأطوار، غالباً ما تنحرف عن هدفها، تنساه في منتصف الطريق، كما ينسى أحدنا

مظلته في عربة أجرة. أحبّت أبي على طريقتها، طريقتها غير المستقرة، على أقل تقدير، وحين حدث ذات مرة وظنت نفسها واقعة في حب رجل آخر (لم يسمع أبي باسمه من فمها أبداً)، هجرت زوجها مع طفل على نحو مفاجئ، كما تبدأ قطرة مطر بالانزلاق فوق ورقة ليلك، هابطة نحو الأسفل، الهزة التي ترفع الورقة المهجورة، بعد أن أثقلها الحِمْل المتلألئ، ولكنها في حالة والدي، قد كلفته آلاماً مبرحة؛ حتى أنني لا أحب أن أتخيل، ولو مجرد تخيل، ذلك اليوم في فندق باريسي، كيف تُرك سبستيان، وكان وقتذاك في الرابعة من عمره، لحاضنة مرتبكة، بينما أغلق والدي على غرفته على نفسه، «ذلك النوع الخاص من غرف الفنادق الذي يتناسب تماماً مع تمثيل أسوأ المسرحيات التراجيدية: ساعة بخشب مصقول (الشارب الشمعي لعقارب تشير إلى الثانية إلا عشر دقائق) قد ماتت تحت واجهة زجاجية مقببة، فوق رفّ موقد شرير؛ نافذة فرنسية مع فراشة ثملة تتخبط بين الموسلين واللوح الزجاجي؛ وعيّنة من ورق رسائل خاصة الفندق، فوق لوح نشاف سبق أن استُعمل كثيراً». كان هذا اقتباس من «ألبينوس باللون الأسود»، العمل الذي لا يرتبط ولا بأي شكل من الأشكال بهاتيك الكارثة الخاصة، ولكنه يحمل أثر الذكرى البعيدة لطفل حزين ومتجهم قد تُرك فوق سجادة فندق قاتمة، لا يدري ما يفعله، بكل ذلك الوقت المتوسع أمامه، الوقت الفارغ والغريب، الذي يبدأ يفترش أرض حياته...

لقد أتاحت الحرب في الشرق الأقصى لوالدي فرصة لنشاط قد ساعده، إن لم يكن على نسيان فرجينيا نايت، فعلى الأقل، على جعل الحياة تستحق العيش ثانية. لم تكن أنانيته القوية إلا شكلاً من حيويته الرجولية، المتوافقة تماماً مع طبيعته السخية في أساسها. لم يكن يرى في خنوعه للبؤس - ناهيك عن تدمير الذات - إلا تجارة

خاسرة، واستسلاماً مخجلاً. عندما تزوج مرة أخرى عام ١٩٠٥، شعر بالرضا التام وأن القدر قد عاد ليبتسم له.

عادت فرجينيا للظهور عام ١٩٠٨. كانت دائمة الترحال، دائمة التنقل وتبديل أماكن إقامتها، من نُزل متواضعة إلى فنادق فخمة، إذ كانت الراحة التي يقدمها التغيير الدائم، هي مرادف المنزل عندها. إنه منها ما ورثه سبستيان من ذلك الشغف الغريب، والشاعري إلى حد ما، بمقطورات النوم وقطارات أوروبا السريعة العظيمة: «الصرير الناعم للألواح المصقولة في ليلة تضيئها مشاعل زرقاء؛ نشيج المكابح الطويل والحزين في المحطات التي يستيقظ الراكب فجأة ليُخمن موقعها تخميناً؛ ارتفاع ستار جلدي مزخرف عند شدّه قليلاً نحو الأسفل، ليكشف عن رصيف محطة، عن رجل يجر حقيبة أمتعته، عن مصباح شارع مع عثة شاحبة ترفرف تحت ضوئه الحليبي؛ قعقعة مطرقة غير مرئية تختبر العجلات؛ الانزلاق مجدداً في الظلام؛ النظرة الخاطفة نحو امرأة وحيدة، بينما تخرج من حقيبتها أشياء فضية لامعة، لتضعها فوق المخمل الأزرق في إحدى المقصورات».

وصلتْ في قطار نورد إكسبرس، في يوم شتوي، من دون أدنى إنذار، وأرسلت رسالة فظة تطلب فيها رؤية ابنها. كان والدي في رحلة لمطاردة الدببة، بعيداً عن البلدة؛ تصرفت أمي بسرعة واصطحبت سبستيان إلى فندق «أوروبا»، حيث قررت فيرجينيا البقاء لفترة بعد الظهر فقط؛ هناك في القاعة، رأت أمي زوجة زوجها الأولى، امرأة نحيلة، لجسدها زوايا، إلى حد ما، مع وجه صغير يهتز تحت قبعة سوداء ضخمة. رفعت الحجاب المتدلي من القبعة لتقبل الصبي، وما إن لمسته شفتاها حتى انفجرت بالبكاء، كما لو أن وجنتَي سبستيان الحارّتين كانتا مصدر شقائها وخزائنه. بعد ذلك

مباشرة، ارتدت قفازاتها ثم شرعت تخبر أمي، بفرنسية سيئة جداً، بقصة تافهة وغير ملائمة البتة، عن امرأة بولندية قد حاولت سرقة حقيبة مستحضرات تجميلها، في مقصورة الطعام. ثم حشرت في كفّ سبستيان قطعة سكاكر صغيرة مغلفة بالبنفسجي، توجهت نحو والدتي بابتسامة عصبية، ثم لحقت بالبواب الذي كان يحمل حقائبها. كان هذا كل شيء، ثم توفّيت في العام التالي.

وصلَنا من ابن عم لها، هـ. ف. ستينتون، أنها وخلال الأشهر الثلاثة الأخيرة من حياتها، قد طافت في جميع أنحاء جنوب فرنسا، لتقيم كل يوم أو يومين ، في أريافه الصغيرة الحارة، التي نادراً ما تستقبل سياحاً، وكانت محمومة، وحيدة (كانت قد هجرت عشيقها)، وعلى الأرجح، تعيسة جداً. كانت تترك مكاناً لتعود إليه ثانية، ثم تكرر رواحها ومجيئها، لتدفع من يراها إلى الظن أنها هاربة من أمر ما أو شخص ما؛ من ناحية أخرى، وبالنسبة لأي شخص قد عرف مزاجيتها، فإن ذلك الاندفاع المحموم لم يكن إلا آخر مبالغة في التعبير عن عدم استقرارها. توفيت بنوبة قلبية (مرض ليهمان(*))، في بلدة روكيوبرون، في صيف ١٩٠٩. كانت هنالك بعض الصعوبات في إرسال الجثة إلى إنكلترا؛ كان كل أفراد عائلتها قد توفوا قبلها، ولم يأت إلى إنجلترا لحضور دفنها، إلا السيد ستينتون.

عاش والداي بسعادة. كان زواجاً هادئاً ورقيقاً، لم تهدد استقراره النميمة السيئة التي سرت على ألسنة بعض أقاربنا، وهي أن والدي، على الرغم من كونه زوجاً محباً، كان ينجذب، بين الحين

(*) مرض ليهمان: ورد في دراسة روسية تناولت الرواية، أن التسمية قد اشتقها الكاتب من بحيرة ليمان، التي تعرف أيضاً ببحيرة جنيف، وتقع ما بين الحدود السويسرية والحدود الفرنسية. (مترجم)

والآخر، إلى نساء أخريات. في أحد الأيام، حوالي عيد الميلاد عام ١٩١٢، وبينما كان والدي يتنزه فوق ضفة نهر نيفا، مع إحدى معارفه، وهي فتاة ساحرة برأس فارغ، أخبرته أن خطيب شقيقتها، ويدعى بالشين، كان يعرف زوجته الأولى. أجاب والدي بأنه يتذكر الرجل؛ كانا قد التقيا في منتجع بياريتز قبل عشر سنوات، أو ربما تسع. . .

«أوه، ولكنه عرفها لاحقاً أيضاً»، قالت الفتاة، «لقد اعترف لأختي أنه عاش مع فرجينيا بعد أن انفصلتما. . . ثم تركته في مكان ما في سويسرا. . . لا أحد يعرف بذلك، أمر مضحك!»

«حسناً!» قال والدي بهدوء، «إن بقي الأمر سراً آنذاك، فلا داعي للثرثرة بعد عشر سنوات.»

في اليوم التالي، وبطريق صدفة جهنمية، سأل والدي صديقُ أسرتنا الطيب، الكابتن بيلوف، ما إذا كان صحيحاً أن زوجته الأولى أسترالية الأصل - لأنه، أي الكابتن، لطالما ظنها إنكليزية. أجاب والدي بأنه وعلى حد علمه، فإنّ والديها قد عاشا لبعض الوقت في ملبورن، ولكنها قد وُلدت في بلدة كِنت الإنكليزية.

«. . . لمَ تسالني هذا السؤال؟» أضاف والدي.

أجاب الكابتن، مراوغاً، أن زوجته كانت في حفلة، أو شيء ما من هذا القبيل، وأنها سمعت أحدهم يقول شيئاً ما. . . «أخشى أنه على بعض الثرثرات أن تتوقف!» قال والدي.

في صباح اليوم التالي، قام بزيارة بالشين، الذي استقبله بلطف فائض عن الحاجة المطلوبة. قال إنه قضى سنوات عديدة في الخارج، وإنه سعيد بلقاء الأصدقاء القدامى.

«هناك كذبة قذرة آخذة في الانتشار»، قال والدي دون أن يجلس، «وأعتقد أنك تعرف ما هي.»

«اسمع يا رفيقي العزيز!» قال بالشين، «لا فائدة من التظاهر

بعدم درايتي بما ترمي إليه. أنا آسف لما بدء الناس يتناقلونه، ولكن صدقني لا يوجد ما يستحق غضبنا... إنه ليس خطأ أحد، إن كان قد كُتب لنا أنا وأنت أن نركب المركب ذاته.»

«في تلك الحالة يا سيدي»، قال والدي، «سيتصل بك شهودي قريباً.»

كان بالشين أحمق ونذلاً، هذا على الأقل ما عرفته عنه من خلال القصة التي أخبرتني بها والدتي (القصة بشكلها الحي والمباشر الذي أحاول الحفاظ عليه هنا). ولكن، وعلى وجه التحديد، لأن بالشين كان أحمق ونذلاً، فإنني لا أستطيع فهم الأمر الذي لأجله قد يخاطر رجل بمستوى والدي، بخسارة حياته لأجله. ما هو؟ أيكون شرف فرجينيا؟ رغبته في الانتقام؟ ولكن بما أن شرف فرجينيا قد ضاع، من دون أي أمل باسترداده، منذ اللحظة التي هربت فيها، فإنه كان على كل أفكار الانتقام أن تفقد أيضاً شهوتها المريرة، لتضيع بدورها خلال سنوات زواج والدنا الثاني السعيدة. أم إن القضية هي أنه قد عرف اسم غريمه فقط، عرف وجهه، وانكشف أمامه فجأة التوقيع الشخصي البشع لشبح بقي مجهولاً لمدة طويلة؟ ولكن، حتى وإن أخذنا بكل هذه الاعتبارات، أكان صدى ذلك الماضي البعيد (إن أصداء الأشباح، ومهما كانت نقية، لا تتعدى كونها نباحاً) أكان يستحق الخراب الذي ألحقه بعائلتنا؟ أكان يستحق حزن أمي؟

خاضا المبارزة خلال عاصفة ثلجية، على ضفة نهر متجمد. تبادل الاثنان طلقات النار قبل أن يسقط والدي على وجهه، فوق الثلج، بمعطفه العسكري، بلون الرمادي المزرق. أشعل بالشين سيجارة بيديه المرتجفتين. نادى الكابتن بيلوف الحارس، الذي كان ينتظر صامتاً على مسافة قريبة قد كساها الثلج. استغرق الأمر الوحشي برمّته ثلاث دقائق لا أكثر.

في رواية «ملكية ضائعة»، يضع سبستيان كل انطباعاته عن ذلك اليوم المشؤوم في يناير. «لا زوجة أبي»، كتب، «ولا أي واحد من أفراد الأسرة كان على علم بالعلاقة المعلقة. في المساء، عند العشاء، رمى إليّ والدي بكريات الخبز عبر الطاولة: كنت طوال النهار أعاني من خشونة الصوف الذي أصر عليَّ الطبيب أن أرتديه، وكان والدي يحاول إبهاجي؛ لكني احمررت غضباً، وأدرت رأسي متبرماً؛ جلسنا بعد العشاء في غرفة مكتبه، هو يحتسي القهوة، وأنا أستمع إلى التقرير الذي أدلت به زوجة أبي، حول التصرفات المؤذية لمربية أخي غير الشقيق، الصغير، التي تناوله سراً حبات السكر قبل خلوده إلى النوم؛ وأنا، في أبعد زاويا الغرفة، فوق الأريكة، أقلب صفحات مجلة الرفاق: 'إلى اللقاء مع الحلقة القادمة من هذه الحكاية الرائعة'. النكات مكتوبة أسفل الصفحات الكبيرة الرقيقة:

'لقد قدمنا لضيف الشرف جولة في كامل المدرسة.

- ما أكثر ما ترك لديك أثراً؟

- حبة البازلاء التي أطلقها عليَّ أحدهم'.

صور القطارات السريعة تطوف خلال الليل. بطل الرغبي الذي صدّ عن رفيق له خنجراً قد رماه به ماليزي شرير... المسلسل 'الصاخب' الذي يحكي قصة ثلاثة أولاد أحدهم كان بهلواناً، له القدرة على جعل أنفه يدور، الثاني محضّر أرواح، والثالث يتحدث من بطنه... فارس يقفز فوق سيارة سباق...

في صباح اليوم التالي، في المدرسة، قمت بإحداث فوضى عارمة أثناء حل مسألة هندسية، المسائل التي نسمّيها بلهجتنا العامية 'سراويل فيثاغورس'. كان الصباح مظلماً جداً لدرجة أن مصابيح

الصفّ بقيت مضاءة، ما سبّب لي طنيناً مزعجاً في رأسي. عدت إلى البيت حوالي الثالثة والنصف، مع ذلك الإحساس بوساخة دبقة، لطالما حملته كلما عدت من مدرستي، ولكنه يومذاك كان معززاً بحكة بغيضة في ملابسي الداخلية. في الدهليز، كان تابع أبي يبكي.»

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الثاني

في كتابه المضلل الذي ألّفه كيفما اتفق، يرسم السيد غودمان، بعبارات قد اختارها بشكل سيّئ، صورة زائفة وسخيفة عن طفولة سبستيان نايت. إنها أمور قد يكتبها مساعد المؤلف، وتختلف اختلافاً جذرياً عن كتابة سيرة حياته؛ وإن كان الدافع وراء مشروع كهذا هو طرح كتاب في السوق ورشّ بعض المنفعة على زهور طرية قد شُتلت حديثاً فوق قبر حديث، فإن المسألة تكون مجرد محاولة الجمع بين اللهاث التجاري ومتطلبات البحث الشامل، والتي هي الإنصاف والحكمة. أنا لا أسعى وراء إلحاق الأذى بسمعة أي شخص. ليس تشهيراً إن أكدت أن وحده زخم الآلة الطابعة هو ما دفع السيد غودمان ليكتب «إن التعليم الروسي كان مفروضاً على صبي لطالما كان مدركاً لنزعته نحو الإنكليزية الغنية، التي تغلي في عروقه».

«هذا التأثير الأجنبي»، تابع السيد غودمان، «قد جلب للطفل محنة شديدة، بحيث إنه في سنوات نضجه قد استذكر، مرتعداً، الفلاحين الروس الملتحين، الأيقونات، دندنة البالالايكا(*)، وكل ما حلّ محله التعليم الإنكليزي الصحي.»

(*) بالالايكا: شبيهة آلة العود في روسيا. (مترجم)

ربما لا فائدة من إشارتنا إلى أن مفهوم السيد غودمان عن المحيط الروسي لم يتكون إلا عن جهل منه بطبيعتها، كما، على سبيل المثال، مفهوم قلميقي(*) عن إنكلترا، التي لا يعرف عنها سوى أنها مكان مظلم جداً، يُجلد فيه الصبية الصغار حتى الموت، على يد أساتذة ذوي شعور حمراء.

للحقيقة، ما نحتاج إلى تأكيده هو أن سبستيان قد نشأ في جو من النقاء الفكري، يمزج ما بين النعمة الروحية لعائلة روسية، وبين أفضل كنوز الثقافة الأوروبية، وبغضّ النظر عن ردة الفعل التي أثارتها الذكريات الروسية في نفس سبستيان، فإن طبيعته المعقدة والاستثنائية لم تنحدر أبداً إلى المستوى الذي اقترحه كاتب سيرة حياته.

أذكر حين كان سبستيان صبياً، يكبرني بست سنوات، كيف كان يصنع فوضى عارمة بالألوان المائية، تحت الهالة المألوفة لمصباح كيروسين فخم، يبدو ظله الوردي الحريري، وقد لمع الآن في ذاكرتي، وكأنه مرسوم بفرشاة الطفل الرطبة. أراني، طفلاً في الرابعة أو ربما الخامسة من عمري، واقفاً على رؤوس أصابعي، أشد رأسي متململاً، محاولاً أن ألمح بوضوح من وراء الكوع المتحرك لأخي غير الشقيق، حاملة الألوان؛ الأحمر والأزرق اللزجان، وهما أكثر الألوان المستخدمة، وقد ظل يضرب فرشاته في محجريهما حتى بان القعر اللامع؛ كلما أراد سبستيان مزج ألوانه، كنت أسمع ضرباً خفيفاً فوق الحاملة القصديرية المقعرة، أما الماء في الكأس أمامه، فكان غائماً بمسحات سحرية من الأوان المتباينة. يسمح شعره البني والقصير جداً، برؤية وحمة صغيرة فوق أذنه الشفافة المتوردة -

(*) قلميق: أو الكالميك، شمال القوقاز. (مترجم)

تمكنت في هذه اللحظة من تسلق كرسي - لكنه لم يكن قد انتبه لوجودي بعد، إلى أن جاءت هاتيك اللحظة، حين، باندفاعة متزعزعة، حاولت لمس التجويف الأشد ازرقاقاً في الحاملة، وعندئذ، صدّني بحركة من كتفه وأبعدني، حتى دون أن يلتفت، دون أن ينطق بكلمة، دون أن يقترب مني، كما لن يفعل أبداً. أتذكر كيف كان يتكأ على درابزين الدرج، وكيف كان يصعد الدرجات، بعد المدرسة، مرتدياً الزيّ الأسود الموحد، مع ذلك الحزام الجلدي الذي كنت أرغب فيه في سرّي؛ أذكر صعوده البطيء، الكسول، يجر حقيبته المدرسية المبقعة خلفه، ينقر فوق الدرابزين، ثم بين الحين والآخر، يندفع فجأة ليأخذ درجتيْن أو ثلاث بقفزة واحدة. كنت أزمّ شفتيّ لأستخرج من بينهما بصاقاً أستمر بمراقبة هبوطه نحو الأسفل، ولكنه في كل مرة، كان يخطئ رأس سبستيان؛ لم يكن فعلي ذاك رغبة مني في مضايقته، ولكن مجرد محاولة تواقة غير مجدية، لجعله ينتبه إلى وجودي. لدي ذكريات حية، أيضاً، لركوبه دراجته بمقودها المنخفض جداً على درب مرقط بأشعة الشمس، في متنزه منزلنا الريفي، وكان يدور ببطء، دون أن يحرك الدواسات، وأنا أخبب وراءه، ثم أزيد سرعتي ما إن يضغط بصندله فوق الدواسات؛ كنت أبذل قصارى جهدي لمواكبة عجلاته الخلفية المطقطقة، ولكنه ما كان ليدري بوجودي، وسرعان ما يخلفني وراءه، يائساً، لاهثاً، مهرولاً، كما لا أزال حتى اليوم.

ثم في وقت لاحق، حين أصبح هو في السادسة عشرة وأنا في العاشرة، صار يساعدني أحياناً في بعض دروسي، موضحاً الأمور بطريقة سريعة نافدة الصبر، المساعدة التي ما كانت لتثمر عن أي فائدة، مما كان يدفعه، بعد وقت قصير، لحزم أقلامه والخروج من الغرفة. كان في تلك الفترة طويلاً ذا بشرة شاحبة، مع ظل قاتم فوق

شفته العليا. صار لشعره فرق لامع، وصار يكتب الشعر في دفتر أسود الغلاف، كان يحتفظ به في درجه المقفل.

اكتشفت مرة أين يخفي المفتاح (في صدع في الجدار قرب الموقد الهولندي الأبيض في غرفته) وفتحت ذلك الدرج. وهناك كان دفتر الأسرار؛ وأيضاً صورة لشقيقة أحد زملائه؛ بعض العملات الذهبية؛ وحقيبة موسلين صغيرة تملأها سكاكر البنفسج. كانت القصائد مكتوبة بالإنكليزية. كنا قد تلقينا في المنزل دروساً خصوصية في اللغة الإنكليزية، قبل وفاة والدنا بوقت قصير، وعلى الرغم من أنني لم أتمكن أبداً من التحدث بها بطلاقة، إلا أنني كنت أجيد قراءتها وكتابتها بسهولة كبيرة نسبياً. أذكر على نحو غامض، أن الأبيات كانت عاطفية جداً، مليئة بالورود الداكنة ونداء البحر؛ ولكن هنالك تفصيل واحد بارز في ذاكرتي: كان التوقيع تحت كل قصيدة على شكل قطعة صغيرة سوداء من حصان الشطرنج(*)، مرسومة بالحبر الأسود.

لقد سعيت جاهداً لتكوين صورة متماسكة لما وصلني من أخي غير الشقيق في هاتيك الأيام من طفولتي، ما بين، لنقل، ١٩١٠ (أولى سنوات وعيي) و١٩١٩ (السنة التي غادر فيها إلى إنكلترا). ولكنها كانت مهَمة مراوغة. لا تظهر لي صورة سبستيان كجزء من طفولتي، وبالتالي فإنها تبقي عرضة للاختيار والتطوير، اللذين لا ينتهيان؛ ولا تظهر أيضاً كتعاقب رؤىً مألوفة؛ أراها على نحو متقطع، كبضع بقع مضيئة، كما لو أننا لم نكن فردين ثابتين من أسرتنا، بل زائرين عابرين، يتقابلان من دون موعد مرتب في غرفة مضاءة، ثم يضيعان مرة أخرى، ولفترة طويلة، في عتمة الليل. لا

(*) حصان الشطرنج: انظر الملاحظة الأولى في الفصل الأول. (مترجم)

يمكنني شرح الأمر جيداً بواقع أن اهتماماتي الطفولية قد حالت دون إقامة علاقة واعية مع شخص لم يكن صغيراً بما يكفي ليكون رفيقي ولا كبيراً بما يكفي ليكون موجهي، بل أفسره بواقع انطواء سبستيان الدائم على ذاته، وبذلك، ورغم حبي الغالي له، استمر في تجاهلي وتجاهل عاطفتي نحوه. ربما أستطيع وصف طريقة مشيته، ضحكه أو عطاسه، ولكن كل ذلك لن يكون إلا مقتطفات عشوائية من أفلام سينمائية، اقتطعها مقص، لا علاقة لها بالدراما الأساسية. كانت هنالك دراما. لم يستطع سبستيان أبداً أن ينسى والدته، ولا أن ينسى والده الذي مات بسببها. حقيقة أن اسمها ما كان ليُذكر في بيتنا أبداً، قد أضافت بريقاً مرضياً على سحرها الباقي في ذاكرته، والذي كان يغمر روحه الهشة. لست أدري ما إذا كان يتذكر بوضوح الأيام التي كانت لا تزال فيها زوجة لأبيه؛ ربما يذكرها كما لو كانت إشعاعاً رقيقاً في خلفية حياته. كما وأني لا يمكن لي معرفة ما شعر به عند رؤيتها مجدداً حين كان ولداً في التاسعة من عمره. قالت والدتي مرة إنه كان فاتراً معقود اللسان، ثم لم تعد أبداً إلى ذكر ذلك اللقاء القصير، المبتور والمثير للشفقة. يلمّح سبستيان في «ملكية ضائعة» إلى مشاعر مرّة وغامضة قد اعترته إزاء والده الذي كان سعيداً بزواجه الثاني، المرارة التي تحولت إلى عبادة وتقدير مبهجيْن، عندما عرف الدافع الحقيقي وراء نزال والده المشؤوم.

«اكتشافي لإنكلترا»، كتب سبستيان (ملكية ضائعة)، «قد أغدق حياة جديدة على ذكرياتي الأكثر حميمية... بعد كامبريدج، قمت برحلة برية في القارة، وأمضيت أسبوعين في مونتي كارلو. أعتقد بوجود كازينو هناك، حيث يلعب الناس القمار، إن كان الأمر صحيحاً فقد فاتني أن أزوره، إذ إني قضيت معظم وقتي في بتأليف

روايتي الأولى - عمل رنان، يسعدني أن أقول إنه قد حظي بكثير من رفض الناشرين له، بقدر ما حظي كتابي التالي بقراء. ذهبت يوماً في نزهة طويلة واكتشفت مكاناً يسمى روكيوبرون. لقد حدث في روكيوبرون أن ماتت والدتي قبل ثلاثة عشر عاماً. أذكر جيداً اليوم الذي أنبأني فيه والدي بموتها، كما أذكر اسم النزل الذي حدثت فيه الواقعة. كان اسمه 'أزهار البنفسج'. سألت السائق ما إذا كان يعرف داراً بهذا الاسم، لكنه أجاب نافياً. ثم سألت بائع فاكهة فدلّني على الطريق. وصلت في النهاية إلى فيلا وردية اللون، مسقوفة بقرميد المقاطعة النموذجي، الأحمر المدور. ثم لاحظت وجود باقة من أزهار البنفسج مرسومة فوق البوابة. إذاً، هذا هو النزل. عبرت الحديقة وتحدثت إلى صاحبة الملكية، فقالت إنها قد حصلت مؤخراً عليها من مالكها السابق، وإنها لا تعرف شيئاً عن سجلات الماضي. طلبت إذنها للجلوس في الحديقة لقليل من الوقت. لم أرَ هناك أحداً باستثناء رجل عجوز، قد ظهر فوق إحدى الشرفات يحدق بي، وكان كل ما بان من جسده عارياً. جلست فوق مقعد أزرق، تحت شجرة كينا هائلة قد تجردت من نصف لحائها تقريباً، الحالة التي غالباً ما نراها لدى هذا النوع من الأشجار. ثم حاولت أن أنظر بعين أمي إلى الدار الوردي، الشجرة، وكل ما في ذلك المكان. شعرت بالأسى لعدم معرفتي أيها كانت نافذة غرفتها. بحكمي على اسم الفيلا، أحسست يقيناً أن غرفتها كانت حتماً تشرف على هذا المرج من أزهار الثالوث البنفسجية. ثم وصلت تدريجياً إلى حالة، قد بدا لي فيها، ولوهلة، اللون الوردي متماهياً مع الأخضر في بريق ناعم، متماوج، كما لو كنت أراه من وراء حجاب ضبابي. رأيت أمي، بطيفها الباهت وقبعتها الكبيرة، تصعد ببطء فوق درجات بدت مرنة وكأنها ماء. أعادتني هزّة مروعة إلى وعيي. تدحرجت برتقالة من

كيس الورق الذي كان في حضني. التقطتها وخرجت من الحديقة. بعد بضعة أشهر، قابلت صدفة في إنكلترا ابن عم لها. قادني الحديث الذي دار بيننا إلى ذكر زيارتي للمكان الذي ماتت فيه. 'أوه! لكنها كانت في روكيوبرون أخرى، تلك التي في بلدة فار'، قال لي.»

من الغريب أن نلاحظ أن السيد غودمان، مقتبساً المقطع ذاته، قد اكتفى بالتعليق عليه بما يلي: «كان سبستيان نايت مفتوناً بالجانب الهزلي من الأشياء، وعاجزاً عن التعامل مع جوهرها الجدي دون أن يكون قاسي القلب أو ساخراً، هازئاً بالعواطف الحميمة، المقدسة عند سائر البشر». لا عجب أن كاتب السيرة الوقور هذا، غير متناغم مع بطله، ولا في أي نقطة من نقاط قصته.

لكل الأسباب التي سبق ذكرها، لن أتتبع أثر طفولة سبستيان بأي شيء من الاستمرارية المنهجية، التي كنت لأحققها، لو كان سبستيان شخصية خيالية. لو كان الأمر كذلك، لتمكنت من تعليق القارئ بجعله يتابع التطور السلس لبطلي من مرحلة طفولته وحتى شبابه. ولكني إن جربت تلك الطريقة مع سيرة سبستيان، فستكون بالنتيجة واحدة من تلك «السير الرومانسية»، والتي هي أسوأ أنواع الآداب التي اختُرعت حتى يومنا هذا. فلنترك إذاً باب الغرفة المجاورة مغلقاً مع خيط ضوء رفيع ولكن واضح، يتسرب من تحته ، ولنترك لسبستيان مهمة إطفاء المصباح، وإخماد ذلك الخيط، إذا ما قرر الخلود إلى النوم؛ لنترك ذلك البيت الرائع، بلونه الزيتوني، ليتلاشى تدريجياً فوق ضفة ميناء نوفا، ويغيب في الصقيع الأزرق الرمادي لليالي الشتاء، مع ثلج يتساقط رويداً فوق مصابيح الشوارع الطويلة، ذات الإضاءة القمرية، ناثراً بياضه فوق الأطراف الضخمة لدعامتين ملتحيتيْن، قد حملتا، كما حمل أطلس، مشربية غرفة نوم أبي. أبي

ميت؛ سبستيان نائم، أو على الأقل، قابع كفأر هادئ في زاوية غرفته المجاورة؛ وأنا، ما زلت مستلقياً في سريري، بكامل يقظتي، أحدق في الظلام.

بعد حوالي عشرين عاماً، قمت برحلة إلى لوزان بهدف العثور على السيدة السويسرية العجوز التي كانت مربية سبستيان الأولى، ثم مربيتي. لا بد أنها كانت فيما يقارب الخمسين من عمرها حين تركتنا عام ١٩١٤؛ كانت المراسلات فيما بيننا قد توقفت منذ زمن بعيد، لذا لم أكن متيقناً من بقائها على قيد الحياة، في عام ١٩٣٦. ولكنها كانت. وهناك، اكتشفت وجود تجمع للنساء السويسريات اللواتي كن مربيات في روسيا قبل الحرب. كن «يعشن في ماضيهن»، كم شرح لي الرجل اللطيف الذي قادني إلى هناك؛ كن يمضين هناك سنواتهن الأخيرة - مقعدات وخرفات بغالبيتهن - يقارنَّ الذكريات، يراجعن ضغائنهن القديمة التافهة وينهلن بالسباب على وضع الأحوال في سويسرا، الذي اكتشفن مدى سوئه بعد السنوات الطويلة التي عشنها في روسيا. ما كان مأساوياً في حالتهن هو أنهن خلال كل تلك السنوات التي أمضينها في بلد أجنبي، قد بقين محصنات تماماً أمام تأثير الاغتراب (لدرجة أنهن لم يتعلمن حتى أبسط الكلمات الروسية)، وكنّ معاديات لمحيطهن الجديد، إلى حد ما - كم من مرة سمعت المربيات يندبن منافيهن، يشتكين من تهميشهن وإساءة فهمهن، يذرفن دموع الحنين لمسقط رؤوسهن - ولكن عندما عادت هذه الأرواح المتجولة إلى مواطنها، وجدت المسكينات أنفسهن وقد أصبحن غريبات تماماً في بلد قد تغير؛ وهكذا، وبفعل مشاعر غريبة ومخادعة، أصبح لروسيا (التي كانت في الحقيقة بالنسبة لهن هاوية مجهولة، تزمجر وراء زاوية غرفة قاتمة، يضيئها مصباح ضعيف، يملأها الأثاث وصور عائلية بإطارات لؤلؤية، ولوحة مائية لقلعة دو

شيون(*))، روسيا المجهولة، أصبح لها الآن في أذهانهن شكل الفردوس المفقود، أصبحت الآن ذلك المكان الشاسع والغامض، المسكون بخيالات حزينة، الذي بتن يتذكرنه بكثير من الحميمية.

وجدت المربية وقد أصبحت صماء بشعر أبيض، لم يغير مرور السنين شيئاً من فصاحتها، وبعد أول عناقاتنا الحارة، بدأت بتذكر بعض الأحداث الصغيرة من طفولتي، التي كانت إما مشوهة على نحو ميؤوس منه، أو بعيدة كل البعد عن ذاكرتي لدرجة شكّي في أنها محض خيال. لم تكن تعلم بموت أمي، ولا بموت سبستيان قبل أشهر ثلاثة، كما أنها كانت جاهلة تماماً بكونه أصبح كاتباً عظيماً. بكت بشدة وبدموع صادقة، ولكنها بدت منزعجة قليلاً من عدم مشاركتي لها في البكاء. «لطالما كنت متحكماً بمشاعرك»، قالت. أخبرتها أني كنت أؤلف كتاباً عن سبستيان وطلبت منها أن تحدثني عن طفولته. كانت قد أتت للإقامة في منزلنا مباشرة بعد زواج والدي الثاني، ولكن الماضي كان قد أصبح في ذهنها مشوشاً جداً، ومستبدلاً، لدرجة أنها راحت تروي عن زوجة والدي الأولى («تلك الإنكليزية الرهيبة») كما لو أنها عرفتها بقدر ما عرفت أمي («تلك المرأة الطيبة»). «صغيري المسكين سبستيان»، قالت منتحبة، «كم كان لطيفاً معي، كم كان نبيلاً! أوه، إني أتذكر الآن كيف كان يلف ذراعيه حول عنقي قائلاً: 'أكره الجميع، ما عداك أنت يا زيل، أنت الوحيدة التي تفهم روحي'. أذكر ذلك اليوم حين صفعتُ يده برفق - نقرة خفيفة جداً - لأنه كان وقحاً مع والدتك، ولكن ذلك التعبير الذي رأيته في عينيه، جعلني أوشك على البكاء، وصوته أيضاً حين قال: 'أنا ممتن لك يا زيل، أعدك أن لا أكررها ثانية...'.»

(*) قلعة دو شيون: سويسرا، بالقرب من بحيرة جنيف. (مترجم)

استمرت طويلاً بتلك النبرة التي جعلتني أشعر بضيق مزعج للغاية. تمكنت أخيراً، بعد العديد من المحاولات غير المجدية، وبعد مدة طويلة بما يكفي لجرح حبالي الصوتية، إذ إن العجوز كانت قد وضعت سماعاتها بطريقة خاطئة، تمكنت من تحويل مسار حديثها. تحدثت بعد ذلك عن جارتها، وهي امرأة صغيرة الحجم وسمينة، وتزيدها عمراً، كنت قد قابلتها في الممر. اشتكت مدعية أن «المرأة الطيبة صماء تماماً، وتخترع كذبات مروعة. أنا متأكدة أنها كانت فقط تدرّس أطفال الأميرة ديميدوف، ولكنها لم تقم عندهم أبداً»... «اكتب كتابك، هذا الكتاب الرائع!» صاحت بينما كنت على أهبة المغادرة، «اجعله حكاية خرافية، واجعل من أخيك أميرها! الأمير المسحور... كم من مرة قلت له: كن حذراً يا سبستيان، فالنساء سيعشقنك! وكان يجيبني ضاحكاً: حسناً، وأنا أيضاً سأعشقهن...»

كنت أتعذب في داخلي. أعطتني قبلة حارة جداً، ربتت فوق يدي، ثم عادت للبكاء ثانية. نظرتُ إلى عينيها الهرمتيْن الضبابيتيْن، إلى البريق الباهت فوق بدلة أسنانها، إلى بروش العقيق المعلق فوق صدرها، والذي أذكره تماماً... افترقنا. كانت تمطر بشدة، وكنت أشعر بالخجل وبالغضب، لكوني قطعت كتابة الفصل الثاني من أجل القيام برحلة الحج تلك، غير المثمرة. تركت عندي انطباعاً مزعجاً جداً. لم تطرح ولا حتى سؤالاً واحداً عن حياة سبستيان بعد عهدها، ولا حتى استفساراً واحداً عن كيفية موته، لا شيء البتة.

الفصل الثالث

في شهر نوفمبر من عام ١٩١٨، قررت أمي الفرار مع سبستيان ومعي من مخاطر روسيا. كانت الثورة القائمة جارية على قدم وساق، وكانت الحدود مغلقة. اتصلتْ بأحد المهربين واتفقت معه على أجر معين، قد دفعت نصفه مقدماً، مقابل أن يوصلنا إلى فنلندا. كان علينا ترك القطار مباشرة قبل الحدود، في محطة لم يكن النزول فيها ممنوعاً، ومن هناك، عبور مسارات سرية، قد أصبحت سريتها مضاعفة بفضل تراكم الثلوج في تلك المنطقة الصامتة. في لحظة بداية رحلتنا في القطار، وجدنا أنفسنا، أنا ووالدتي، ننتظر سبستيان الذي، وبمساعدة بطولية من الكابتن بيلوف، كان يجر أمتعتنا من المنزل نحو المحطة. كان من المقرر أن ينطلق القطار عند الثامنة وأربعين دقيقة. أشار عقرب الدقائق إلى السادسة ولم يصل سبستيان. كان دليلنا قد سبقنا إلى القطار، حيث جلس يقرأ صحيفة بهدوء؛ كان قد حذّر والدتي، وفي أي حال من الأحوال، من التحدث إليه علانية؛ مر الوقت، واستعد القطار للانطلاق، وبدأ كابوس مرعب يخيّم على كلينا. كنا نعلم أن الرجل، وفقاً لتقاليد مهنته، لن يوافق أبداً على تجديد محاولة قد فشلت قبل أن تبدأ. وكنا نعلم أيضاً أن تحمّل نفقات رحلة أخرى، لم يكن ممكناً. مرت دقائق، وأحسست باليأس يقرقر في جوف معدتي. مجرد التفكير في أن القطار سيتحرك

خلال دقيقة أو دقيقتين، وأننا سنعود للعيش في علية باردة ومظلمة (تم تأميم منزلنا منذ عدة أشهر خلت) كان كارثياً تماماً. في طريقنا نحو المحطة، مررنا بسبستيان وبيلوف يدفعان عربة ترزح تحت ثقل رهيب، فوق ثلج قد داسته الأقدام بما يكفي ليصير زلقاً. يبرز هذا المشهد أمام عيني الآن، ساكناً بلا حركة (كنت صبياً في الثالثة عشرة من عمره، يملأه الخيال) كلوحة قد سُحرت، وحُكم عليها بالشلل، وإلى الأبد. بدأت أمي بالمشي جيئة وذهاباً (تغطي الأكمام كفيها، مع خصلة شيباء قد انبثقت من تحت وشاحها الصوفي) أمام النافذة التي جلس خلفها الدليل، محاولة في كل مرة التقاط نظرة منه. التاسعة إلا ربعاً، التاسعة إلا عشر دقائق... كان القطار قد تأخر في الانطلاق، ولكنه في النهاية، أطلق صافرته، واندفع الدخان الأبيض الدافئ، مسابقاً ظله عبر الثلج البني فوق رصيف المحطة، وفي اللحظة ذاتها، ظهر سبستيان راكضاً، مع أذني قبعته الفرائية، تصفقان في الريح. هرعنا بالقفز إلى القطار المتحرك. مر بعض الوقت قبل أن يتمكن من إخبارنا أن الكابتن بيلوف قد ألقي عليه القبض في الشارع، بينما كانا يمر بالمنزل الذي سكنه سابقاً، كما أخبرنا أنه، أي سبستيان، بعد أن ترك الأمتعة لمصيرها وسط الشارع، ركض مندفعاً، يائساً، نحو المحطة. بعد بضعة أشهر، علمنا أن صديقنا المسكين قد مات رمياً بالرصاص، مع مجموعة أشخاص من الدفعة ذاتها، جنباً إلى جنب مع بالشين، الذي مات شجاعاً، كما بيلوف.

في آخر كتاب قد نُشر له، «البروق(*) المريب» (١٩٣٦)، يصور سبستيان شخصية عرضية، قد هربت لتوها من أهوال وبؤس بلد مجهول. «ماذا يمكنني أن أخبركم عن ماضيَّ أيها السادة؟ [يقول]،

(*) البروق: أو البَرْوَاق، نبات. (مترجم)

لقد وُلدت في بلد، حيث فكرة الحرية، مفهوم الحق، وطباع الخير البشرية، كانت أمور محتقَرة ببرود ومحظورة بوحشية. على مرّ التاريخ، كانت حكومة منافقة، بين الحين والآخر، ترسم فوق جدران سجن الأمة ظلالاً صفراء جميلة، وتعلن بصوت عالٍ عن منح الحقوق المعروفة لأبنائها الأسعد في العالم؛ ولكن لم يتمتع بتلك الحقوق إلا السجانون، أو أولئك الذين يمارسون الفساد سراً، ليصبحوا أكثر شناعة من مراسيم فرانك تيراني... في تلك البلاد، يمكنك أن تكون إما عبداً، أو طاغية؛ بما أن الروح وكل ما يتعلق بها، كان محرماً على الإنسان هناك، فإن إلحاق الألم الجسدي كان يعتبر كافياً للهيمنة على الطبيعة البشرية وتوجيهها... كان يشتعل بين الحين والآخر ما يُسمى بالثورة، تحوّل العبد إلى طاغية والعكس صحيح... إنه أيها السادة بلد مظلم، بقعة من السعير، وإن كان هنالك في الحياة ما أنا واثق منه، فهو أنني لن أستبدل يوماً حرية منفاي بالزيف والخساسة التي وصل إليها وطني...»

وبسبب أن في خطاب تلك الشخصية يوجد ما يشير إلى «الغابة العظيمة والسهول المغطاة بالثلوج»، فإن السيد غودمان قد افترض على الفور أنه يتوافق مع موقف سبستيان نايت نفسه من روسيا. هذا تفسير كاذب وغريب؛ وجب أن يكون واضحاً تماماً لأي قارئ غير متحيّز أن الكلمات المقتبسة تشير إلى فكرة الاستبداد والجور، بطريقة متخيلة، وليس إلى دولة محددة أو واقع تاريخي. وإن كنت قد اقتبست الخطاب في سياق سردي لقصة فرار سبستيان من الثورة الروسية، فذلك لأنني أردت إتباعها مباشرة ببعض الاقتباسات من أكثر أعماله التي تعتبر سيرة ذاتية: «إنني أفكر دائماً»، كتب (ملكية ضائعة)، «أن أحد أنقى المشاعر الإنسانية هو حنين المنفي إلى وطنه الأم. وودت لو أُظهر له، بينما كان يدفع ذاكرته بأقصى طاقتها،

وبجهد لا منقطع، للحفاظ على مشاهد ماضيه حية ومشرقة: التلال الزرقاء التي لا تُنسى، الطرقات السريعة والسعيدة، سياج الورود العشوائية وأرانب الحقل، البرج البعيد والجريس(*) القريب... ولكن بما أن هذه المواضيع قد كتب عنها من هم أفضل مني، ولأنني أرتاب غريزياً مما أشعر بقدرتي على التعبير عنه بسهولة، لذا لن أسمح لأي هائم عاطفي بالهبوط فوق صخرة نثري غير المرحبة.»

أياً كان الاستنتاج الاستثنائي لهذا المقطع، فإنه من الواضح أن وحده من يعرف معنى أن ترحل عن بلدك العزيز يوماً، تغريه صورة الحنين هذه. يستحيل أن أصدق أن سبستيان، بغض النظر عن البشاعة التي كانت روسيا غارقة فيها في زمن هروبنا، لم يستشعر الوجع الذي اختبرناه جميعنا. كل ما ذُكر، لم يكن إلا موطنه، والناس الطيبون، اللطفاء والكرماء، الذين اقتيدوا إلى الموت عقاباً على جريمة وجودهم، ما كانوا إلا القوم الذي ينتمي إليه أيضاً. أن متأكد من أن تأملاته الشبابية الغامضة، وشغفه الشاعري (واسمحوا لي هنا بإضافة بلاغة مصطنعة) الذي حمله لموطن والدته، لم تستطع إلغاء عاطفته الحقيقة للبلاد التي وُلد وترعرع فيها.

بعد أن هبطنا، صامتين، في فنلندا، عشنا لفترة في هلسنكي. ثم تفرقت بنا السبل. اصطحبتني أمي إلى باريس بناءً على نصيحة صديق قديم، وهناك تابعت تعليمي. أما سبستيان فقد ذهب إلى لندن وكامبريدج. كانت والدته قد تركت له مبلغاً مريحاً، وأياً كانت المخاوف التي أقلقت حياته لاحقاً، فإنها لم تكن مالية أبداً. قبل مغادرته بلحظات، جلسنا ثلاثتنا لدقيقة صمت، وفقاً لتقليد روسي. أتذكر الطريقة التي جلست بها أمي، مع يديها في حجرها، تدير

(*) جُريس: نبات. (مترجم)

خاتم الزواج خاصة والدي (كما تفعل عادة عندما تكون ساكنة) الذي كانت تضعه في خنصرها ذاته، ولأنه كان واسعاً جداً، فقد لفته بخيط أسود ليضيق. أتذكر وضعية سبستيان أيضاً؛ كان يرتدي بدلة زرقاء داكنة، وكان قد جلس متصالب الساقين، مؤرجحاً العليا بلطف. وقفت أنا أولاً، ثم أمي. حلَّفنا أن لا نرافقه حتى السفينة، وهكذا، كان هناك، في تلك الغرفة المطلية بالكلس الأبيض، أن قلنا وداعاً. قامت أمي بإشارة سريعة للصليب فوق وجهه المنحني، ثم رأيناه بعد لحظة من وراء النافذة، يندفع داخل سيارة الأجرة مع حقائبه، محدباً ظهره، تلك الحدبة التي نعود لرؤيتها كلما رحل أحدهم.

لم نسمع عنه كثيراً، كما لم تكن رسائله طويلة جداً. خلال السنوات الثلاث التي قضاها في كامبريدج، زارنا مرتين فقط، أو بالأحرى مرة واحدة، لأنه في المرة الثانية جاء لحضور جنازة أمي. كنا، أنا وهي، كثيراً ما نتحدث عنه، وخاصة خلال سنوات حياتها الأخيرة، حين كانت على أتم الدراية بدنو أجلها. كانت هي من أخبرتني بمغامرة سبستيان الغريبة عام ١٩١٧، التي كنت أجهل أمرها تماماً، إذ كنت أقضي عطلتي أثناءها في شبه جزيرة القرم. كان سبستيان قد طوّر علاقة مع آليكسيس بان، الشاعر المستقبلي، ومع زوجته لاريسا، وكانا زوجين غريبي الأطوار، قد استأجرا كوخاً قريباً من أرض ملكيتنا، القريبة من لوغا. كان رجلاً صغير البنية، صاخباً ونشيطاً، مع شرارة موهبة حقيقية مدفونة في غموض قصائده الفوضوي. ولكن لأنه بذل قصارى جهده لإدهاش الناس بالتراكم الهائل من كلمات فائضة وعقيمة (كان هو من اخترع «نخير من تحت الذقن»، كما أسماه)، فإن معظم نتاجه يبدو الآن تافهاً عديم القيمة، شديد الزيف، وقديم الطراز (للأشياء فائقة الحداثة مقدرة خاصة وغريبة على ملاءمة الاحتياجات، أكثر بكثير مما لغيرها)، لدرجة أنه

لن يعود إلى تذكر قيمته الحقيقية إلا قلة من المثقفين المعجبين بترجماته للقصائد الإنكليزية، التي قام بها في بداية مسيرته الأدبية - واحدة منها على الأقل كونها معجزة في النقل اللفظي: النسخة الروسية من قصيدة كيتس(*)، «السيدة الجميلة سان ميرسي»(**).

هكذا، وفي أحد أصباح أوائل الصيف، اختفى سبستيان ذو السبعة عشر ربيعاً، تاركاً لأمي ملاحظة صغيرة يخبر فيها أنه قد رافق آليكسيس بان وزوجته في رحلة إلى الشرق. بداية، أخذتها على محمل المزاح (كان سبستيان، على الرغم من مزاجيته، يبتدع أحياناً بعض الدعابات المرحة، كما فعل مرة أثناء ركوبه في عربة ترام مزدحمة، حين سلّم رسالة إلى جامع التذاكر لينقلها إلى فتاة في زاوية قصية، وكان قد كتب فيها: أنا مجرد جامع تذاكر فقير، ولكني أحبك)؛ ومع ذلك، عندما حاولت أمي الاتصال بآل بان، اكتشفت أنهما قد رحلا حقاً. تبيَّن لاحقاً، بطريقة ما، أن تلك الرحلة الماركوبولية كانت فكرة بان، وكان مخططها قائماً على الاتجاه شرقاً بهدوء، من قرية صغيرة إلى أخرى، بعد أن نظم في كل منها «مفاجأة شعرية»، وهي استئجار قاعة (أو سقيفة في حال لم تتوفر قاعة) حيث يستعرض فيها أداءً شعرياً، يفترض به تأمين بعض الأرباح التي ستوفر كلفة رحلته التالية، مع سبستيان وزوجته، إلى القرية التالية. لم يكن واضحاً ما هو دور سبستيان بالضبط، أو ما إذا كان ملزماً ببعض المساعدة وتنفيذ بعض المهمات، أو ما إذا كان مطلوباً منه فقط أن يرفرف فقط حول الزوجين، لجلب ما يحتاجان إليه عند الضرورة، وليكون لطيفاً مع لاريسا، التي كانت سريعة

(*) جون كيتس: (١٧٩٥- ١٨٢١) شاعر إنكليزي. (مترجم)

(**) سان ميرسي: Sans Merci، وتعني بالفرنسية «لا داعي للشكر». (مترجم)

العصبية ولا تهدأ بسهولة. كان آليكسيس بان يعتلي المسرح مرتدياً سترة طويلة الذيل، بتطريز لزهور لوتس هائلة فوقها. كانت كوكبة (الكلب الأكبر) مرسومة فوق جبهته الصلعاء. كان بصوته الجهوري الذي يلقي به قصائده، المنبثق من رجل بصغر حجمه، يدفع المرء لتخيل منظر فأرة تلد جبلاً. كانت لاريسا تجلس إلى جانبه فوق المنصة، امرأة كالفرس، بثوب بنفسجي، تخيط بعض الأزرار، أو ترقّع بنطالاً قديماً، وكل الأمور التي لم تكن لتفعلها لزوجها في أيامهما العادية. بين الحين والآخر، وكفاصل بين قصيدتيْن، كان بان ينفذ رقصة بطيئة - خليط بين حركات الرقص باليدين كما في جاوة(*)، وبين إيقاعات قد اخترعها بنفسه. بعد كل أمسية، كان مجده المحقق يأخذه نحو الثَّمَل - وهنا بدأ فشله. انتهت الرحلة إلى الشرق في أوليانوفسك(**)، في نزل وضيع، مع آليكيس في حالة دائمة من السكر القاتل والإفلاس، بينما لاريسا مسجونة مع نوبات غضبها التي لا تنتهي في محطة شرطة، بعد أن صفعت وجه موظف مزعج قد أدان عبقرية زوجها الصاخبة. عاد سبستيان إلى المنزل كما غادره، بغير ما اكتراث. «أي صبي غيرك»، أضافت والدتي، «كان ليبدو خجولاً شاعراً بالعار بعد الحماقة التي ارتكبها»، ولكن سبستيان تحدث عن رحلته كحادثة غريبة كان نزيهاً في مراقبتها. لمَ شارك في ذلك العرض التهريجي، وما الذي دفعه حقيقة للتقرب من ذلك الثنائي الغريب؟ هذا ما بقي لغزاً كبيراً (ظنت أمي أنه كان متورطاً في علاقة مع لاريسا ولكن المرأة كانت قبيحة جداً، متقدمة في السن، وعنيفة في الحب مع زوجها المسخ). خرجا من حياة

(*) جاوة: جزيرة في إندونيسيا. (مترجم)

(**) أوليانوفسك: مدينة روسية. (مترجم)

سبستيان بعد فترة قصيرة. بعد سنتين أو ثلاث، شارك بان في الموضة الوجيزة الزائفة التي راجت في الأوساط البلشفية، والتي تعود، حسبما أعتقد، إلى الفكرة المغرضة القائلة (المعتمدة بشكل أساسي على التشويش) بأن هنالك ارتباطاً طبيعياً بين السياسات المتطرفة والفن المتطرف. ثم بعد ذلك انتحر آليكسيس بان، عام ١٩٢٢ أو ربما ١٩٢٣، شانقاً نفسه بمساعدة حمالات بنطاله.

«لطالما شعرت»، قالت أمي، «بأني لم أكن أعرف سبستيان حق المعرفة، أعرف أنه حصل على علامات جيدة في المدرسة، وقرأ عدداً مذهلاً من الكتب، وكان نظيفاً في عاداته، ويثابر على أخذ حمام بارد عند كل صباح على الرغم من أن رئتيه لم تكونا قويتين بما يكفي - عرفت كل ذلك وأكثر، ولكن لم أعرفه هو. والآن، بعد أن صار يعيش في بلد غريب، ويراسلنا بالإنكليزية، لا يسعني إلا أن أظن أنه سيبقى لغزاً للأبد - وحده اللّه يعلم كم سعيت لأكون لطيفة مع هذا الصبي.»

عندما زارنا سبستيان في باريس مع نهاية سنته الجامعية الأولى، صُدمت بمظهره الخارجي. كان يرتدي سترة صفراء وكأنه كناري، تحت معطف تويد(*). كان بنطاله القطني فضفاضاً، لا حمالات تشدّه، وجواربه مرخية. كانت خطوط ربطة عنقه واضحة جداً، ولسبب ما، كان يحمل منديلاً في كمّه. دخن غليونه في الشارع، وكان كلما أراد إفراغه، يطرقه بكعب حذائه. كان قد طوّر طريقة جديدة للوقوف مع ظهره إلى الموقد، ومع يديه محشورتين في جيبي بنطاله. تحدّث الروسية بحذر شديد، متحولاً إلى الإنكليزية كلما تطلّب الحوار الإدلاء بأكثر من جملتين. مكث أسبوعاً واحداً بالضبط.

(*) تويد: نسيج صوفي خشن. (مترجم)

عندما جاء في المرة التالية، كانت أمي قد رحلت. جلسنا معاً لفترة طويلة بعد الجنازة. ربّت فوق كتفي بخشونة، عندما انفجرت ببكاء كنت أحبسه، حتى وقعت عيناي على نظارتها وقد باتت وحيدة، ملقية فوق رف. لقد كان لطيفاً جداً ومعيناً جداً، بطريقته الخاصة، البعيدة والغامضة، كما لو كان طوال الوقت يفكر في أمر آخر. ناقشنا بعض الأمور واقترح عليَّ الذهاب معه إلى الريفييرا ثم إلى إنكلترا؛ كنت قد أنهيت لتوّي تعليمي الثانوي. قلت إنني أفضّل التسكع في باريس، مع بعض أصدقاء لي فيها. لم يصر عليَّ. تطرقنا أيضاً إلى الأمور المالية وأخبرني، بطريقته الفظة الغريبة، أن بإمكانه إمدادي دائماً بأي مبلغ أحتاج إليه؛ أعتقد أنه استخدم كلمة «قصدير»، ولكني لست متأكداً من ذلك. غادر في اليوم التالي إلى جنوب فرنسا. في صباح ذلك اليوم ذهبنا في نزهة قصيرة، وكما يحصل دائماً عندما نكون وحدنا، شعرت بحرج فظيع، محاولاً بين الحين والآخر، التنقيب عن موضوع أفتح به حديثاً. كان صامتاً بدوره. قال لي قبل أن نفترق: «حسناً. هذا كل شيء. إن احتجت إلى أي شيء راسلني إلى عنواني في لندن. آمل أن تجري الأمور معك في السوربون على نحو جيد، كما هي معي في كامبريدج. بالمناسبة، حاول أن تختار دراسة تعجبك، والتزم بها... إلى أن تسئمك.» كان هنالك وميض طفيف في عينيه القاتمتين. «حظاً موفقاً»، قال، «إلى اللقاء»، ثم صافحني بقبضة باردة وضعيفة، العادة التي اكتسبها في إنكلترا. فجأة، ومن دون أدنى سبب، أسفت لأجله بشدة، وشعرت برغبة عارمة لقول شيء ما، شيء حقيقي، له أجنحة وقلب، ولكن العصافير التي انتظرتها لم تهبط فوق كتفي ورأسي إلا لاحقاً، بعد أن أصبحت وحدي، ولا حاجة لي بالكلمات.

الفصل الرابع

بعد مرور شهرين على وفاة سبستيان، بدأتُ بكتاب عن حياته. رغم معرفتي الجيدة بمدى استيائه من عاطفتي المتنامية، لا يسعني إلا القول إن عاطفتي التي حملتها له طوال حياتي، والتي كانت بطريقة أو بأخرى منبوذة ومعذِّبة، قد تحولت الآن لتصير قوة عاطفية مشتعلة؛ وقد تحولت معها كل انشغالاتي الأخرى إلى خيالات ضعيفة تومض من بعيد. خلال لقاءاتنا النادرة لم نناقش الأدب أبداً، والآن، بعد أن وقفتْ عادة الموت البشري الغريبة حائلاً أمام أي إمكانية للتواصل فيما بيننا، أشعر ببالغ الندم لعدم إخباري سبستيان أبداً كم كنت أستمتع بقراءة كتبه، حتى أنني أتساءل يائساً ما إذا كان قد اشتبه مرة بقراءتي لها.

ولكن ما الذي عرفته فعلياً عن سبستيان؟ قد أكرس فصلين أو أكثر لإفراغ ما أحمله من ذكريات طفولته وشبابه - ولكن ماذا بعد؟ أثناء إعدادي للكتاب، توضّح لي الكم الهائل من البحث الذي يتوجب الشروع به، لجمع أجزاء حياته قطعة قطعة، من هنا وهناك، ثم لحمها بواسطة معرفتي الداخلية بشخصيته. معرفة داخلية؟ أجل، كانت هذه شيئاً قد امتلكته، وأحسسته في كل عرق من جسدي. كلما فكرت في الأمر، أدركت أني ما زلت أملك أداة أخرى تحت تصرفي: عندما تخيلت تصرفاته التي سمعت عنها بعد وفاته، أيقنت

كلياً أنني كنت، في حالات كتلك التي مر بها، لأتصرف كما فعل هو تماماً. رأيت مرة صدفة شقيقين، بطلَين في كرة المضرب، وكان أحدهما يلعب مقابل الآخر في إحدى المباريات؛ كانت ضربات كل منهما مختلفة كلياً، وكان أحدهما أفضل بكثير من الآخر، ولكن الإيقاع العام لحركاتهما كان متماثلاً تماماً، بحيث كان من الممكن رسم نمطين متطابقين لحركة كل منهما راكضاً، أو قافزاً في الهواء.

أجرؤ على القول إني وسبستيان كان لنا إيقاع مشترك؛ وهذا ما يفسر «الرؤية المسبقة»، الشعور الغريب الذي يتربص بي عند كل منعطفات حياته. وإن كانت الـ"Y" في تصرفاته، كما في غالب حالاتها، تقابلها الـ"X" في تصرفاتي، فإني لم أصل إلى فهم تلك المعادلة إلا الآن، كلما عادت إلى ذاكرتي، لاشعورياً، عبارة من هنا وأخرى من هناك، وقد منحت لي الإذن بفهمها والإفادة منها. أنا لا ألمّح بكلامي هذا إلى أنني قد وُهبت مثله أي غنىً فكري، أو أي جانب من جوانب الموهبة، الموهبة البعيدة عني أيما بعد، إذ إنني لطالما رأيت في عبقريته المطلقة الاستقلاليةَ عن أي من الانطباعات المحددة التي قد يكون كلانا قد خبرها في خلفية طفولتنا المتشابهة. ربما أكون قد شاهدت وتذكرت الشيء ذاته الذي شاهده وتذكّره، ولكن الفرق بين قوة تعبيره ولغتي، كالفرق بين بيانو بشتاين(*) وخشخيشة طفل. لم أكن لأسمح له أن يقع على جملة واحدة من هذا الكتاب، لئلا أجفله بالطريقة التي أصوغ بها إنكليزيتي الركيكة. لا شك أنها كانت لتصدمه. حتى أنني لا أتجرأ على تخيل ردود أفعاله، عندما يعرف أن أخاه غير الشقيق (الذي لم تكن خبرته الأدبية حتى

(*) فريدريك كارل بشتاين: (١٨٢٦-١٩٠٠) مؤسس مصنع بيانوهات بشتاين، الألماني الشهير. (مترجم)

ذلك الحين، قد تعدت ترجمة أو اثنتين إلى الإنكليزية، لمصلحة شركة محركات) وقبل البدء بسيرة حياته، كان قد قرر الانضمام إلى دورة «كن كاتباً!»، بعد أن رأى إعلانها الواعد في إحدى المجلات. نعم! أعترف بذلك؛ ولكن ذلك لا يعني أنني نادم. الرجل النبيل الذي كان يُفترض به، مقابل أجر معقول، أن يصنع من شخصي كاتباً ناجحاً، قد بذل قصارى جهده ليعلّمني كيف أكون محتشماً ورشيقاً في لغتي، قوياً وحيوياً، وعندما كنت أثبت أني تلميذ ميؤوس منه - رغم أن تهذيبه العالي كان يمنعه من الاعتراف بذلك - فذلك لأنني، ومنذ بداية الدورة، كنت مأخوذاً حد الانبهار، بالروعة المثالية للقصة القصيرة التي أرسلها لي كنموذج لما كان طلابه قادرين على كتابته وبيعه. من جملة ما ورد فيها، وصف لرجل صيني شرير متوحش، فتاة شجاعة بعينين بنيتين، ورجل ضخم هادئ، تبْيضّ مفاصل يديه إذا ما أزعجه أحد ما. يكفي ما ذكرته عن ذلك المشروع الغريب للكشف عن مدى سوء استعدادي لتلك المهمة، وعن الأخطاء الفادحة التي أوصلني إليها عدمُ ثقتي بنفسي. عندما أمسكت أخيراً القلم بيدي، كنت قد هيأت نفسي لمواجهة ما لا مفر منه، والذي لم يكن إلا طريقة أخرى لأقول إنني بت جاهزاً لمحاولة تقديم أفضل ما يمكنني.

لا يزال بالإمكان استكشاف عبرة صغيرة كامنة وراء تلك القضية. لو كان سبستيان قد انضم إلى دورة المراسلات ذاتها فقط بهدف حصد المتعة، فقط من أجل أن يرقب ما يمكن أن يحدث (كان ليثمن تسلية كتلك)، فإنه كان ليكشف عن طالب أفشل مني بكثير. لو طلب إليه أن يكتب مثل السيد «كل إنسان»(*)، لكتب مثل

(*) كل إنسان : أو everyman، مسرحية إنكليزية أخلاقية كُتبت في القرن الخامس عشر، كاتبها مجهول الهوية. (مترجم)

«لا أحد». لا أستطيع تقليد أسلوبه، إذ إن كتابته كانت مرآة لأفكاره: تعاقب مذهل من الفجوات؛ ولا يمكنك تقليد فجوة، لأنك، بطريقة أو بأخرى، تجد نفسك ملزماً بسدها - وبالتالي محوها. ولكني عندما أجد في كتب سبستيان تفصيلاً ما، مزاجاً ما، أو انطباعاً ما (يدفعني فوراً إلى تذكر، على سبيل المثال، تأثير معين لإضاءة في مكان محدد، كنا قد لاحظناه على حد سواء دون أن يُحِط أحدُنا الآخرَ بذلك علماً) أشعر أنني ورغم المسافة الشاسعة التي تبعدني عن موهبة سبستيان، أشاركه بامتلاك بعض أوجه الشبه النفسية، التي ستساعدني في كتابي هذا.

الأداة موجودة إذاً؛ كل ما عليّ فعله هو استخدامها. أول ما توجب عليّ فعله بعد وفاة سبستيان، معاينة ممتلكاته. كان قد ترك لي كل شيء، إضافة إلى رسالة يطلب فيها مني إحراق بعض أوراقه. كانت الرسالة مصوغة بكلمات غامضة، حتى أنني اعتقدت بداية أنها تشير إلى بعض المسودات والمخطوطات المهملة، ولكني سرعان ما اكتشفت أن سبستيان قد قام نفسه بإتلافها، ومنذ زمن بعيد، باستثناء بعض الصفحات الغريبة المبعثرة هنا وهناك فوق أوراقه، إذ إنه كان ينتمي لذلك النوع من الكتّاب الذين يعرفون أنه لا يجب الإبقاء على شيء ما لم يكن منجزاً على نحو مثالي: الكتاب المطبوع؛ اكتشفت أن وجوده الفعلي لا يتوافق مع وجود شبحه، الروح التي خرجت من مخطوطته الخام المتباهية بعيوبها، كشبح منتقم خرج من بين أوراقها يحمل رأسه تحت ذراعه؛ وأنه، ولكل ما سبق، لا يجب الحفاظ على فوضى ورشة عمله هذه، مهما بلغت قيمتها العاطفية أو التجارية.

عندما زرت لأول مرة في حياتي شقة سبستيان الصغيرة القائمة في لندن، ٣٦ «أوك بارك غاردنز» (حدائق متنزه السنديان)، كنت

منزعجاً جداً من تأجيل موعدي حتى وقت متأخر. غرف ثلاث، موقد بارد، صمت. لم يعش في الشقة كثيراً خلال سنواته الأخيرة، كما لم يمت فيها أيضاً. كان هنالك نصف دزينة من البدلات، معظمها قديمة، معلقة في خزانة الملابس، وقد راودني للحظة انطباع غريب عن جسم سبستيان وقد تضاعف في تلك الأشكال من الأكتاف المربعة. كنت قد رأيته مرة في ذلك المعطف البني؛ لمست أكمامه، ولكنها بقيت مترهلة وغير مستجيبة لنداء الذاكرة الخافت ذاك. كانت هنالك أحذية، أيضاً، قد قطعَت الكثير من الأميال وها هي اليوم قد وصلت إلى نهاية رحلتها. قمصان مطوية ملقية على ظهورها. ما الذي يمكن لكل تلك الأشياء الساكنة أن تخبرني به عن سبستيان؟ سريره. لوحة زيتية صغيرة وقديمة، متشققة قليلاً (طريق موحل، قوس قزح، برك جميلة) معلقة على الجدار الأبيض الكامد فوق السرير. أول ما يقع عليه نظره عندما يصحو.

عندما نظرت حولي، بدت كل الأشياء في غرفة النوم تلك وكأنها قد قفزت في الوقت المناسب بعد أن قُبض عليها متلبسة عند دخولي المفاجئ، لتعود تدريجياً إلى مواضعها الأصلية، محاولةً التحديق في وجهي لترى ما إذا كنت قد لاحظت حركتها المذنبة. أكثر ما كان ذلك واضحاً على المقعد المنخفض قرب السرير، ذي الغطاء الأبيض؛ أيكون قد سرق شيئاً؟ أتساءل. ثم وبعد أن تلمست تجاويف طياته غير المتعاونة، وجدت شيئاً صلباً: تبين أنها حبة جوز برازيلي، ثم قام المقعد، بعد أن طوى ذراعيه، باستئناف تعبيره الغامض الممانع (أيكون ازدراءً لمنتهك كرامته؟).

الحمام. الرف الزجاجي، لا يحمل غير علبة مسحوق تالك فارغة بزهور بنفسج مرسومة فوقها. وقفتْ هناك وحيدة، وقد تركت انعكاسها فوق المرآة كإعلان ملون.

ثم عاينت الغرفتين الرئيسيتين. لم تكن غرفة الطعام تحمل أي سمة شخصية، ككل الأماكن التي يأكل فيها الناس - ربما لأن الطعام هو رابطنا الأساسي مع الفوضى التي نتشاركها مع المادة المحيطة بنا من كل الجهات. ثم رأيت هناك، وهذه حقيقة، عقب سيجارة في منفضة زجاجية، ولكنه السيد ماكبث، وكيل المنزل، هو من تركه هناك.

غرفة المكتب. تطل على خلفية حديقة أو متنزه، سماء شاحبة، شجرتي دردار، وليس سنديان، رغم ما يعد به اسم الشارع. امتدت أريكة جلدية في إحدى زوايا الغرفة. رفوف مكتظة بالكتب. طاولة الكتابة. لم يكن فوقها شيء تقريباً: قلم أحمر، علبة مشابك ورقية؛ بدت كئيبة وبعيدة، ولكن المصباح فوق زاويتها الغربية كان رائعاً. وجدت نابضه، أشعلته، فغرق قسمه العلوي البيضاوي في النور: ذلك القمر السحري قد رأى يد سبستيان البيضاء منهمكة في الكتابة. وصلت الآن إلى العمل الحقيقي. أخذت المفتاح الذي ورثته وفتحت به الأدراج المقفلة. قبل كل شيء، تخلصت من حزمتين من الرسائل كان سبستيان قد كتب فوقها: للإتلاف. كانت إحدى الحزمتين مطوية بطريقة لم تسمح لي بلمح أي كتابة: كانت الورقة بزرقة قشرة البيض، أما حافتها فزرقاء قاتمة. حوت الحزمة الثانية خليطاً من أوراق تحمل خربشات واضح أن يد أنثى قد خطّتها. لقد حزرت من تكون. للحظة طاغية، راودتني نفسي لتفحّص الحزمتين عن كثب. يؤسفني القول إن الرجل الصالح داخلي قد غلبني. ولكني عندما كنت أطعمها للموقد، أفلتت ورقة زرقاء، ثم تقوست تحت شعلة التعذيب، وقبل أن يجتاحها السواد من كل أطرافها، ظهرت بعض الكلمات شديدة الوضوح، ثم تلاشت تدريجياً، لتصير رماداً.

سقطتُ فوق مقعد الذراعين، وغرقت فيه للحظات تأمل.

الكلمات التي رأيتها كانت روسية، جزءاً من عبارة بالروسية - كلمات غير مهمة بحد ذاتها، حقاً (ليس باللغز الماكر في مؤامرة كاتب، الذي توقعت من شعلة الصدفة أن تكشفه). الترجمة الإنكليزية الحرفية لتلك الكلمات: «إن تصرفاتك هي دائماً...»؛ لم يكن المعنى هو ما أذهلني، بل مجرد حقيقة أنها كانت مكتوبة بلغتي. من تكون تلك المرأة الروسية التي يحتفظ سبستيان برسائلها بالقرب من تلك الخاصة بكلير بيشوب؟ لم أمتلك أدنى فكرة، كما لم أدرِ لماذا حيرني الأمر وأزعجني إلى تلك الدرجة. من مقعدي بقرب الموقد، الذي عاد ليصير مجدداً بارداً وأسود، تمكنت من رؤية الضوء القادم من مصباح طاولة المكتب، رأيت البياض الزاهي للأوراق التي يفيض بها الدرج المفتوح، وورقة فولسكاب(*) ملقية وحدها فوق السجادة الزرقاء، نصفها في الظل، بعد أن قطعها حدّ الضوء من قطرها. بدا لي سبستيان للحظة، بهيئة شفافة، جالساً إلى مكتبه؛ أو بالأحرى كنت أفكر فيما كتبه عن روكيوبرون المزيفة: أتراه كان يفضل الكتابة في السرير؟ بعد قليل، واصلت عملي بالفحص والتصنيف التقريبي لمحتويات الأدراج. كان هنالك العديد من الرسائل. وضعتها جانباً لأنظر في أمرها لاحقاً. قصاصات صحف في ألبوم مبهرج على نحو بشع، مع فراشة أبشع فوق غلافه. لم أجد في أي قصاصة مقالاً نقدياً يتناول أحد كتبه: كان سبستيان أكثر غروراً من أن يجمعها؛ كما لم تكن روح الدعابة لديه لتسمح له أن يلصقها بكل هذا التأني، إن صدف وقرأها. ومع ذلك، كان هنالك، كما قلت، ألبوم قصاصات صحافية، تشير كلها (كما اكتشفت لاحقاً حين تصفّحتها في أوقات الفراغ) إلى حوادث غريبة

(*) ورقة فولسكاب: ورق كبير القطع يتراوح طوله بين ٣٣ و٤٠ سم. (مترجم)

وسخيفة قد وقعت في أكثر الأماكن والظروف وضاعة. كما وجدت فيها العديد من الاستعارات المتفاوتة، قد ترك تحتها خطاً، لأنه ربما كان يعتقدها تنتمي إلى ذات فئة الكوابيس الضعيفة. بين بعض الوثائق القانونية، وجدت ورقة محشورة بينها عن طريق الخطأ، وكان قد بدأ بكتابة قصة فوقها؛ كانت عبارة عن جملة واحدة، لم تكن بالطويلة، ولكنها أعطتني الفرصة للاطلاع على طريقة سبستيان الغريبة أثناء عملية الكتابة، فوجدت أنه لم يكن ليشطب الكلمات التي استبدلها بأخرى، كتلك العبارة، على سبيل المثال، التي وقعت عليها: «باعتبار أنه ثقيل النوم. ثقيل النوم روجر روجرسون، العجوز روجرسون اشترى العجوز روجرسون، خائفاً جداً من نومه الثقيل، كان العجوز روجر خائفاً جداً من أن يفوته موعد الغد. كان ثقيل النوم. كان مرعوباً من أن يفوته حدث الغد المجيد قطار الصباح فما كان منه إلا أن اشترى وجلب إلى المنزل اشترى ذلك المساء وجلب إلى المنزل ليس منبهاً واحداً فقط بل ثمانية بأحجام مختلفة قوية التكتكة تسعة ثمانية أحد عشر منبهاً بأحجام مختلفة التي وضعها التي بدت معها غرفته وكأنها»

كم أسفت لانقطاع الجملة هنا!

عملات أجنبية في صندوق شوكولا: فرنك، مارك، شيلينغ، كراون - مع صرافتها الصغيرة أيضاً. العديد من أقلام الحبر السائل. حجر جمشت شرقي، من دون تحويطة. شريط مطاطي. أنبوب زجاجي يحوي أقراصاً لوجع الرأس، الانهيار العصبي، الآلام العصبية، الأرق، الكوابيس، وجع الأسنان. بدت حبوب وجع الأسنان مريبة. دفتر ملاحظات قديم (١٩٢٦) مليء بأرقام هواتف لم تعد قيد الاستعمال. صور. اعتقدت أنها ستحوي كثيراً من صور الفتيات؛ أقصد، فتيات مبتسمات تحت الشمس، لقطات صيفية،

ألعاب الضوء والظلال، فتيات بابتسامات ناصعة واقفات فوق الأرصفة، مستلقيات فوق الرمل أو الثلج - لكني كنت مخطئاً. دزينة من الصور أو ربما أكثر، أخرجتها من مغلف كبير، قد كُتب فوقه بيد سبستيان، على نحو مقتضب، السيد هـ.، وقد أظهرت جمعيها ذات الشخص، وحده، في مراحل مختلفة من حياته: في البداية، ولد صغير في بدلة بحرية رخيصة، ثم فتىً قبيح يعتمر قبعة كريكيت، ثم شاب بأنف باك(*)، وهكذا حتى وصلت إلى سلسلة من صور السيد هـ. بالشعر الأبيض - رجل بغيض أشبه بكلب بولدوغ، يزيد سمنة في كل صورة، ملتقطة في عالم من الخلفيات الاصطناعية، والحدائق الحقيقية. عرفت من يُفترض به أن يكون عندما وقعت على قصاصة من جريدة كانت ملصقة بإحدى الصور: «مؤلف يكتب سيرة ذاتية وهمية يطلب صور رجل نبيل، واضحة بما يكفي، عادية، رصينة، لا يظهر فيها ثملاً، يفضل أن يكون عازباً. سندفع له مقابل صور طفولته، شبابه، كهولته، التي ستظهر في العمل المذكور.»

إنه الكتاب الذي لم يكتبه سبستيان، ولكنه ربما كان يعتزم تأليفه في آخر سنة في حياته، لأن صورة السيد هـ. التي يقف فيها سعيداً بالقرب من سيارة جديدة، قد حملت تاريخ «مارس ١٩٣٥» ، في حين توفي سبستيان بعد أقل من عام.

شعرت بنفسي فجأة متعباً وبائساً. كم تمنيت لو كانت هنالك صورة للسيدة الروسية التي كانت تراسله، صورة لسبستيان نفسه! تمنيت أشياء كثيرة... ثم، عندما تركت لعيني حرية التجوال في الغرفة، لمحت في الظلال المعتمة فوق رفوف الكتب، صورتين مؤطرتين.

(*) باك: فصيلة من الكلاب. (مترجم)

نهضت لأراهما عن كثب. كانت إحداهما لقطة مكبرة لرجل صيني عار حتى الخصر، بينما كان رأسه يُقطع بوحشية، والثانية صورة عديمة القيمة لطفل مجعد الشعر يلعب مع جرو. تجاورهما هذا قد أثار الريبة في نفسي، ولكن لا بد أن كانت لسبستيان أسبابه التي دفعته للاحتفاظ بهما على هذا الشكل.

ألقيت نظرة أيضاً على الكتب؛ كانت عديدة، متنوعة وغير مرتبة. ولكن كان هناك رف أكثر ترتيباً من الأخرى، وللحظة، بدا لي تسلسل العناوين فوقه يشكل جملة موسيقية غامضة، مألوفة على نحو غريب: هاملت، موت الملك آرثر(*)، جسر سان لويس راي(**)، الدكتور جيكل والسيد هايد، ريح الجنوب، السيدة والكلب، مدام بوفاري، الرجل غير المرئي، الزمن المفقود، قاموس إنكليزي-فارسي، كاتب تريكسي(***)، آليس في بلاد العجائب، عوليس، كيف تشتري حصاناً، الملك لير...

تنهد اللحم ثم خمد. عدت إلى طاولة المكتب وبدأت بفرز الرسائل التي كنت قد وضعتها جانباً. كانت في غالبيتها رسائل تجارية، وشعرت بأني منتدباً للاطلاع عليها. بعضها لا علاقة لها بمهنة سبستيان، بعكس بعضها الآخر. كانت الفوضى عارمة، وبعض التلميحات قد بقيت مبهمة بالنسبة لي. كان قد احتفظ، في بضع

(*) موت الملك آرثر: تجميع مختصر من الجمع العظيم للحكايات الآرثرية في شكلها الأخير، جمعها الكاتب الإنكليزي سير توماس مالوري (١٤١٥-١٤٧١؟).

(**) جسر سان لويس راي: رواية للكاتب الأمريكي (١٨٩٧-١٩٥٧) ثورنتون وايلدر. ترشح لنوبل الآداب تسع مرات دون أن ينالها. (مترجم)

(***) كاتب تريكسي: ورد في إحدى الدراسات أن المقصود بـ«كاتب تريكسي» هو شيرلوك هولمز. (مترجم)

حالات قليلة، بنسخ من رسائله الخاصة، التي أوصلتني، على سبيل المثال، إلى حوار طويل وممتع بينه وبين ناشره، فيما يخص أحد كتبه. كانت الروح الرومانية سريعة الاهتياج واضحة في الحوار، تطالب بخيار... علمت أيضاً بأمر بعض المبيعات في إنكلترا والدومينيون... لا شيء مبهر، ولكن في بعض الحالات، كانت رسائل باعثة على الرضى، على الأقل. بعض رسائل واردة من كتّاب أصدقاء. كاتب لطيف، مؤلف كتاب واحد شهير، قد وبّخ سبستيان (٤ أبريل، ١٩٢٨) على أسلوبه المتأثر بالأدب الروسي، مقترحاً عليه البدء بتطوير أسلوبه الخاص في كتبه القادمة - فكرة غاية بالسخف، على ما أعتقد.

أخيراً، في أسفل الحزمة، وصلت إلى رسائل أمي ورسائلي، إضافة إلى بعض زملائه غير الخريجين؛ وبينما كنت أقلب صفحات تلك الرسائل بصعوبة (تغضب الرسائل القديمة عند فضّها) أدركت فجأة أي أرض ستكون أرض صيدي القادمة.

الفصل الخامس

لم تكن سنوات دراسة سبستيان في الكلية استثنائية السعادة. من المؤكد أنه استمتع ببعض الأمور التي اكتشفها في كامبريدج - في الواقع، لقد عكر صفوه في البداية ذلك الحنين لرؤية وشمّ ولمس وطنه الذي كان مقهوراً لفراقه. حملته عربة أجرة يجرها حصانان (hansom) من المحطة إلى كلية ترينيتي: بدا أنها كانت تنتظره خصيصاً هناك، العربة التي كانت تقاوم زوالها حتى اللحظة، ثم ماتت بسرور، منضمة إلى ما انقرض من الحيوانات ومن فراشات large copper. طين الشوارع الذي كان يلمع رطباً في ضباب حالك، مع ما يعد به من ألحان عند مرور العجلات فوقه (كوب شاي دافئ بالقرب من مدفأة)، قد شكل نغماً لم يكن بالغريب عن قلبه. كانت دقات ساعات الأبراج في تلك اللحظة هابطة فوق المدينة، متداخلة فيما بينها، سامحة لصداها بالتردد بعيداً، وكانت بطريقة غريبة، ومألوفة إلى حد عميق، مختلطة مع صيحات بائعي الجرائد. وعند دخوله في كآبة جامعة غرايت كورت، مع خيالات ترتدي أثواباً تمر في الضباب، ومع قبعة البواب تنحني أمامه انحناءة خفيفة، شعر سبستيان، بطريقة أو بأخرى، أنه قد تعرف على كل إحساس: العفن الصحي للعشب الرطب، الرنين العتيق للبلاط الحجري تحت قدمَيه، وفوق رأسه، الخطوط الباهتة لجدران مظلمة - كل شيء. ذلك

الشعور الخاص بمجد ممتد منذ زمن بعيد على الأرجح، ولكن مع آخَرَ كان متقاطعاً معه، سيصبح فيما بعد وحده الشعور المسيطر. بحكم حيادي، أدرك سبستيان، وربما بذهول المغلوب على أمره (إذ إنه قد توقع من إنكلترا أن تقدم له أكثر مما فعلت)، أنه وبغض النظر عن مدى حلاوة وسحر بيئته الجديدة، التي لطالما داعبت أحلامه القديمة، فإنه، سبستيان نفسه، أو بالأحرى أثمن ما بقي منه، سيظل وحيداً دائماً كما كان أبداً. كانت العزلة هي المفتاح الأساسي لحياة سبستيان، وكلما حاول القدر اللطيف أن يزيد الألفة بينه وبين محيطه، مزيناً له الأشياء التي ظن أنه يريدها، أصبح أكثر وعياً لعدم قابليته على الاندماج في الصورة - أياً كان نوع الصورة. عندما توصل أخيراً إلى ذلك الفهم بشكل كامل، وبدأ بصقل وعيه الذاتي كما لو كان موهبة نادرة أو شغفاً، عندئذ فقط استمد سبستيان الرضا من غنى نفسه الداخلي، الآخذ بالتطور على نحو وحشي ومثمر، وعندئذ فقط، لم يعد إحساسه بوجود النشاز في عالمه الجديد ليعذبه - ولكن ذلك لم يحصل إلا بعد مرور وقت طويل. ظاهرياً، كان في البداية يموت رعباً من عدم فعل الشيء الصحيح، أو ما هو أسوأ، فعله من دون إتقان. قال له أحدهم إن الجزء الصلب من القلنسوة الأكاديمية يجب أن يُكسر، أو أن يُزال تماماً، ليبقى فقط الجزء القماشي الأسود الرخو. ما إن تبع النصيحة، حتى أدرك أنه قام بأسوأ ابتذال يمكن لطالب كلية أن يُقدم عليه، وأن ذلك الذوق المثالي يشير إلى تجاهل القلنسوة والرداء الجامعي، وبالتالي إضفاء عليهما مظهراً لا تشوبه شائبة من الازدراء اللازم للقيام بأمر كذاك. في حادثة أخرى، كانت القبعات والمظلات على زمنه تُعتبر تابو، مهما ساءت حالة الجو، وكان سبستيان قد أصيب بنزلة برد شديدة نتيجة تعرّضه للبلل، إلى أن جاء ذلك اليوم حين أتيحت له الفرصة

للتعرف على د. و. غورجيه، زميل ممتع، وقح، كسول، ليّن العريكة، مشهور بصخبه، بأناقته وذكائه؛ جاء غورجيه مرة يمشي، وبكل برود، معتمراً قبعة وحاملاً مظلة أيضاً. بعد خمسة عشر عاماً، عندما زرت كامبريدج، أخبرني أفضل زملاء سبستيان (اليوم أديب بارز) بكل تلك الأمور، لاحظت أن الجميع يحملون ــ

- «أجل»، قال، «لقد تكاثرت مظلة غورجيه.»

«ولكن أخبرني!» سألت، «ماذا عن الرياضة؟ هل كان لسبستيان فيها اهتماماً؟»

ابتسم مخبري.

«أخشى أنه»، أجاب، «باستثناء ممارسة معتدلة لكرة المضرب فوق ملعب عشبي رطب، مع بعض أزهار أقحوان هنا وهناك، لم نذهب لا أنا ولا هو إلى ما هو أبعد من ذلك. أذكر أن مضربه كان باهظ الثمن على نحو لافت، وكذلك قميص الفانيلا الذي كان يرتديه - بالمجمل، كان يبدو دائم الترتيب والأناقة وما إلى ذلك؛ ولكنه في تسديد الضربة الأولى، كان أنثوياً، ورغم كل ركضه واندفاعه، لم يستطع مرة ردّ طاباتي، إلا فيما ندر. لم أكن أفضل منه حالاً، وكان لعبنا قائماً في أساسه على التقاط الطابات الرطبة، أو رميها نحو لاعبين آخرين في ملاعب مجاورة، وكان كل ذلك يحدث تحت سماء مرذاذ. كان طبعاً مسكيناً في شؤون الرياضة.»

«وهل سبّب ذلك له استياءً؟»

«إلى حد ما. في الواقع، يمكنك أن تعتبر أن فترة فصله الدراسي الأول كانت مسمومة بفكرة دونيته في أمور كتلك. في مرته الأولى التي التقى خلالها بغورجيه - وكان ذلك في غرفتي - تحدّث سبستيان المسكين كثيراً عن كرة المضرب، لدرجة أن سأله غورجيه في النهاية ما إذا كانت تلك الرياضة تمارس بعصا، الأمر الذي هدأ

سبستيان، إذ افترض أن غورجيه، الذي أعجب بشخصيته منذ اللحظة الأولى، لم يكن أيضاً ذا مهارة رياضية.»

«وهل حقاً كان؟»

«حسناً، كان لاعب رغبي، ولكن ربما لم يكن شديد الاهتمام بملاعب كرة المضرب. بكل الأحوال، سريعاً ما تخطى سبستيان عقدة الرياضة. وبالعموم ــــ»

كنا جالسيْن في تلك الغرفة المعتمة، المكسوة بألواح السنديان، فوق مقاعد وطيئة جداً، تمكنا معها من الوصول بسهول إلى ضيافة الشاي التي كانت، بكل بساطة، موضوعة فوق السجادة، وأحسست أن روح سبستيان تطوف حولنا، مع وميض النار المنعكس فوق مقابض الموقد النحاسية. كان محدّثي يعرفه معرفة حميمة، لذلك استطعت تصديقه حين قال إن مصدر إحساس سبستيان بالدونية هو سعيه لأن يكون إنكليزياً أكثر من إنكليزي حقيقي، مخفقاً في كل مرة، ومع ذلك بقي يحاول إلى أن أدرك في نهاية المطاف أن من خانه ليس المظاهر، وليس سلوكيات اللهجات العامة، ولكن في الحقيقة المتمثلة في ذلك السعي الحثيث لتقليد الآخرين في تصرفاتهم، فيما كان محكوماً بمنفاه المبارك، بعزلته وانفراده.

لقد بذل أقصى ما يمكنه ليكون طالباً جامعياً نموذجياً. كان يرتدي ثوب حمام بنياً كلاسيكياً، ينتعل خفاً قديماً، يحمل صابونته في صندوق مع حقيبة لإسفنجاته، ثم يمشي في أصباح الشتاء نحو الحمامات القريبة. كان يتناول فطوره في القاعة، مع عصيدة رمادية باهتة كالسماء فوق غرايت كورت، إضافة إلى مربى البرتقال، بذات لون الحيوان الذي كان يزحف فوق جدرانها. كان يعتلي دراجته، كما أخبر صديقه، يرفع طرفي ثوبه الجامعي حد الكتفين، ثم ينطلق نحو هذه أو تلك المحاضرة. كان يتناول غداءه في «بيت Pitt» (الذي

كان، حسبما فهمت، نادياً يحوي صوراً لأحصنة فوق جدرانه، ونُدُل عجائز لا يزالون يسألون الزبائن عن حل أحجيتهم الأبدية: سميك وواضح؟). كان يلعب لعبة الخمسات (أياً كانت اللعبة) أو ربما غيرها، ثم يحتسي الشاي مع صديقين أو ربما ثلاثة؛ كانت أحاديثهم تعرج ما بين صحون التحلية، ومنافض الغليون، متجنبين بحذر ذكر أي شيء ما لم يكن نقلاً عن آخرين. قد تكون هنالك محاضرة أو اثنتان قبل العشاء، الذي يكون عادة في قاعة كبيرة وجميلة، مُنحتُ وقتاً كافياً لرؤيتها بكل تفاصيلها. كان يتم تكنيس أرضيتها في تلك اللحظة، وبدت ربلتا هنري الثامن، في اللوحة فوق الجدار، تهتزان كما لو أن أحداً قد داعبهما.

«وأين كان سبستيان يجلس؟»

«هناك، مقابل الحائط.»

«ولكن كيف يمكن الوصول إلى هناك؟ تبدو صفوف الطاولات طويلة جداً!»

«كان يقفز فوق المقاعد الطويلة الثابتة، ثم يعبر مشياً فوق الطاولات. بين الحين والآخر، كان يدوس فوق طبق ما، ولكن لم يكن أمامه طريقة أخرى.»

ثم بعد العشاء، كان يعود إلى شقته، أو ربما يشق طريقه مع رفيق صامت إلى دار سينما في ساحة السوق، حيث يُعرض أحد أفلام الغرب المتوحش(*)، أو فيلم لتشارلي شابلين، يشد في هرولته هرباً من الرجل الضخم الشرير، لينزلق مختفياً عند زاوية الشارع.

ثم، وبعد مرور ثلاثة أو أربعة فصول دراسية على هذا المنوال، طرأ على حياة سبستيان تغيير مثير للفضول. توقف عن الاستمتاع بما

(*) الغرب المتوحش: أفلام الغرب الأمريكي (Western). (مترجم)

اعتقد أنه كان ممتعاً، وتحوّل بهدوء إلى ما كان حقاً يعنيه. ظاهرياً، أدى هذا التحول إلى تغيير إيقاع حياته الجامعية. لم يعد يرى إلا محدثي، الذي ربما هو وحده من كان سبستيان قادراً على التواصل معه بكامل سجيته، صراحته وراحته؛ كانت صداقة جميلة، وأنا أستطيع أن أفهم تماماً أسبابها، إذ إن هذا الزميل قد استحوذ إعجابي من اللحظة الأولى، بامتلاكه لأرقى وألطف روح يمكن تخيلها. اهتم كلاهما بالأدب الإنكليزي، وكان قد سبق لصديق سبستيان البدء بإعداد كتابه الأول، «قوانين الخيال الأدبي»، الذي فاز بجائزة مونتغمري، بعد سنتين أو ربما ثلاث.

«عليّ أن أعترف»، قال بينما كان يداعب قطة بوبر أزرق ناعم وعينين خضراوين مائلتين إلى الرمادي، قد ظهرت من العدم لتتخذ لها مقعداً مريحاً في حضنه، «عليّ أن أعترف أن سبستيان قد آلمني في تلك الفترة الخاصة من صداقتنا. كنت حين أفتقده في قاعة المحاضرات، أذهب إلى غرفته لأجده في سريره، متقوقعاً على نفسه كطفل نائم، يدخن بكآبة، مع رماد السجائر فوق وسادته المجعدة، ومع بقع حبر فوق ملاءته المتدلية فوق الأرض. كان يكتفي بالرد على تحيتي المندفعة، دون أن يكلف نفسه عناء تغيير موضعه؛ كنت أحوم حوله مرة لأطمئن أنه ليس بمريض، ثم أتركه وأذهب لتناول الغداء، ثم أعود لزيارته مجدداً، لأكتشف أنه صار مستلقياً على جانبه الآخر، مستخدماً خفّه كمنفضة سجائر. كنت أقترح عليه تناول شيء ما، لأن خزانة طعامه كانت فارغة دائماً، وكنت حين أحضر له بعض الموز، فإنه يتناوله مبتهجاً كقرد، ويشرع مباشرة بإزعاجي بسلسلة من التصريحات غير الأخلاقية، وغير الواضحة، عن الحياة، الموت، أو الله، الأمر الذي كان يروق له لمجرد معرفته أنه يعكرني - على الرغم من أنني كنت متأكداً أنه لم يعنِ مرة ما كان يقول.

أخيراً، حوالي الثالثة أو الرابعة من بعد الظهر، كان يضع عليه ثوبه المنزلي (روب دي شامبر) ثم يدخل إلى غرفة الجلوس، حيث كنت، وباشمئزاز، أتركه متكوماً أمام المدفأة يحك رأسه. ثم، وفي اليوم التالي، وبينما أنا منشغل في أعمالي، أسمع فجأة وقع أقدام صاخباً فوق الدرجات المفضية إلى غرفتي، التي يظهر فيها سبستيان فجأة أيضاً، نظيفاً، نضراً، متحمساً للقصيدة التي يكون قد أنهى تأليفها لتوّه.»

أنا واثق من أن كل ما ذُكر يتوافق تماماً مع شخصية سبستيان، مع وجود تفصيل واحد صغير قد دفعني للإشفاق عليه بشكل خاص. يبدو أن سبستيان الإنكليزي، ورغم فصاحته ودرايته بالمصطلحات الإنكليزية، لم يكن إلا أجنبياً غريباً. وهذا ما كان يظهر عند نطقه بحرف "r" في بداية كلمة ما، بنبرة متلعثمة متدحرجة؛ وعند ارتكابه لأخطاء غريبة، قائلاً، على سبيل المثال، «لقد قبضت على نزلة برد»، أو «هذا الفتى متعاطف» - في حين كان يعني أنه فتى ظريف؛ عند لفظه النبِرة في غيرما مكانها الصحيح، في كلمات مثل interesting (مثير للاهتمام) أو laboratory (مختبر)؛ عند عدم نطقه على نحو صحيح بأسماء ك سقراط، وديزديمونا. ولكن بمجرد أن يصححه أحد ما، فإنه لا يعود للخطأ ثانية، ولكن حقيقة كونه غير متأكد من بعض الكلمات، قد أثارت عنده اضطراباً كبيراً، وكان يحمر خجلاً حتى يصير وجهه ورديا بالكامل عندما، وبسبب عيب لغوي قد صدر منه، يصعب على سامعه متواضع الذكاء، فهم ما نطق به. في تلك الفترة، كانت كتابته أفضل من حديثه، ومع ذلك، بقي هنالك في قصائده ما هو غير إنكليزي، على نحو غامض. لم تمسني أي منها. يعتقد صديقه، حقيقة، أن ربما قصيدة أو اثنتين...

وضع القطة جانباً وشرع يقلب أوراقاً موضوعة في أحد الأدراج، ولكنه لم يستطع وضع يده على شيء.

«ربما في صندوق في شقة أختي»، قال مرتاباً، «ولكني لست متأكداً... أشياء صغيرة كهذه، عرضة للنسيان، إضافة إلى أنني أعرف كم كان سبستيان ليبارك خسارة كتلك!»

«بالمناسبة»، قلت، «يبدو الماضي الذي تتذكره رطباً وكئيباً، أقصد من الناحية المناخية - في الواقع، ككآبة جو اليوم [كان يوماً قاتماً من أيام فبراير]. أخبرني، ألم تكن هناك أبداً أيام مشمسة ودافئة؟ ألم يشر سبستيان نفسه، في نص ما، إلى «المشاعل الوردية فوق أشجار الكستناء العظيمة» على امتداد ضفة نهر ما، صغير وجميل؟»

أجل، لقد كنت محقاً، ثبت أن هنالك ربيعاً وصيفاً في كامبريدج، تقريباً كل عام (كم أمتعتني تلك الـ «تقريباً» الغامضة التي نطق بها). أجل، لقد أحب سبستيان الاسترخاء في قارب بنط فوق نهر كام. ولكن أكثر ما أحبه كان ركوب الدراجة عند الغسق، على طول طريق معين تحدّه المروج من الجهتين. هناك، كان يجلس فوق سياج متأملاً قطع الغيوم المتناثرة، الوردية بلون السلمون؛ وبينما كانت تتحول إلى نحاس باهت في سماء المساء الباهتة، كان هو يفكر في أمور كثيرة. أية أمور هذه؟ أفي الفتاة الإنكليزية ذات الشعر الناعم المضفور، التي تبعها مرة في مكان عام، دنا منها وقبّلها، ثم لم يعد لرؤيتها مجدداً؟ في شكل سحابة معينة؟ في الغروب الضبابي وراء غابة تنوب روسية سوداء (أوه! كم يمكنني أن أنسب إلى ما يمكن له أن يتذكر!)؟ في المعنى العميق لأغلوج أو لنجم؟ في لغة الصمت المجهولة؟ في الوزن المرعب لقطرة ندى؟ في حصاة بين ملايين الحصى، بجمالها الذي يفطر القلوب؟ الحصى التي لكل منها

معنى، ولكن أي معنى؟ في السؤال القديم، القديم جداً: من أكون؟ أم تراه كان يفكر في نفسه الآخذة في التماهي، وعلى نحو غريب، في غروب متلاشٍ، أم في عالم «الله» من حوله، الذي لم يتعرف عليه أحد بما يكفي؟ أو ربما سنكون أقرب إلى الحقيقة إن افترضنا أن مع جلوس سبستيان فوق السياج، كانت فوضى عارمة من الكلمات والخيالات تدور في ذهنه، لا الخيالات كانت مكتملة ولا الكلمات كافية، ولكنه كان قد علم مسبقاً أن ذلك، ولا شيء سواه، كان حقيقة حياته، وأن مصيره كان كامناً وراء ساحة معركة وهمية، سيعبرها يوماً ما، عند الأوان.

«هل أحببتُ كتبه؟ أجل، وبشدة. لم أره كثيراً بعدما غادر كامبريدج، ولم يرسل لي أياً من أعماله. الكتّاب، كما تعلم، كثيراً ما ينسون. ولكني عثرت يوماً على ثلاثة منها في المكتبة، وقرأتها كلها خلال ليال متتالية. لطالما كنت متأكداً من أنه سيكتب ما هو بتلك الروعة. في آخر سنة له هنا - لا أعرف ما خطب هذه القطة، تبدو فجأة غير مهتمة بالحليب أبداً.»

في عامه الأخير في كامبريدج، قضى سبستيان معظم وقته في الكتابة؛ كان الموضوع الذي اختاره - الأدب الإنكليزي - واسعاً ومعقداً؛ ومع ذلك، فقد تميزت تلك الفترة ذاتها بكثير رحلاته المفاجئة إلى لندن، التي لم يطلب إذناً لها من سلطات الجامعة. كان أستاذه، السيد جيفرسون الراحل، حسبما أُخبرت، رجلاً عجوزاً ومملاً للغاية، ولكن لغوياً دقيقاً، وقد أصر على اعتبار سبستيان روسياً. بمعنى آخر، قاد سبستيان نحو حدّ الحنق، عندما كان يتلو عليه كل الكلمات الروسية التي تعلمها (جمعها من رحلته إلى موسكو عدة سنوات خلت)، طالباً منها تعليمه المزيد. أخيراً، فاجأه سبستيان ذات يوم بقوله إنه يرتكب بعض الأخطاء - لم يكن قد وُلد في روسيا

في الحقيقة، بل في صوفيا، التي بدأ الرجل العجوز، مبتهجاً، بالتحدث عنها بالبلغارية. أجابه سبستيان متردداً أنه لم يتحدث باللهجة المحلية التي يعرفها هو، وحين تحداه العجوز لتقديم مثال، اخترع في لحظته لكنة، قد أربكت اللغوي العجوز، إلى أن تبين له أن سبستيان. . .

«حسناً، أعتقد أنك استنزفتني الآن»، قال مخبري مبتسماً. «تزداد ذكرياتي ضحالة وسخافة؛ ولا أعتقد أنه من المجدي أن أضيف أن سبستيان كان الأول على دفعته، وأن هنالك صورة قد التُقطت لنا معاً في مجد ذلك اليوم، سأحاول إيجادها يوماً، وإرسالها إليك إن أحببت. أعليك حقاً أن تغادر الآن؟ ألا تود مشاهدة الحدائق الخلفية؟ تعال وانظر إلى الزعفران! كان سبستيان يطلق عليه «فطر الشعراء»، إن كنت تفهم ما يرمي إليه.»

لكنها كانت تمطر بغزارة. وقفنا لدقيقة أو اثنتين تحت الشرفة، ثم قلت إنه من الأفضل لو أنطلق.

«أوه، انظر هنا!»، صاح صديق سبستيان في إثري، بينما كنت بدأت بشق طريقي بين البرك. «لقد نسيت إخبارك بأمر. لقد قال لي المدير في ذلك اليوم إن شخصاً ما قد كتب إليه مستفسراً ما إذا كان سبستيان نايت حقاً خريج ترينيتي. والآن، ما كان اسم الفاعل؟ يا لذاكرتي التي انكمشت جراء الغسيل! حسناً، لقد غسلناها بما يكفي. ألم نفعل؟ بكل الأحوال، لقد أُحطت علماً أن شخصاً ما يقوم بجمع بيانات بغرض الكتابة عن سبستيان نايت. أمر مضحك. لا يبدو أن لديك شيئاً عن. . .»

«سبستيان نايت»، قال صوت مفاجئ قادم من الضباب، «من يتحدث عن سبستيان نايت؟»

الفصل السادس

اقترب الغريب الذي تفوّه بتلك الكلمات - أوه، كم أتوق أحياناً لرواية تترنح ثَمَلاً! كم كان الأمر ليكون مريحاً لو أن ذلك الصوت كان يخص نبيلاً عجوزاً ومبتهجاً، بشحمتي أذنين مترهلتين، وتجاعيد تحيط بالعينين كدلالة على الحكمة وروح الدعابة... شخصية عملية، عابر مرحب به، كان يعرف بدوره بطلي المزعوم، ولكن من زاوية مختلفة. وكان ليقول: «والآن، سأخبرك القصة الحقيقية لحياة سبستيان نايت خلال سنواته في الكلية.» ثم سيشرع بالقصة. ولكن للأسف، لم يحدث شيء من هذا القبيل. ذلك الصوت القادم من الضباب، قد قرع باب أحلك أجزاء عقلي. لم يكن غير صدى لبعض حقيقة ممكنة، تذكير قد وصل في وقته المناسب: إن أردت أن تعرف عن الماضي فلا تثق بشفاه الحاضر. كن حذراً من أكثر الوسطاء صدقاً. تذكر أن ما يُقال لك له أوجه ثلاثة: الأول الذي شكّله المحدث، الثاني الذي أعاد تشكيله المستمع، والوجه الثالث المخفي، الذي مات مع موت رجل الحكاية. من يتحدث عن سبستيان نايت؟ تردد صدى السؤال في طويتي. حقاً من؟ أعز أصدقائه وأخوه غير الشقيق. مثقف لطيف، بعيد عن صخب الحياة، ومسافر محرج قادم للزيارة من أرض بعيدة. وأين هو الطرف الثالث؟ يتعفن بسلام في مقبرة سان دامييه. يعيش ضاحكاً في كتب خمسة.

شبح غير مرئي يحدق فيما أكتب الآن من وراء كتفي (على الرغم من أني أجرؤ على التصريح أنه لم يؤمن أبداً بمفهوم الخلود الشائع ولا حتى بكونه قد أصبح الآن شبحاً).

بكل الأحوال، كنت قد وقعت على الغنائم التي أنتجتها تلك الصداقة. أضفت إليها عدداً قليلاً من الوقائع العرضية التي قرأتها في رسائل سبستيان القصيرة جداً، والتي كتبها في تلك الفترة، إضافة إلى ما استنتجه من إشاراته البسيطة إلى حياته الجامعية، التي وجدتها مبعثرة بين مؤلفاته. ثم عدت إلى لندن حيث كنت قد خططت للخطوة التالية.

حدث أن ذكر مرة سبستيان، خلال اجتماعنا الأخير، أنه كان يوظف بين الحين والآخر سكرتيراً، وذلك ما بين عامَي ١٩٣٠ و١٩٣٤. كعديد المؤلفين في الماضي، وقليلهم في الحاضر (أو ربما نحن ببساطة، لم ندر بأولئك الذين برعوا بإدارة شؤونهم بأنفسهم)، كان سبستيان فاشلاً في إدارة الأعمال على نحو ميؤوس منه، وكان ما إن يقع على مستشار (الذي من الممكن أن يكون نصاباً أو أحمق - أو كليهما) حتى يعتمد عليه كلياً من دون عناء التفكير في عواقب الأمر. إن حدث وسألته ما إذا كان متأكداً من أن السيد «فلان» ليس بمارق أفاق، فإنه سرعان ما يغير وجهة الحديث، كما لو كان يخشى اكتشاف خسارة أخرى، من شأنها أن تعكر صفو كسله. بالمختصر، كان يفضل وجود مساعد سيّئ على عدم وجود أحدهم بالمطلق، وكان ليقنع نفسه والآخرين برضاه التام عن خياراته. أود بعد كل ما سبق أن أؤكد، بطريقة لا تترك معها مجالاً للشك، أن لا شيء في كلماتي - من وجهة نظر قانونية - يحمل تشهيراً بأحد، وأن الاسم الذي أنا على وشك ذكره في الفقرة التالية، لا علاقة له بكل ما ذُكر آنفاً.

والآن، ما أردته من السيد غودمان لم يكن سرداً عن حياة سبستيان في سنواته الأخيرة - التي لم أحتج إليها بعد - (إذ إنني اعتزمت المشي في حياة سبستيان، خطوة بخطوة، دون أن أتجاوزه)، بل مجرد الحصول على بعض الاقتراحات لأسماء أشخاص يتوجب عليَّ مقابلتهم، لإمكانية معرفتهم بحياة سبستيان ما بعد مرحلة كامبريدج.

إذاً، فإنني في ١ مارس ١٩٣٦، اتصلت بالسيد غودمان في مكتبه، في شارع فلييت. ولكن قبل أن أصف مقابلتنا، اسمحوا لي باستطراد قصير.

كما ذكرت سابقاً، وجدت بين رسائل سبستيان بعض المراسلات بينه وبين ناشره، تتعلق برواية معينة. تبين في كتاب سبستيان الأول (١٩٢٥)، «الفصّ الموشوري»، إن إحدى الشخصيات الثانوية تعود إلى كاتب معين حي، ساخر وقاس إلى حد رهيب، قد وجد سبستيان ضرورة لحشره في الرواية والتنديد به. من المؤكد أن الناشر قد عرف فوراً من يكون المعني، وهذا ما أزعجه ودفعه لنصح سبستيان بتعديل مقطع كامل، الأمر الذي رفضه الأخير بشكل قاطع، قائلاً إنه سيطبع الكتاب في مكان آخر - وهذا حقاً ما فعله في النهاية.

«أراك مستغرباً!» كتب في إحدى الرسائل، «لِمَ بحق الجحيم! يقوم كاتب ناشئ (كما تقول - ولكنه مصطلح خاطئ، لأن الكاتب الذي يبدأ ناشئاً يبقى كذلك طوال حياته؛ أما البقية، أمثالي، يتفتح برعهم بضربة واحدة ومفاجئة). أراك مستغرباً، دعني أكرر (وهذا لا يعني أني أعتذر عن ما بين القوسين البروستيين(*))، لِمَ بحق

(*) بروستي: نسبة إلى الكاتب الفرنسي مارسيل بروست (١٨٧١-١٩٢٢). (مترجم)

الجحيم، قد تناولت في الرواية قطعة خزف زرقاء معاصرة (هذا ما يذكّر به الرمز X، أليس كذلك؟ يذكّر بتلك الأشياء الصينية الرخيصة التي تغري أحدنا في المعارض، بخوض حفلة تدمير صاخبة) لأجعلها تهوي من علياء نثري إلى الحضيض. تخبرني أنه كاتب مرموق جداً، وعلى نطاق واسع؛ أن مبيعاته في ألمانيا تكاد تكون بهول مبيعاته هنا؛ أن إحدى قصصه القديمة قد اختيرت لتوها لتنضم إلى مجموعة الروائع الحديثة؛ أنه يُعتبر، إلى جانب Y و Z، أحد كتاب جيل ما بعد الحرب البارزين؛ وأنه، أخيراً وليس آخراً، ناقد خطير. يبدو أنك تلمّح أن علينا جميعاً الحفاظ على سر نجاحه الغامض، الأشبه بسفر في رحلة من الدرجة الثانية، مع بطاقة الدرجة الثالثة، أو - في حال لم يكن تشبيهي واضحاً بما يكفي - ليس نجاحه بالقائم إلا على إشباع ذائقة أسوأ فئة بين جمهور القراء - ولست أعني أولئك الذين يستمتعون بالروايات البوليسية، ليباركوا بها أرواحهم النقية - بل أولئك الذين يشترون أتفه الكتب لأنهم قد تأثروا بتيار فرويد أو 'تيار الوعي'، أو ما شابه - والذين، بالمناسبة، لم ولن يفهموا أن كتّاب اليوم الكلبيين(*)، سيكونون برجوازيي الغد. لِمَ الاحتفاظ إذاً بهذا السر المخجل؟ أي رابطة ماسونية هذه تجمع بين التوافه - أو بالأحرى ما هذا الثالوث؟ ومع كل هذا التأليه الرخيص، تأتي حضرتك لتخبرني أن 'مهنتي الأدبية'، إن هاجمت كاتباً مؤثراً ومشهوراً، ستُشل على نحو لا يمكن علاجه. ولكن حتى وإن كان هنالك ما يسمى بـ'المهنة الأدبية'، وإن كان ركوبي لحصاني الخاص سيكلفني إقصائي عنها، فإنني سأستمر وأستمر في رفض تغيير كلمة واحدة مما قد كتبت. إذ لا يوجد، وصدقني في ذلك، تهديد بعقاب

(*) الكلبيين: نسبة إلى الفلسفة الكلبية.

عنيف قد يردعني عن ملاحقة متعتي، وخاصة عندما تكون تلك المتعة هي نهد الحقيقة، اليانع البضّ. في الحقيقة، لا يوجد في الحياة كثير من المسرات القابلة للمقارنة بمسرة الهجاء والسخرية، وكلما تخيلت وجه ذلك الدجال أثناء قراءته (وهذا ما سيفعله) لذلك المقطع الخاص، ويعرف كما يعرف كلانا أنني لم أذكر إلا ما هو حقيقة، عندها فقط، تحملني سعادتي إلى ذروة اللذة. دعني أضيف أنني لو كنت مخلصاً بذكر تفاصيل ليس فقط العالم الداخلي الخاص بـX (الرمز الذي لا يحمل دلالة أبعد من محطة مترو في ساعة الذروة)، بل أيضاً سلوكياته وطريقة كلامه، فإنني أتحداه كما أتحدى أي قارئ آخر، ليكتشف أدنى أثر لابتذال في المقطع الذي أثار حفيظتك. لذلك، أزح هذا العبء عن كاهلك. وتذكر أيضاً أنني مسؤول عن كل التبعات، الأخلاقية والمالية، في حال 'وقعت في مشاكل' بسبب كتابي الصغير والبريء.»

هدفي من اقتباس هذه الرسالة (بصرف النظر عن قيمتها الخاصة بإظهار مزاج سبستيان الصبياني المشرق، الذي سيبقى، وحتى وقت لاحق، كقوس قزح يلون كآبته العاصفة في أحلك حكاياه) هو تسوية مسألة حساسة. في غضون دقيقة أو دقيقتين سيظهر السيد غودمان بلحمه ودمه. سبق أن شرحت للقارئ مدى امتعاضي من كتاب هذا الرجل وعدم موافقتي عليه. ومع ذلك، فإنني عند لقائنا الأول (والأخير)، لم أكن أعرف شيئاً عن عمله المزمع (إن كان يصح بتأليف سريع أن يُسمى بـ'عمل'). اقتربت من الرجل بذهنية حيادية؛ لم تعد كذلك، ومن المؤكد أن يؤثر ذلك على وصفي له الآن. في الوقت ذاته، لست أدري كيف لي أن أناقش زيارتي له من دون التلميح، حتى وإن متحفظاً (كطريقة صديق سبستيان في الكلية)، إلى أسلوب السيد غودمان في الكلام، وحتى إلى مظهره. أتراني أكون

قادراً على التوقف عند هذا الحد؟ ألن تجحظ عينا السيد غودمان فجأة بمجرد قراءته لهذه السطور؟ لقد قرأت رسالة سبستيان بعناية وتوصلت إلى النتيجة القائلة بأن الاحترام الذي فرضه سبستيان نايت على نفسه في معرض ذكره للسيد X، لا يمكنني استخدامه مع السيد غودمان. أنا لا أمتلك تلك العبقرية في الصراحة التي يمتلكها هو، كما أني لا أملك إلا أن أكون وقحاً في الأماكن التي كان هو فيها حذقاً. لذا، أجدني أطأ فوق طبقة جليد رقيقة جداً، وعليّ التحرك بحذر شديد، عندما أدخل غرفة مكتب السيد غودمان.

«أرجوك أن تجلس»، مشيراً بكياسة إلى مقعد جلدي بالقرب من طاولته. كانت أناقته اللافتة متأثرة بروح العصر. غطى قناع أسود وجهه.

«ما الذي يمكنني تقديمه لك؟»

استمر في التحديق بي تارة، وببطاقة الزيارة خاصتي، التي بقيت في يده، تارة أخرى. أدركت فجأة أن اسمي لم ينبئه بشيء. كان سبستيان قد اتخذ من كنية والدته كنية له.

«أنا أكون»، أجبت، «الأخ غير الشقيق لسبستيان نايت»...

تلى ذلك برهة صمت.

«لحظة»، قال السيد غودمان، «أتريد مني أن أفهم أنك تعني سبستيان الراحل، الكاتب الشهير؟»

«بالضبط»، أجبت.

بدأ السيد غودمان بتمسيد وجهه بالإبهام والسبابة... أعني الوجه تحت القناع... مسّده من الأعلى إلى الأسفل، ثم العكس.

«أستميحك عذراً»، قال، «ولكن ألا يجوز أن تكون مخطئاً؟»

«قطعاً لا»، أجبته، واختصرت قدر الإمكان في شرح علاقتي بسبستيان.

«إذاً، فالأمر كذلك»، قال السيد غودمان، بنبرة تزداد تأملاً. «إنها لمفاجئة حقاً! لم يمر أمر كهذا في خاطري أبداً. لطالما كنت متأكداً أن سبستيان قد وُلد ونشأ في روسيا، ولكني، بطريقة ما، قد فاتني التدقيق في قضية الاسم... أجل، الآن فهمت. كان لا بد له أن يكون حاملاً لاسم روسي. إنها والدته...»

للحظة، نقر السيد غودمان فوق لوحة النشاف، بأصابعه البيضاء، ثم زفر تنهيدة ضعيفة.

«حسناً، ما حصل قد حصل»، قال. «لقد فات الأوان الآن على إضافة... أعني...» أكمل بعجالة، «أنني آسف لعدم خوضي في هذا الأمر من قبل. أنت إذاً أخوه غير الشقيق. يسرني لقاؤك.»

«أولاً وقبل كل شيء»، قلت، «أود تسوية أمر يخص أعمال أخي. إن أوراق السيد نايت، أو على الأقل تلك التي تشير إلى مهنته الأدبية، ليست بالمرتبة على نحو كافٍ، وأنا لا أعرف بالضبط كيف أسوي أمراً كهذا. لم أقابل ناشريه بعد، ولكني أُخبرت أن أحدهم على الأقل - صاحب الدار التي نشرت 'الجبل المضحك' - لم يعد على قيد الحياة. وقد فكرت أنه ربما من المستحسن أن أقابلك قبل أن أذهب في بحثي إلى ما هو أبعد من ذلك.»

«صحيح جداً»، قال السيد غودمان. «في الواقع، قد لا تكون على اطلاع أنني مهتم بكتابين من كتب نايت، 'الجبل المضحك' و'الملكية المفقودة'. في ظل هذه الظروف، أفضل ما يمكنني تقديمه لك هو بعض التفاصيل التي يمكنني إرسالها لك عند صباح الغد مرفقة بعقد مبرم بيني وبين السيد نايت. أم عليَّ أنا أناديه بالسيد...» قالها مبتسماً تحت قناعه، محاولاً تهجئة كنيتنا الروسية البسيطة.

«وهنالك مسألة أخرى أيضاً»، تابعت. «لقد قررت كتابة كتاب

عن حياة أخي وعن أعماله، وأنا في حاجة ماسّة إلى بعض المعلومات. أيمكنك ربما...»

بدا لي أن السيد غودمان متشنجاً، سعل ربما مرة أو اثنتين، ثم التقط قرص مشمش محلى من صندوق صغير، فوق طاولة مكتبه المميزة جداً.

«سيدي العزيز»، قال فجأة محولاً اتجاه كرسيه، ومدوراً في الوقت ذاته حبل نظارته الأحادية، «فلنتحدث بمنتهى الصراحة. من المؤكد أني عرفت المسكين نايت أكثر من أي شخص آخر، ولكن... اسمع، هل فعلاً بدأت بكتابة كتابك ذاك؟»

«لا»، قلت.

«لا تفعل إذاً. أرجو أن تعذر فظاظتي، إنها خصلة قديمة - وربما سيئة. أنت لا تمانع، أليس كذلك؟ حسناً، إن ما أعنيه هو... كيف يمكنني قول ذلك؟ كما ترى، إن سبستيان نايت لم يكن بالكاتب العظيم الذي تظنه... أوه، أجل، أنا أعرف - كان ما أنتجه فناً وما إلى ذلك من تسميات - ولكن لا شيء مما يجذب جمهور القراء. لا يسعدني أن أقول إنه لا يمكن تأليف كتاب عنه. ربما يمكن. ولكن عندها يجب أن يُكتب من وجهة نظر محددة تجعل من الموضوع المتناول ساحراً. وإلا فإنه سيفشل فشلاً ذريعاً، لأني، وكما ترى، لا أظن أن شهرة سبستيان نايت كافية لتعزيز أيٍّ مما يشبه العمل الذي يدور في ذهنك.»

فوجئت باندفاعه هذا الذي واجهته صامتاً. أما السيد غودمان فقد تابع قائلاً:

«أنا متأكد أنك لا تجد إهانة في فظاظتي هذه. لقد جمعتني بأخيك غير الشقيق صداقة طيبة، لذا أرجو أن تتفهم جيداً مشاعري حيال ما أقوله. من الأفضل أن لا تكتب شيئاً يا سيد العزيز، من

الأفضل أن لا تفعل. اترك الأمر لبعض الزملاء المحترفين، لمن له خبرة في سوق الكتب، وسيخبرونك أن أياً كان من يحاول إكمال دراسة مفصلة عن حياة نايت وأعماله، بالطريقة التي تفكر بها، سيهدر وقته ووقت القارئ. لِمَ؟ حتى الكتاب 'كذا وكذا' عن الراحل... [ذُكر هنا اسم كاتب مشهور] مع كل هاتيك الصور الفوتوغرافية والرسائل المصورة، لم يلق رواجاً في السوق.»

شكرت السيد غودمان على نصيحته تلك، ثم مددتُ يدي نحو قبعتي. شعرت أن تلك الزيارة كانت فاشلة وأني قد تبعت الأثر الخاطئ. لست أدرِ لماذا لم أطلب منه التوسع في الحديث عن تلك الأيام التي جمعته خلالها بسبستيان «صداقة طيبة». أتساءل اليوم ما ستكون إجابته لو توسلته ليخبرني كيف عيَّنه سبستيان سكرتيراً له.

بعد أن صافحني بحرارة شديدة، عاد للبس قناعه الذي كنت قد جرّدته منه ووضعته في جيبي، ظناً مني أنه قد يكون ينفعني يوماً ما، في مناسبة ما. رافقني حتى أقرب باب زجاجي، حيث افترقنا. عندما أوشكت على نزول الدرج، ركضتْ ورائي فتاة قوية المظهر، كنت قد لاحظت أنها تطبع فوق الآلة الكاتبة في إحدى الغرف، وأوقفتني (أمر غريب - صديق سبستيان في كامبريدج قد اتصل بي مجدداً أيضاً).

قالت: «اسمي هيلين برات، وقد سمعت من محادثتكما بقدر ما أمكنني التنصت، وأود لو أطلب منك أمراً صغيراً. إن كلير بيشوب صديقة رائعة لي. هنالك أمر لطالما أرادت معرفته. أيمكنني لقاؤك قريباً؟»

قلت أجل، بالتأكيد، وحددنا موعداً.

«لقد عرفت السيد نايت جيداً»، أضافت، ناظرة إليَّ بعينين مستديرتين زاهيتين.

«حقاً؟» قلت، دون أن أعرف ما يمكنني أن أضيف.

«أجل»، تابعت، «لقد كان شخصية مذهلة. لن أمانع إخبارك أني أحقّر كتاب غودمان عنه.»

«ماذا تعنين؟» سألت، «أي كتاب تقصدين؟»

«أوه، الكتاب الذي انتهى لتوّه من تأليفه. لقد كنت معه الأسبوع الماضي أثناء الطباعة التجريبية. حسناً، عليَّ الآن أن أهرب. شكراً جزيلاً لك.»

قفزتْ برشاقة مبتعدة، بينما هبطت الدرجات ببطء.

أما وجه السيد غودمان، الكبير، الوردي والناعم، فقد بقي في ذاكرتي، وسيبقى، كضرع بقرة حلوب.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل السابع

تمتع كتاب السيد غودمان، «مأساة سبستيان نايت»، بطباعة ممتازة، وقد كُتبت فيه مراجعات مطولة في الصحف اليومية والأسبوعية الرائدة. قيل فيه إنه «مؤثر ومقنع»، كما نُسب إلى الكاتب « نفاذ البصيرة»، و«استثنائية الأسلوب». اقتُبست المقاطع لإثبات قدرته على الإيجاز الوافي. وصل الأمر في إحدى المراجعات أن رفع الناقد قبعته للسيد غودمان - ودعوني هنا أضيف - الذي نشر الكتاب ببساطة على حسابه الخاص. باختصار، لقد تم التربيت على كتف السيد غودمان بدل أن يتلقى صفعة فوق أصابعه.

من جهتي، كنت لأتجاهل أمر الكتاب لو كان مجرد كتاب سيّئ، محكوم، كغيره من الكتب المثيلة، بصيرورته طي النسيان، مع حلول الربيع القادم. إن المكتبة الليثية(*)، بكل ما فيها من كتب لا تحصى، تبقى غير مكتملة، صدقوني، من دون مجهود السيد غودمان، وللأسف. إنه ليس مجرد كتاب سيّئ وحسب، بل هنالك ما هو أسوأ. بطبيعة الحال، نظراً لطبيعة الموضوع، فقد أصبح تلقائياً

(*) ليثية: ليثي هو أحد الأنهار الخمسة في العالم السفلي أو أنهار هاديس، الذي تروي عنه الأساطير الإغريقية والرومانية أنه يمنح النسيان للأرواح التي تشرب منه. Lethe باليونانية تعني النسيان. (مترجم)

ضوءاً مسلطاً على المجد المستمر خاصة رجل آخر. طالما أن اسم سبستيان نايت سيبقى متداولاً في ذاكرة القراء، فإنه سيبقى هنالك دائماً بعض المثقفين الفضوليون، الذين لن يتوانوا عن تسلق السلم للوصول إلى حيث يستلقي «مأساة سبستيان نايت» مسترخياً كسولاً، بين «سقوط رجل» لغودفري غودمان(*)، و«ذكريات عمر» لصامويل غودريتش(**). وإن كنت أضرب باستمرار على وتر هذا الموضوع، فإنما أفعل ذلك حباً بسبستيان نايت.

أسلوب غودمان بسيط كفلسفته. كان هدفه الوحيد قائماً على إظهار «المسكين نايت» على أنه نتاج وضحية لما أسماه «عصرنا» - على الرغم من أنني عاجز عن فهم اللغز الكامن وراء رغبة بعض الناس في مشاركة الآخرين في مفاهيمهم الزمنية. «اضطرابات ما بعد الحرب»، و«جيل ما بعد الحرب»، كانت تلك الكلمات مفاتيح السيد غودمان، لفتح كل باب موصد. هنالك طبعاً «افتح يا سمسم»، العبارات الأقل سحراً من عبارات «المفاتيح الهيكلية(***)»، ويؤسفني القول إن هذا ما هو عليه حال السيد غودمان. ولكنه مخطئ في الاعتقاد بأنه سيجد شيئاً وراء الباب ما إن يقحم مفتاحه. لا أميل للاقتراح بأن السيد غودمان يفكر. ما كان لينجح في ذلك ولو جرب. لا يعالج كتابه إلا الأفكار التي ثبت (تجارياً) أنها تجذب العقول المتواضعة.

بالنسبة للسيد غودمان، فإن الشاب سبستيان نايت، «المنبثق حديثاً من شرنقة كامبريدج المنحوتة»، هو شاب ذو حساسية عالية في

(*) غودفري غودمان: رجل دين ومفكر إنكليزي (١٥٨٢-١٦٥٦). (مترجم)

(**) صامويل غودريتش: كاتب أمريكي (١٧٩٣-١٨٦٠). (مترجم)

(***) مفتاح هيكلي: مفتاح لكل الأقفال. (مترجم)

عالم وحشي البرودة. في هذا العالم، «تتداخل الوقائع الخارجية بقسوة مع أكثر أحلام المرء حميمية»، مطبقة بسياجها حول روح رجل شاب، قبل أن تحطمها كلياً. «إن الحرب»، قال السيد غودمان دونما خجل، «قد غيرت وجه هذا الكون». وراح يصف، باستمتاع مفرط، تلك الجوانب الخاصة من حياة ما بعد الحرب، التي اعترضت طريق شاب عند «فجر مهنته المضطرب»: الشعور بخديعة كبيرة؛ التعب من الروح ومن إثارة جسدية محمومة (كـ «الخلاعة المبتذلة لثعلب محتال»)؛ إحساس بالعبثية - ونتيجتها الحتمية: حرية مقرفة. ووحشية أيضاً؛ عفونة الدم التي لا تزال في الهواء؛ بريق السينما الخداع؛ لقاءات محمومة في ظلام هايد بارك؛ أمجاد مفهوم التقييس؛ تأليه الآلة؛ تدهور مفاهيم الجمال، الحب، الشرف، الفن... وهكذا. ولكم يدهشني كيف أن السيد غودمان ذاته، الذي وحسب علمي يماثل سبستيان عمراً، تمكن من العيش خلال تلك السنوات الرهيبة ذاتها.

ولكن يبدو أن سبستيان لم يحتمل ما تمكن السيد غودمان من احتماله. يصور سبستيان وهو يذرع، قلِقاً، الأرض جيئة وذهاباً، في شقته القائمة في لندن، عام ١٩٢٣، بعد رحلة قصيرة إلى القارة، القارة التي «صدمته على نحو لا يمكن وصفه، بالبريق المبتذل فيها، داخل أوكار القمار الجحيمية». أجل «جيئة وذهاباً... ممكساً برأسه... في فورة من الغضب... غضب عارم... وحيداً... تواقاً لفعل شيء حيال الأمر، ولكنه ضعيف، ضعيف...»

ليس المقصود بهذه الاقتباسات الإشارة إلى تريمولو(*) السيد غودمان، بل إلى العبارات التي تغاضيت عنها، كرم أخلاق من

(*) تريمولو: تقنية في العزف تصدر عنها اهتزازات. (مترجم)

قبلي. «لا»، يتابع السيد غودمان، «ليس هذا بالعالم الذي يمكن لفنان العيش فيه. كم لزمه من الشجاعة ليكتب بكل تلك السخرية المزعجة التي رأيناها في أول أعمال سبستيان، والتي تحولت لتصير مؤلمة في آخر كتابين له... بدا في كتاباته شديد الازدراء تجاه كل شيء، وشديد التعقيد، وهنا غرز شوكته، شوكته الحادة والمسمومة.»

لست أدري لماذا، ولكن يبدو أن استخدام كلمة شوكة (التشبيه الأسطوري على نحو مثالي) قد منح السيد غودمان رضىً شرساً.

ليس من العدل أن أسمح للأمر أن يبدو وكأن الفصل الأول من «مأساة سبستيان» قائم، حصرياً، على السيلان الكثيف لدبس الفلسفة. الكلمات المصورة والطرفات التي تشكل جسد الكتاب (عندما وصل السيد غودمان إلى هاتيك المرحلة من حياة سبستيان، حين تعرف عليه شخصياً) تظهر هنا أيضاً، كفتات بسكويت منثورة فوق الدبس. ليس السيد غودمان ببوزويل(*)؛ ومن دون أدنى شك، لا يزال يحتفظ بدفتر الملاحظات الذي قام فوقه بتدوين ملاحظاته عن الشخص الذي قد وظفه، والتي أظن أن بعضها متعلق بماضي الأخير. بعبارة أخرى، علينا أن نتخيل أن سبستيان يقول له، وخلال العمل: أتعلم يا عزيزي غودمان، إن هذا يذكّرني بيوم في حياتي، قبل بضع سنوات..... ومن هنا تبدأ القصة. نصف دزينة من تلك التدوينات، تكفي السيد غودمان لملء ما كان بالنسبة له فارغاً ومجهولاً - فترة شباب سبستيان في إنكلترا.

القصة الأولى بين تلك القصص (والتي يعتبرها السيد غودمان

(*) جيمس بوزويل: كاتب سيرة ومهندس اسكتلندي (١٧٤٠- ١٧٩٥)، وهو كاتب سيرة حياة صمويل جونسون. (مترجم)

نموذجية للغاية، إبان «حياة ما بعد الحرب الجامعية») تصور سبستيان بينما يعرض على صديقة قادمة من لندن، معالم كامبريدج. «وهذه تكون نافذة العميد»، قال؛ ثم أضاف، بعد أن ضرب اللوح الزجاجي بحجرة: «وهذا هو العميد». لا ضرورة للشرح أن سبستيان وإن كان قد ذكر ما ذكر، فإنما قد فعل ذلك من باب الاستهزاء والدعابة: القصة قديمة قدم الجامعة نفسها.

دعونا نلقي نظرة على القصة الثانية. خلال رحلة قصيرة لقضاء إجازة في ألمانيا (١٩٢١؟ ١٩٢٢؟)، انزعج سبستيان ذات ليلة من ضجيج شجار بين القطط في الشارع، فشرع يرميها ببعض الأشياء بما فيها بيضة. بعد قليل، قرع شرطي بابه، وقد أعاد له كل الأشياء المرمية ما خلا البيضة. إنها قصة مقتبسة من الكتاب القديم (أو «من زمن ما قبل الحرب»، كما كان السيد غودمان ليقول) لجيروم ك. جيروم(*).

القصة الثالثة: يتحدث سبستيان عن روايته الأولى (المتلفة التي لم تُنشر) شارحاً أنها كانت تدور حول تلميذ سمين، سافر عائداً إلى منزله ليجد أمه وقد تزوجت من عمه؛ العم، وهو طبيب أمراض أذنية، كان هو من قتل والده.

السيد غودمان لا يفهم النكتة.

الرابعة: كان سبستيان في صيف ١٩٢٢ يعمل بأكثر من طاقته، وكان يعاني من الهلوسات، مدعياً أنه كان يرى شكلاً من أشكال الأشباح - راهب بثوب أسود، ينزل من السماء بسرعة متجهاً صوبه.

هذه أصعب بقليل من سابقاتها؛ مقتبسة عن قصة قصيرة من قصص تشيخوف.

(*) جيروم كلابكا جيروم: روائي ومسرحي إنكليزي (١٨٥٩-١٩٢٧)، والكتاب المقصود هو «ثلاثة رجال على البوميل». (مترجم)

الخامسة:

ولكن أعتقد أنه من الأفضل لو توقفنا هنا، وإلا فإن السيد غودمان سيتعرض لخطر التحول إلى أم أربعة وأربعين. لنبقه أم الأربعة دون الأربعين. يؤسفني حاله، ولكن ما باليد حيلة. لو أنه فقط لم يطوّر ويضع تعليقاته الخاصة على تلك «الأحداث والخيالات الغريبة»، بتلك الغزارة من الاستنتاجات الغبية! سبستيان الفظ، المزاجي، المجنون، يصارع في عالم الطغاة الأشرار، في عالم رواد الأقمار، في عالم النفوس الصغار... حسناً حسناً، قد يكون هنالك شيء من الصحة في هذا الكلام.

أريد أن أكون دقيقاً على نحو علمي. لا يجب أن أسمح لأصغر جسيمات الحقيقة أن تحبطني، فقط لأنني عند نقطة معينة من بحثي، قد وقعت على ما أعماني غضباً... من يتحدث عن سبستيان نايت؟ سكرتيره السابق. هل حقاً كانا صديقين؟ لا - كما سيتبين لاحقاً. أكان هنالك ما هو حقيقي أو ممكن في ذلك التناقض بين سبستيان سهل الانقياد، التواق ونافد الصبر، وبين العالم المتعب الشرير؟ ولا أي شيء. أكان بينهما فجوات، تصدعات وانشقاقات؟ أجل. يكفي أن ننتقل إلى الصفحات الثلاثين الأولى من «ملكية ضائعة»، لنرى كم أن السيد غودمان (الذي لم يصدف أن اقتبس أبداً أياً مما يمكن أن يتعارض مع فكرة كتابه المخادع) قد أساء، بطريقة لا تمتّ للحرفية بصلة، فهم موقف سبستيان الداخلي من العالم الخارجي. الزمن بالنسبة لسبستيان لم يكن أبداً العام ١٩١٤، أو ١٩٢٠ أو ١٩٣٦ - بل عام ١ دائماً. لم تكن عناوين الصحف، النظريات السياسية والأفكار العصرية أكثر من مجرد هذر مطبوع (بلغات ثلاث، مع أخطاء في اثنتين منها على الأقل) فوق غلاف صابونة أو معجون أسنان. قد تكون الرغوة كثيفة والملاحظة المكتوبة مقنعة - ولكن

هذا كل ما في الأمر. كان يتفهم جيداً كيف أن المفكرين الأذكياء والحساسين، قد لا يستطيعون النوم بسبب زلزال في الصين؛ ولكن من ناحية أخرى، لم يكن قادراً على فهم كيف أن أولئك الأشخاص ذاتهم، لم يشعروا بذات فورة الحزن والكآبة عند التفكير بكارثة مماثلة قد حدثت منذ عدة سنوات خلت، بعيداً عن الصين. كان الزمان والمكان بالنسبة له، مقاييس الأبدية ذاتها، وكذلك فإن فكرة «جو أوروبا ما بعد الحرب» - وفقاً للسيد غودمان - قد ولّدت في نفسه ردة فعل خاصة وغريبة جداً. كان سعيداً على نحو متقطع، ولم يكن مرتاحاً في العالم الذي جاء إليه، تماماً كما يمكن لمسافر أن يكون مبتهجاً برؤية مسار رحلته، ولكن في الوقت ذاته يكون مصاباً بدوار البحر. أياً كان العصر الذي كان يمكن لسبستيان أن يولد فيه، فإنه سيكون مستمتعاً وتعيساً بذات القدر، فرحاً وقلقاً، كطفل، وبينما يحضر تمثيلية إيمائية، لا ينفك يفكر في زيارة طبيب الأسنان في اليوم التالي. لم يكن سبب انزعاجه أنه كان أخلاقياً في زمن غير أخلاقي، أو غير أخلاقي في زمن أخلاقي، ولا حتى ذلك الشعور بالضيق لكون شبابه لم يزدهر طبيعياً بما يكفي، في عالمٍ كان سريعاً في تعاقب جنازاته وألعابه النارية؛ كان السبب ببساطة هو إدراكه أن إيقاع كيانه الداخلي كان أكثر غنىً من إيقاع النفوس الأخرى. حتى في ذلك الوقت، وعند اقتراب نهاية فترة كامبريدج، أو ربما أبكر، أيقن أن حتى أتفه أفكاره وأحاسيسه، تبعد بعداً شاسعاً عن أفكار وأحاسيس زملائه. لعله كان ليتفاخر بذلك لو أنه قد حمل في نفسه شيئاً من الزهو. وبما أنه لم يحمل من الزهو شيئاً، فلم يبق له إلا شعوره بالحرج من كونه كريستالاً بين الزجاج، كوكباً بين دوائر (ولكن كل هذا لم يكن شيئاً مقارنة مع ما خبره في نهاية المطاف، حين انتهى به الأمر كاتباً أدبياً).

«لقد كنت»، كتب سبستيان في 'ملكية ضائعة'، «خجولاً جداً لدرجة أني كنت بطريقة ما، أرتكب الخطأ الذي أكون حريصاً على تجنبه. في محاولتي الكارثية لتقليد لون محيطي، لم أتحول إلا إلى ما يمكن تشبيهه بالحرباء. كان خجلي ليُحتمل أكثر - من قبلي ومن قبل الآخرين - لو كان من النوع العادي الذي يثير احمرار الوجنات: الخجل الذي خبره الكثير من الشبان في مراحل معينة من حياتهم دون أن ينتبه لهم أحد. ولكن في حالتي قد اتخذ شكلاً سرياً ومرضياً لا علاقة له بمشاكل البلوغ. من الأساليب الأكثر إهانة والمعتمدة في بيوت التعذيب، حرمان السجين من النوم. معظم من خبروه، قد عاشوا نهاراتهم مع هذه أو تلك القطعة المتبقية من عقولهم في حالة سعيدة من النعاس: يهتم رجل جائع، أثناء تناوله شريحة لحم، بالطعام فقط، ولا يهتم، على سبيل المثال، بذكرى حلم قد رآه قبل سبع سنوات خلت، عن ملائكة بيضاء بقبعات سوداء؛ أما في حالتي، فإن كل ستائر وأغطية وأبواب عقلي ستفتح سوية في جميع أوقات النهار. لمعظم العقول أيام عطلة، أما عقلي فلم يحظ ولو بنصف واحدة. كانت حالة اليقظة المستمرة تلك مؤلمة للغاية ليس فقط لسبب اليقظة ذاتها، ولكن لعواقبها المباشرة. كان كل فعل تلقائي أقوم به بحكم العادة، يتخذ مظهراً معقداً، مثيراً العديد من الأفكار المترابطة في ذهني، ترابطاً مخادعاً وغامضاً، غير نافع نهائياً لأي تطبيق عملي، يدفعني إما إلى ترك ما أقوم به، أو إحداث فوضى ناتجة عن عصبية شديدة. عندما ذهبت في أحد الأصباح للقاء محرر مجلة، كنت قد ظننت أنه ربما سينشر بعضاً من قصائدي التي كتبتها في كامبريدج، وإذ بالتأتأة التي كانت تصدر عنه، تختلط مع أشكال الزوايا التي كنت أراها في الأنماط المرسومة فوق السقف والمدخنة، المشوهة قليلاً بسبب صدع في لوح النافذة الزجاجي،

ومع رائحة نتانة غريبة في الغرفة (ورود متعفنة في سلة المهملات الورقية؟)، لترسل أفكاري في مأمورية طويلة ومعقدة، لدرجة أنني بدل أن أنطق بما كنت قد نويت قوله، بدأت فجأة بإخبار ذلك الرجل الذي كنت أقابله لمرتي الأولى، بالخطط الأدبية لصديق مشترك بيننا، الذي كان قد طلب مني (وقد تذكرت ذلك لاحقاً) إبقاء الأمر سراً...»

«... لعلمي - كما علمت دائماً - بتشظيات وعيي الخطيرة، كنت دائم الخوف من لقاء الناس، أو جرح مشاعرهم، أو أن أسمح لنفسي بالظهور سخيفاً في نظرهم. ولكن تلك السمة من شخصيتي، ذات الجودة أو ربما الخلل، التي سببت لي عذابات مبرحة، عندما كانت تأتي في مواجهة ما نسمّيه الجانب العملي من الحياة (رغم أن، لا أخفيكم سراً، إدارة الحسابات أو بيع الكتب تحت ضوء النجوم، لا يبدوان مطلقاً أمراً واقعياً) تصبح أداة متعة رائعة، كلما أذعنت لوحدتي. لقد كنت مغرماً جداً بالبلد الذي كان موطني (بقدر ما يمكن لطبيعتي تقبل فكرة الوطن)؛ كان لي مزاجي الكبليني(*)، ومزاج روبيرت بروك(**)، ومزاج هوسمان(***). كلب الرجل الأعمى بالقرب من متجر هارولدز، أو فوق رصيف مزين بالطباشير الملون؛ أوراق بنية فوق المسار المؤدي إلى نيو فوريست، أو طوب أسود في الأحياء الفقيرة يستحم بالشمس؛ صورة في مجلة بانش أو مقطع أرجواني في هاملت؛ كل ذلك قد تضافر لتشكيل انسجام

(*) كبليني: نسبة إلى الكاتب البريطاني روديارد كبلينغ (١٨٦٥-١٩٣٦)، مؤلف «كتاب الأدغال». (مترجم)

(**) روبيرت بروك: شاعر غنائي إنكليزي (١٨٨٧-١٩١٥). (مترجم)

(***) هوسمان: آلفرد إدوارد هوسمان، شاعر إنكليزي (١٨٥٩-١٩٣٦). (مترجم)

واضح، في المكان الذي كان لي فيه، أيضاً، ظل مكان. ذاكرتي عن لندن عن أيام شبابي، هي ذكرى ملتبسة لرحلات لا تنتهي، لنافذة تعكس الشمس التي تخترق فجأة ضباب الصباح الأزرق، أو لأسلاك كهرباء سوداء رائعة، مع قطرات المطر التي بقيت متدلية على امتدادها. أراني أمر بخطوات غير مرئية عبر مروج شبحية، وخلال قاعات رقص تملأها أصوت النحيب وموسيقى هاواي، نزولاً نحو شوارع صغيرة وعزيزة تحمل أسماء جميلة، إلى أن أصل جوفاً دافئاً، حيث أجد شيئاً يشبه ذاتي إلى حد بعيد، يجلس في الظلام كئيباً، يلف بعضه بعضاً.»

من المؤسف أن وقت السيد غودمان لم يسمح له بالاطلاع على هذه الفقرة، رغم أنني أشك أنه كان، وإن قرأها، ليصل عمق ما تحويه من معانٍ.

كان لطيفاً بما يكفي ليرسل لي نسخة من عمله. في الرسالة المرفقة، شرح بلهجة مازحة تقترح حسن النية، أنه لم يذكر أمر الكتاب أثناء لقائنا لأنه لم يرد إفساد مفاجأتي. لهجته، قهقهته، خفة دمه الاحتفالية، كل ما فيه، يذكر بصديق عائلة عجوز فظ، قد أحضر عند زيارته هدية ثمينة للفرد الأصغر. ولكن السيد غودمان ليس باللاعب الماهر. لم يخطر في باله ولو للحظة، أنني لن أكون مبتهجاً، لا بالكتاب الذي ألفه، ولا بطريقته في الإعلان عن اسم أحد أفراد أسرتي. لطالما عرف أن كتابه مجرد قمامة، وأن لا الغلاف، ولا الدعاية المبالغ فيها فوق الغلاف، ولا أي مقال أو نقد في الصحافة قادر على خديعتي. لمَ اعتبرَ أن من الحكمة إبقائي في الظلام؟ لا أعرف. ربما ظن أنني سأجلس بخبث إلى طاولة الكتابة لأبدأ بتأليف عملي على عجالة، فتصلني هديته في اللحظة التي أنهي فيها كتابي.

لكنه لم يرسل لي كتابه فقط، بل أرفقه أيضاً بالحسابات التي وعدني بها. ليس هنا بالمكان المناسب لمناقشة هذه الأمور. سلمتها للمحامي خاصتي، الذي سبق له أن أطلعني على استنتاجاته. لا يسعني هنا إلا أن أقول شيئاً واحداً، وهو أن براءة وصراحة سبستيان في الأمور العملية، قد استُغلتا أيما استغلال. لم يكن السيد غودمان عميلاً أدبياً محترفاً. إنه لا ينتمي، بل لا يملك حق الانتماء إلى تلك المهنة الذكية، الصادقة والمجهدة. سنترك الأمر عند هذا الحد؛ لكني لم أنته تماماً من «مأساة سبستيان نايت»، أو بالأحرى، «مهزلة السيد غودمان».

الفصل الثامن

مرت سنتان على رحيل أمي قبل أن ألتقي بسبستيان مجدداً. كنت قد تلقيت منه خلال كل تلك المدة بطاقة بريدية واحدة، إضافة إلى الشيكات المالية التي أصر على إرسالها لي. ذات عصر غائم وكئيب من نوفمبر أو ربما ديسمبر ١٩٢٤، وبينما كنت أمشي من الشانزليزيه إلى الإيتوال، لمحت سبستيان فجأة، من خلال الواجهة الزجاجية لأحد المقاهي الشعبية. أذكر أن ردة فعلي الأولى كانت المضي في طريقي، متألماً من ذلك الاكتشاف المفاجئ لقدومه إلى باريس، من دون اتصاله بي. ثم قررت الدخول إلى المقهى، مدفوعاً بردة فعلي الثانية. رأيت مؤخرة رأسه الأسود اللامع، ووجه الفتاة الحزين التي جلست أمامه، مع نظارة فوق عينيها. كانت تقرأ رسالة ما، ومع اقترابي منهما، أعادتها إليه مبتسمة، ثم وضعت نظارتها جانباً.

«أوليست مسهبة؟» سأل سبستيان، وفي اللحظة ذاتها، وضعت يدي فوق كتفه الضعيفة.

«مرحباً يا ف. . .» قال، رافعاً نظره إليّ. «إنه يكون أخي، الآنسة بيشوب. اجلس أرجوك، وكن مرتاحاً!»

كانت ذات جمال هادئ، مع بشرة فاتحة تحمل نمشاً خفيفاً، خدين مجوفين إلى حد ما، عينين رماديتي الزرقة تعانيان من قصر

النظر، وشفتين رقيقتين. كانت ترتدي بدلة رمادية مع وشاح أزرق وقبعة ثلاثية الزوايا. أعتقد أن شعرها كان مرفوعاً.

«كنت على وشك الاتصال بك»، قال سبستيان بصوت لا ينم عن كثير من الصدق، كما أخشى. «كما ترى أنا هنا في زيارة ليوم واحد، وسأعود إلى لندن في الغد. ماذا تريد أن تطلب؟»

كانا يشربان قهوة. بقيت كلير بيشوب، برموشها الكثيفة المرفرفة، تفتش في حقيبتها حتى وجدت منديلاً، أخرجته ثم مسحت به فتحتي أنفها الورديتين، الواحدة تلو الأخرى.

«يزداد زكامي سوءاً»، قالت، ثم أقفلت حقيبتها.

«أوه، رائع!» قال سبستيان رداً على سؤال واضح. «في الواقع، لقد أنهيت لتوّي تأليف رواية، ويبدو أنها أعجبت الناشر الذي اخترته، كان ذلك واضحاً من خلال رسالته التشجيعية. حتى أنه يبدو موافقاً على عنوانها الذي لم يعجب كلير، 'الديك روبين يرد الضربة'».

«أجده عنواناً سخيفاً»، قالت كلير، «إضافة إلى أن الطيور لا تضرب.»

«إنه يحمل إشارة إلى أحد أناشيد الطفولة»، قال سبستيان متوجهاً إليّ.

«إشارة سخيفة»، قالت كلير؛ «كان عنوانك الأول أفضل بكثير».

«لست أدري... الموشور... الحافة الموشورية...» تمتم سبستيان، «ليس هذا ما أرغب فيه حقاً... الديك روبين المسكين لم يحظ بما يستحق من الشهرة...»

«على العنوان»، قالت كلير، «أن ينقل لون الكتاب وليس موضوعه.»

كانت المرة الأولى، والأخيرة أيضاً، التي أسمع سبستيان خلالها يناقش أموراً أدبية في حضوري. كما أنني، أيضاً، نادراً ما رأيته في مزاج مرح كهذا. بدا أنيقاً وبصحة جيدة. لم يُظهر وجهه الأبيض، بخطوطه الدقيقة، بذلك التظليل الخفيف فوق الوجنتين (كان واحداً من أولئك الرجال غير المحظوظين، الذين يتوجب عليهم الحلاقة مرتين يومياً، في حال أرادوا تناول الطعام مرتين خارج المنزل) أي أثر لهاتيك المسحة الباهتة التي لا توحي بمظهر صحي، والتي لطالما أظهرها. كانت أذناه الكبيرتان البارزتان قليلاً، محمرتين، كما تكونان في حالة الحماسة والاستمتاع. أما أنا، فقد كنت مربوط اللسان ومتشنجاً. شعرت، بطريقة أو بأخرى، أنني كنت متطفلاً عليهما.

«هلّا ذهبنا إلى السينما أو إلى مكان آخر؟» قال سبستيان، حاشراً إصبعيه في جيب صدريته.

«كما تريد»، أجابت كلير.

«غاهسون(*)»، قال سبستيان. كنت قد انتبهت قبل ذلك أنه يحاول نطق اللغة الفرنسية بلكنة بريطاني أصيل. انشغلنا بعد ذلك بالبحث عن فردة قفاز كلير تحت الطاولة وتحت المقاعد المنجدة بالمخمل. كان تضع عطراً خفيفاً جميلاً. وأخيراً وجدته لها. كان قفازاً رمادي اللون من جلد الظباء، مع بطانة بيضاء وكشكش ناعم. ارتدتهما على مهلها بينما كنا ندفع باب المقهى الدوار. كان حذاؤها عالي الكعب، مسطحه، عالي الساق، يصل حد الكاحل.

«اسمعا»، قلت، «لا أعتقد أني أستطيع الذهاب معكما إلى

(*) غاهسون: سبستيان ينادي النادل Garçon، مخطئاً بلفظ الكلمة. (مترجم)

السينما. أعتذر منكما بشدة ولكني مشغول ببعض الأمور. ربما... ولكن متى أنتما راحلان؟»

«أوه، هذه الليلة»، أجاب سبستيان، «ولكني سأعود إلى باريس في وقت قريب... يا لغبائي! كان عليَّ إخطارك بمجيئي في وقت أبكر. بكل الأحوال يمكننا المشي معك قليلاً...»

«أتعرفين باريس جيداً؟» سألتُ كلير.

«محفظتي»، قالت ثم توقفت.

«لا تقلقي. سأحضرها لك»، قال سبستيان عائداً نحو المقهى.

مشيت معها ببطء فوق الرصيف. كررت سؤالي الذي لم يلق آذاناً صاغية.

«أجل، نوعاً ما»، قالت. «لدي أصدقاء هنا، وسأبقى عندهم حتى عيد الميلاد.»

«من الواضح جداً أن صحة سبستيان جيدة»، قلت.

«أجل، أعتقد أنه بخير»، قالت كلير ملتفتة نحو الخلف، ثم نحوي. «عندما التقيته لمرتي الأولى، بدا لي محكوماً بموت وشيك.»

«متى كان كذلك؟» كان هذا سؤالي على الأرجح، إذ إنني الآن أتذكر إجابتها: «هذا الربيع في لندن، خلال حفلة مروعة، ثم اكتشفت أنه دائماً ما يكون على هذه الحال أثناء تواجده في الحفلات.»

«إليك ما نسيتِ»، جاء صوت سبستيان من ورائنا.

أخبرتهما أنني متجه إلى محطة مترو أنفاق إيتوال، فانعطفنا جميعاً يساراً نحو الساحة. عندما أوشكنا على عبور جادة كليبير، كادت دراجة هوائية ترتطم بكلير.

«أيها الأحمق الوضيع!» قال سبستيان، ممسكاً بها من كوعها.

«كثير من الحمام هنا»، قالت كلير عندما وصلنا الرصيف.

«كما أن لها رائحة»، أضاف سبستيان.

«أي نوع من الرائحة؟ إن أنفي مزكوم»، قالت بينما كانت تشخر، متأملة الحشد الكثيف لتلك الطيور السمينة، المتبخترة حول أقدامنا.

«سوسن ومطاط»، قال سبستيان.

هدير دراجة نارية أثناء محاولة تجنبها شاحنة نقل مفروشات، قد أرعب الحمامات وأرسلها نحو السماء. استقرت فوق الطنف ذي اللونين الأسود والرمادي اللؤلؤي، البارز من قوس النص، وعندما رفرف بعضها من جديد، بدا المنظر وكأن أجزاءً من المدماك المنحوت تتقشر كما يفعل جسم حي. بعد عدّة سنوات، وجدت تلك الصورة، «الحجر المتحول إلى أجنحة»، في كتاب سبستيان الثالث.

عبرنا المزيد من الجادات حتى وصلنا إلى الدرابزين الأبيض للدرج المؤدي إلى نفق المحطة. افترقنا هنا، ببهجة كبيرة... أذكر ابتعاد صورة معطف سبستيان المطري، وتلاشي هيئة كلير، رمادية الزرقة. أمسكتْ بذراعه وعدّلت خطواتها تماشياً مع سرعته المتأرجحة.

لقد علمتُ حالياً من الآنسة برات بأمور جعلتني أرغب في معرفة المزيد. كان كل هدفها أن تعرف، من خلالي، ما إذا كانت أي من رسائل كلير بيشوب إلى سبستيان قد بقيت بين أشيائه. لقد أكدت لي أن ذلك لم يكن بطلب من الآنسة بيشوب، وأن الأخيرة، في الواقع، لم تكن مطلقاً على دراية بلقائنا. آنذاك، كان قد مر على زواجها ثلاث أو أربع سنوات، ولم تكن الغطرسة التي وصلت إليها لتسمح لها بالحديث عن الماضي. كانت الآنسة برات قد رأتها بعد أسبوع أو أكثر من إعلان الصحف لموت سبستيان، وعلى الرغم من أن

المرأتين كانتا صديقتين قديمتين (أي أن كل منهما تعرف عن الأخرى أكثر مما تعتقد كل منهما) لم تعلق كلير على الحدث.

«آمل أنه لم يكن تعيساً جداً»، قالت بصوت هادئ، ثم أضافت: «أتساءل ما إذا كان قد احتفظ برسائلي.»

الطريقة التي قالت بها جملتها تلك، عيناها اللتان ضاقتا، التنهيدة الخاطفة التي زفرتها قبل تغيير الموضوع، قد أوحت للصديق الجالس معها أنها سترتاح لمعرفتها أن الرسائل قد أتلفت بالكامل. سألتُ الآنسة برات ما إذا كان بإمكاني التواصل مع كلير؛ وما إذا كنت سأحظى بفرصة لإقناعها بأن تحدثني عن سبستيان. أجابتني الآنسة برات أنها، ولمعرفتها بكلير، فإنها لن تجرؤ حتى على نقل طلبي. «لا أمل في ذلك»، كان هذا ما قالته حرفياً. ترددت للحظة في أن ألمّح إلى أن رسائل كلير في عهدتي وأني لن أسلمها لها ما لم تمنحني مقابلة شخصية، وكل هذا إنما لرغبة واحدة فقط، وهي أنني كنت تواقاً جداً للقائها، ورؤية مرور شبح الاسم الذي سأذكره، فوق وجهها. ولكن لا - لم أستطع ابتزاز ماضي سبستيان. لم يكن ذلك وارداً أبداً.

«لقد أحرقت الرسائل»، قلت. ثم تابعت التماسي، مكرراً، لعدّة مرات، أنه قد لا يكون هنالك ضير في المحاولة؛ متسائلاً ما إذا كان بإمكانها إقناع كلير، عند إخبارها بلقائنا، بأن زيارتي ستكون قصيرة جداً، وبريئة جداً.

«ما الذي تريد معرفته بالضبط؟»، سألت الآنسة برات. «لأنني، وكما ترى، يمكنني بنفسي إخبارك بالكثير.»

تحدثتْ مطولاً عن كلير وسبستيان؛ ولقد أحسنت في ذلك، رغم أنها، وكما تفعل معظم النساء، قد استعادت الماضي بطريقة تعليمية.

«هل تقصدين»، قلت مقاطعاً عن نقطة معينة من سرد قصتها، «أن أحداً لم يكتشف ما كان اسم المرأة الأخرى تلك؟»

«لا»، قالت الآنسة برات.

«ولكن كيف يمكنني إيجادها»، قلت صائحاً.

«لن تفعل أبداً.»

«متى قلتِ إن ذلك قد بدأ؟» قاطعتها عندما أشارت إلى مرضه.

«حسناً»، قالت، «لست متأكدة. لم أشهد هجومه الأول. كنا قد ذهبنا لتناول الطعام خارجاً. كان البرد شديداً جداً ولم يتمكن من العثور على سيارة أجرة. صار عصبياً وغاضباً. غيّر الخطة نحو مطعم قريب. ثم توقف وقال إنه ليس على ما يرام. أذكر أنه تناول حبة أو شيئاً ما من صندوق صغير، وسحقها في وشاحه الحريري الأبيض، ثم شده إلى وجهه. لا بد أن ذلك كان بين عامَي ١٩٢٧ و١٩٢٨.»

سألتُ عدّة أسئلة. أجابت على جميعها بصدق واضح، متابعة حكايتها الكئيبة. عندما ذهبت، دونت كل شيء؛ ولكن كل ما روته كان ميتاً، يفتقد للحياة. كنت ببساطة مضطراً لرؤية كلير! أن أحظى بلمحة منها، بكلمة، بأدنى صوت، أي شيء سيكون كافياً (وضرورياً، لا شك في ذلك) لإحياء الماضي. لم؟ لست أفهم، كما لم أفهم يوماً لماذا في يوم معين لا ينسى، قبل بضعة أسابيع مضت، كنت من المؤكد لأعرف ما لم يعرفه إنسان قبلي، لو أني حظيت برؤيته محتضراً قبل أن يفارق حياته، ووعيه.

أجريت اتصالاً صباح يوم الاثنين.

استقبلتني الخادمة ورافقتني حتى غرفة جلوس صغيرة. كانت كلير في المنزل، هذا على الأقل ما علمته من الأنثى الشابة ذات الشعر الأحمر التي بدت قليلة الخبرة، إلى حد ما. (يذكر سبستيان في كتاب ما، أن الرواة الإنكليز لا يخرجون عن نغمة محددة عند

حديثهم عن الخادمات). من جهة أخرى، كنت قد علمت من الآنسة برات أن السيد بيشوب كان مشغولاً في المدينة طوال أيام الأسبوع؛ كم هو غريب زواجها من رجل يحمل ذات الكنية، من دون أي رابطة عائلية، مجرد صدفة! تراها سترفض مقابلتي؟ لا بأس في ذلك، عليَّ أن أقول، حتى وإن لم يرضني الأمر... ربما كانت صالة الاستقبال على شكل L، في الطابق الأول، وتعلوها غرفتا نوم. كان الشارع كله متكوناً من تلك البيوت الضيقة. استغرقتْ وقتاً طويلاً في مداولة الأمر بينها وبين ذاتها... تراني غامرت في اتصالي المسبق؟ أتكون الآنسة برات قد أعلمتها بشأن الرسائل؟ فجأة سمعت وقع خطى ناعمة تنزل الدرجات وإذا برجل يرتدي ثوب منزل أسود مزيناً بالأرجواني، يدخل الغرفة.

«أعتذر لملابسي»، قال، «ولكني مصاب بزكام شديد. أدعى بيشوب، وعلمت أنك هنا لمقابلة زوجتي.»

بوميض فكرة خيالية وغريبة، قلت في نفسي: «أيعقل أنه قد التقط عدواه من كلير ذات الصوت المزكوم الخارج من فتحتي أنفها الورديتين، كلير التي رأيتها قبل اثني عشر عاماً؟»

«أجل، أجل»، قلت، «إن لم تكن قد نسيتني. لقد تقابلنا مرة في باريس.»

«حسناً، أجل لقد تذكرتك حقاً»، قال السيد بيشوب بينما كان ينظر إليَّ بشكل مباشر، «ولكني أخشى أنها لا تستطيع رؤيتك.»

«أتسمح لي بالاتصال لاحقاً؟» سألت.

عمَّ صمت طفيف، ثم سألني السيد بيشوب: «أيحق لي الافتراض أن زيارتك، بطريقة ما، تتعلق بموت أخيك؟»

كان عند هذا الطرح واقفاً أمام رأس يحمور، يداه محشورتان في جيبي ثوبه، ناظراً إليّ، أنا اليحمور الآخر، وكان شعره الأشقر

مسرّحاً إلى الخلف بفرشاة غاضبة؛ إنه رجل طيب، ومحترم، وأرجو أنه لن يمانع ما أذكره هنا. أسمح لنفسي أن أضيف أنه في الآونة الأخيرة، وفي ظروف حزينة للغاية، قد تبادلنا الرسائل التي قد قضت على أي من مشاعر الاستياء التي أمكن لها أن تتسلل إلى محادثتنا الأولى.

«أويمنعها ذلك من رؤيتي؟» سألت بدوري. كانت جملة غبية أعترف بذلك.

«لن تراها ولا في أي حال من الأحوال»، قال السيد بيشوب. «آسف»، أضاف بلهجة تراجعت عن حدتها، بعدما أحس أنني لست ممن يلحّون بإزعاج. «ربما في ظروف أخرى، أنا واثق... ولكن كما ترى، إن زوجتي لا تتحمس كثيراً لتذكر صداقات الماضي، ولعلك تسامحني إن قلت لك بصراحة إنه ما كان عليك المجيء هنا أبداً.»

قفلت عائداً مع شعوري بأني أفسدت الأمر كلياً. رحت أتخيل ما كنت سأقوله لكلير لو أني وجدتها وحدها في المنزل. تمكنت بطريقة ما من إقناع نفسي أنها كانت ستقبل برؤيتي لو أنها كانت وحدها: وهكذا، فإن عقبة غير متوقعة تنسف كل ما سبق أن تخيلته. كنت لأقول: «دعينا لا نتحدث عن سبستيان. بل عن باريس. أتعرفينها جيداً؟ أتذكرين ذاك الحمام؟ أخبريني! ماذا قرأت مؤخراً؟ وماذا عن الأفلام؟ أما زلت حتى اليوم تضيعين قفازاتك ومحفظتك؟»

أو ربما كنت لألجأ إلى أسلوب أكثر جرأة، هجوم مباشر. «أجل، أنا أعرف ما تشعرين به حيال الأمر، ولكن أرجوك، أرجوك حدثيني عنه. بحق حقيقته. بحق كل الأشياء الصغيرة التي ستهيم على وجهها ثم تندثر إن رفضت تسليمها لي لأحفظها في كتابي عنه.» أنا واثق أنها ما كانت لترفض طلباً كهذا أبداً. أبداً.

بعد يومين من مداولتي لذلك التكتيك في ذهني، عدت للقيام بمحاولة أخرى. كنت في هذه المرة مصمماً على أن أكون أكثر حذراً. كان ذلك في وقت مبكر من صباح يوم جميل، وثقت معه أنها لن تبقى حبيسة منزلها. كنت قد اتخذت موضعاً في زاوية شارعها، لا يلفت الأنظار. انتظرت حتى تأكدت من مغادرة زوجها إلى المدينة، ثم خروجها، ثم هممت في إثرها. ولكن الأمور لم تجر كما كنت آمل. عندما ظهرت كلير بيشوب فجأة، كان عليَّ قطع مسافة صغيرة للوصول إليها. كانت قد عبرت للتو من جانبي إلى الرصيف المقابل. عرفتها على الفور رغم أنني لم أرها إلا لمدة نصف ساعة تقريباً، قبل اثني عشر عاماً. عرفتها رغم أن وجهها قد أصبح شاحباً، ورغم امتلاء جسدها على نحو غريب. مشت ببطء وتثاقل، وعندما عبرت صوبها أدركت أنها كانت في مرحلة متقدمة من الحمل. بسبب ما أحمله في دمي من تهور، والذي غالباً ما قادني إلى الضلال، رأيتني أمشي باتجاهها بابتسامة مرحبة، ولكني كنت في تلك اللحظات القليلة مرتبكاً بوعيي الواضح لإمكانية فشلي في الحديث إليها أو حتى في إلقاء التحية عليها، وتحت أي شكل من الأشكال. لم يكن لذلك علاقة بسبستيان ولا بكتابي، ولا حتى بما دار بيني وبين السيد بيشوب، ولكن فقط بهالة الرصانة المحيطة بها. كنت أعرف أني قد مُنعت حتى من تقديم نفسي إليها، ولكن كما قلت، لقد سرت إليها مدفوعاً بتهوري، وبطريقة ما، اقتربت منها مع وصولي إلى الرصيف. تجنبتني ورفعت نحوي عينيها المصابتين بقصر النظر. لا، لم تتعرف إليَّ، الشكر لله. في تلك الرصانة التي كانت تعلو وجهها الشاحب بلون نشارة الخشب، كان هنالك ما يفطر القلب. توقفنا قليلاً. بالحضور السخيف لعقلي، أخرجت من جيبي أول ما وقعت عليه يدي، ثم قلت: «أستميحك عذراً، ولكنك قد أوقعت هذا.»

«لا»، قالت، مع ابتسامة غير شخصية. حملته للحظة وقرّبته من عينيها، «لا»، كررت، ثم ردّته إليّ وتابعت طريقها. وقفت هناك مع مفتاح في يدي، كما لو أنني قد التقطته لتوّي عن الرصيف. لقد كان مفتاح المزلاج لشقة سبستيان، وعندئذ، وبغصة غريبة، أدركت أنها قد لمسته بأصابعها البريئة العمياء. . .

الفصل التاسع

استمرت علاقتهما لست سنوات. ألّف سبستيان خلال تلك الفترة أول روايتين له: «الفصّ الموشوري»، و«النجاح». استغرقته الأولى حوالي سبعة أشهر (من أبريل حتى أكتوبر ١٩٢٤)، أما الثانية فاثني عشر شهراً (من يوليو ١٩٢٥ وحتى أبريل ١٩٢٧). ما بين خريف ١٩٢٧ وصيف ١٩٢٩، كتب القصص الثلاث التي أعيد نشرها معاً عام ١٩٣٢، تحت عنوان «الجبل المضحك». بعبارة أخرى، شهدت كلير ثلاثة أخماس كامل نتاجه (غير متضمنة ما ألّفه أول مراحل شبابه - قصائد كامبريدج، على سبيل المثال - التي أتلفها بنفسه)؛ وبما أن سبستيان، كما هي الحال دائماً، لم يكن ليتوقف في الفترات الفاصلة بين الكتب المذكورة أعلاه عن وضع مسودة لرواية متخيلة، ثم شطبها، ثم وضع أخرى، فإنه يمكننا الافتراض أنه كان دائم الانشغال خلال السنوات الست تلك. ولقد أحبّت كلير انشغاله.

لقد دخلت حياته من دون استئذان، كشخص يدخل غرفة خطأً بسبب تشابه غامض بين بابها وباب غرفته. مكثت هناك وقد نسيت طريق الخروج، ثم اعتادت على كل المخلوقات الغريبة التي وجدتها عنده، وداعبت أشكالها المذهلة. لم تكن لديها نية لتسعد نفسها أو تجعل من سبستيان سعيداً، ولم يكن لديها أدنى تصور لما قد يحمله

قادم الأيام؛ كان الأمر مجرد قبول مشاركة الحياة مع سبستيان لأن الحياة من دونه كانت أقل سحراً وتخيلاً من التخييم فوق جبل فوق القمر. لو أنها أنجبت له طفلاً، لكانا، على الأرجح، جنحا للزواج بما أنه سيكون الحل الأبسط لثلاثتهم معاً؛ ولكن، وبما أن ذلك لم يحصل، فإنهما لم يفكرا حتى في الإجراءات البيضاء والصحية التي ربما كانت لتسعدهما كثيراً لو أنهما أخذاها بعين الاعتبار على الأقل. لا يأبه سبستيان لأي من أفكاركم المسبقة، الغبية والمقدسة. كان يعرف جيداً أن إبداء ازدرائه تجاه أعراف الآخرين الأخلاقية، ليس إلا عجرفة زائفة، وحكماً مسبقاً آخر ولكنه مقلوب رأساً على عقب. على المستوى الأخلاقي، عادة ما كان يختار الطريق الأسهل (كما كان يختار على المستوى الجمالي الطريق الشائك)، ربما لأنه قد صدف كونه الطريق المختصر نحو أهدافه المختارة؛ لقد كان كسولاً جداً في الحياة اليومية (كما كان نشطاً في حياته الفنية) لدرجة لم يمكن لأي مشكلة، يستطيع يحلها الآخرون، أن تقلق راحته.

كانت كلير في الثانية والعشرين من عمرها حين قابلت سبستيان. لم تكن تتذكر والدها؛ كانت أمها قد ماتت أيضاً، وتزوج زوج أمها ثانية، وبذلك، فإنه يمكن تشبيه الفكرة الباهتة عن المنزل التي كونتها خلال حياتها مع ذويها، بآلة حلاقة قديمة، قد استبدل مقبضها، ثم استبدلت شفرتها؛ على الرغم من أنه لم يكن ممكناً لها أن تتوقع العثور على الأجزاء الأولى وجمعها ثانية - في هذا الجانب من «الأبدية»، على الأقل. عاشت في لندن وحيدة، وكانت قد التحقت بمدرسة للفنون، ودورة في اللغات الشرقية، لم تكن بحاجة إليها. أعجب بها الناس لأنها كانت هادئة الجاذبية، بوجه غامض السحر، وصوت ناعم، الصفات التي كانت تبقي صاحبتها في ذاكرة من يراها، كما لو كان عدم القدرة على نسيانها، هبة قد مُنحت لها:

وجه لا يمكن نسيانه أبداً، دائماً ما يجد طريقه إلى الذاكرة. حتى في كفيها الكبيرتين، بمفاصلهما البارزة، كان هنالك سحر فريد، وكانت في رقصها خفة وهدوء. ولكن أفضل ما فيها أنها كانت من تلك النساء النادرات، النادرات جداً، اللواتي لا يأخذن هذا العالم على محمل التسليم، ويرين في أبسط الأشياء اليومية مرايا مألوفة لأنوثتهن الخاصة. كانت تتمتع بمخيلة - عضلة الروح - وكانت مخيلتها قوية جداً ، تكاد جودتها تكون ذكورية. امتلكت، أيضاً، ذلك الإحساس الحقيقي بالجمال، الذي لا يمثل وظيفة فنية، بقدر ما هو الاستعداد التام لتمييز الهالة المحيطة بمقلاة فوق النار، أو الشبه بين الصفصاف البابلي وكلب سكي تيرير. وأخيراً، كانت مباركة بحس فكاهتها. لا عجب أنها جاءت منسجمة مع حياة سبستيان إلى هذه الدرجة.

كانا قد التقيا كثيراً خلال الفترة الأولى من تعارفهما؛ ذهبت في الخريف إلى باريس وقام هو بزيارتها أكثر من مرة، على ما أظن. في تلك الفترة، أنهى كتابه الأول. كانت قد تعلمت الضرب على الآلة الكاتبة، وكانت أمسيات الصيف بالنسبة لها، عبارة عن أوراق منزلقة عبر الأسطوانة، تدخل صامتة لتخرج حية، بكلمات سوداء وبنفسجية. يمكنني تخيل نقرها على المفاتيح اللامعة، وتشبيهه بنقر الرذاذ الدافئ فوق أوراق الدردار، وراء النافذة المفتوحة، مع صوت سبستيان البطيء والجدّي (لم يكن يملي عليها فحسب، قالت الآنسة برات - بل كان يصدر أوامراً) يذرع الغرفة رواحاً وإياباً. اعتاد أن يمضي معظم يومه في الكتابة، ولكن تقدمه كان مجهداً جداً، لدرجة أنه كان بالكاد يسلمها عند المساء ورقتين للطباعة، غالباً ما تُعاد طباعتهما أكثر من مرة، إذ إن سبستيان كان يهوى الانغماس في مسرات التصحيح وإعادة التصحيح؛ حتى أنه كان أحياناً يفعل - وهذا ما أجرؤ على قوله - ما لا يفعله أي كاتب آخر؛ أي ينسخ

الورقة المطبوعة بخط يده المائل وغير الإنكليزي، ثم يعدلها، ثم يمليها من جديد. لم يكن الألم الناتج عن صراعه مع الكلمات بألم عادي، وذلك لسببين. أحدهما كان شائعاً بين الكتّاب أمثاله: سدّ الفجوة بين التعبير والفكرة؛ كان لديهم ذلك الشعور الدافع إلى الجنون، بأن الكلمات، الكلمات الصحيحة فقط، تنتظرهم عند الضفة المقابلة، على مسافة ضبابية، وأن الفكرة التي لا تزال ترتجف عارية عند الجانب الآخر من الفجوة، تصرخ مطالبة بكسوتها. لم يكن يستخدم العبارات الجاهزة، لأن الأشياء التي أراد قولها كانت ذات بناء استثنائي، ولأنه، علاوة على ذلك، قد علم أنه لا يمكن الإبقاء على وجود فكرة حقيقية من دون الكلمات المفصلة على قياسها. حتى أن (لاستخدام تشبيه أقرب) الفكرة التي بدت عارية تطالب بملابسها، لم تفعل ذلك إلا لتصير مرئية، في حين أن الكلمات التي كمنت بعيداً لم تكن قذائف معطلة، بل تنتظر توسل الأفكار لها، لأنه وحده القادر على إشعال فتيلها وتحريكها. كان أحياناً يشعر وكأنه طفل قد أُعطي كومة أسلاك وأُمِر بتوليد الضوء. وقد فعل؛ لم يكن واعياً أحياناً للطريقة التي اعتمدها لينجح في ذلك، وفي أحيان أخرى، كان لساعات طويلة يتعامل مع الأسلاك بكثير من الدقة والحذر؛ من دون جدوى. أما كلير، التي لم تؤلف طوال حياتها سطراً واحداً من النثر أو الشعر، قد فهمت جيداً (وهنا كانت معجزتها الخاصة) كل تفصيل في صراع سبستيان، لدرجة أن الكلمات التي طبعتها لم تكن مجرد ناقلة للمعنى، بل المنعطفات، الثغرات والتعرجات التي تظهر يدي سبستيان تتلمس الخط الطويل لتعبير مثالي.

ومع ذلك، لم يكن ذلك كل شيء. وأنا أعرف، أعرف تماماً كمعرفتي بأن أبانا واحد، أعرف أن لغة سبستيان الروسية كانت أفضل

عنده من الإنكليزية، وأقرب إلى طبيعته. أميل للاعتقاد بأنه عندما توقف عن التحدث بالروسية لسنوات خمس، تمكن من إقناع نفسه بأنه قد نسيها. ولكن اللغة هي شيء مادي ومعيشي، لا يمكنه التلاشي بسهولة. كما علينا أن نتذكر أنه خلال السنوات الخمس التي سبقت تأليف روايته الأولى - أي حين غادر روسيا - كانت إنكليزيته ضعيفة كإنكليزيتي. لقد تحسنت خاصتي بشكل اصطناعي على مدار سنوات (من خلال الدراسة الصعبة والمستمرة في الخارج)؛ أما هو فقد حاول أن يترك إنكليزيته لتتطور طبيعياً في محيطه الخاص. لقد تطورت إنكليزيتي أيضاً على نحو رائع، ولكني ما زلت متمسكاً بقناعتي بأنه لو بدأ الكتابة بالروسية، فإنه كان لينجو من كل هاتيك العذابات اللغوية الخاصة. واسمحوا لي أن أضيف أني أمتلك إحدى رسائله التي كتبها قبل وفاته بقليل، وأن هذه الرسالة القصيرة مصوغة بروسية أنقى وأغنى من أي إنكليزية كتب بها، ومن أي تعبير بالغ الروعة يمكن أن نجده في كتبه. أعرف أيضاً أن كلير، أثناء طباعتها للكلمات التي قرر فصلها عن مخطوطته، كانت أحياناً تتوقف عن النقر، تتجهم قليلاً، ترفع الحافة الخارجية للورقة التي ما زالت سجينة، تعيد قراءة السطر، ثم تقول: «لا يا عزيزي، لا يصح قول هذا بالإنكليزية!» كان ليحدق في وجهها للحظة أو اثنتين، ثم يستأنف رحلة صيده لكلمات جديدة، مكرهاً على التفكر في ملاحظتها، بينما تكون هي جالسة، قابضة كفيها في حضنها، منتظرة بهدوء. «لا توجد طريقة أخرى للتعبير عن ذلك»، سيتمتم في النهاية، «ولكن على سبيل المثال...» ستجيبه هي؛ وهنا يأتي اقتراحها السديد ليحل المشكلة.

«أوه، حسناً، لم لا إن كان يعجبك!»، سيرد.

«أنا لا أصر يا عزيزي، كما تشاء، إن كنت تعتقد أن الإخلال بالقواعد النحوية لن يضير...»

«لا، لا، تابعي!» سيقول صائحاً، «أنت محقة تماماً. تابعي...»

بحلول نوفمبر ١٩٢٤، كان «الفص الموشوري» قد أصبح جاهزاً، نشر في مارس التالي، ولكنه لم يلق نجاحاً. باطلاعي على صحف هاتيك الفترة، لم أكتشف إلا إشارة واحدة فقط إلى الكتاب. خمسة أسطر ونصف في صحيفة «صانداي»، بين سطور تتناول كتباً أخرى:

«من الواضح أن 'الفص الموشوري' هي رواية الكاتب الأولى، ولا يجوز أن نكون أشداء في الحكم عليها (كحكمنا على رواية «فلان الفلاني» التي سبق ذكرها). بدت غامضة المتعة وممتعة الغموض، ولكنها ربما تحوي ذلك النوع الخاص من الخيال، الذي سيبقى مراوغاً. بكل الأحوال، بالنسبة للقراء الذين يحبون هذا النوع من الآداب، أود أن أضيف أن السيد نايت يهتم بتصفيف شعره أكثر مما يهتم بتصويب صياغته نحوياً.»

ربما كان ذلك الربيع أسعد فترة في حياة سبستيان. كان قد وضع مولوده الأول وبدأ يشعر بآلام الولادة الثانية. كان في صحة ممتازة، وصحبة مبهجة. لم يعد يتعرض لتلك المضايقات البسيطة التي كانت، بين الحين والآخر، تهاجمه بعناد جيش من النمل عند غزوة ما. استلمت كلير مهام البريد، تفقُّد الغسيل العائد من المصبغة، والحرص الدائم على تزويده بما يلزم من شفرات الحلاقة، التبغ واللوز المملح، الذي كان ضعيف الإرادة أمام مقاومته. كان يستمتع بالعشاء معها في الخارج، ومن ثم الذهاب معاً لحضور المسرح. غالباً ما كانت المسرحيات تسبب له، بعد حضورها، التمعج، الانزعاج والتأوه؛ ولكن تشريح تفاهاتها كان يجلب له متعة ما بعدها متعة. ما إن كان يقع على تفاهة مبتذلة، حتى يعلو وجهه تعبير من

الجشع، والتلهف الشرير، مع فتحات أنف متوسعة، وصرير أضراسه الخلفية، التي تطحن غضبه في نوبة من الاشمئزاز. تذكرت الآنسة برات مناسبة خاصة، حين قام والدها، وهو الذي اهتم لفترة في الإنتاج السينمائي، بدعوة سبستيان وكلير إلى العرض الخاص لفيلم ضخم، ومكلف جداً. كان الممثل الرئيسي شاباً وسيماً جداً على نحو لافت، يرتدي عمامة فاخرة، وكانت حبكة القصة درامية إلى حد بعيد. عند لحظة الفيلم الأكثر توتراً، بدأ سبستيان بالاهتزاز والضحك، مفاجئاً ومزعجاً بذلك السيد برات، بينما حاولت كلير كتم قهقهتها، وراحت تشده بعنف من كمه لعله يتوقف. لا بد أن هذين الاثنين قد حظيا سوية بأوقات رائعة. ولا أستطيع أن أصدق أن دفء وحنان وجمال ما عاشاه سوية، لم يجمعه أحد، لم يكتبه أحد، لم يُحفظ ويُثمن في مكان ما، بطريقة ما، من قِبل بعض شهود خالدين على حياة فانية. ولو حصل، لكنا رأيناهما يتجولان في كيو غاردنز، أو ريتشموند بارك (شخصياً، لم أزر المكان أبداً، ولكن مجرد الاسم يجذبني)، أو يتناولان لحم الخنزير المدخن والبيض في نزل جميل، خلال نزهاتهما الصيفية الريفية، أو يقرآن فوق الديوان الشاسع في غرفة مكتب سبستيان، مع النار تشتعل مبتهجة في موقدها، وروح الميلاد الإنكليزي تملأ الأجواء، مع رائحة توابل طفيفة تفوح على خلفية من الخزامى والجلود. وكنا سنسمع سبستيان يخبرها عن الأشياء الخارجة عن المألوف، التي سيحاول التعبير عنها في كتابه الثاني: «النجاح».

ذات يوم من صيف ١٩٢٦، أحس بأن عقله المتعب قد جف جراء معركة خاضها مع فصل متمرد جداً، وفكر في حاجته إلى قضاء إجازة شهر في الخارج. قالت كلير التي كان عليها قضاء أمر في لندن إنها ستنضم إليه بعد أسبوع أو أسبوعين. عندما التحقت به في

المنتجع البحري الألماني، الذي كان سبستيان قد اختاره، تلقت ما هو غير متوقع، إذ أخبرها العاملون هناك أن سبستيان قد غادر إلى وجهة غير معروفة، وأنه سيعود في غضون أيام. أثار الأمر حيرة كلير، رغم أنها، كما أخبرت الآنسة برات، لم تشعر بأي قلق أو اكتئاب. يمكن لنا تخيلها، بقامتها النحيلة الطويلة، بمعطف ماكنتوش أزرق (كان الجو غائماً وغير مرحب على الإطلاق) تتجول بلا هدف على الكورنيش، على الشاطئ الرملي الخالي من الناس، باستثناء بعض الأطفال غير الخائفين، مع أعلام بثلاثة ألوان ترفرف بكآبة وكأنها تتقدم جنازة نسيم، وبحر فولاذي رمادي، يرمي بتلال زبده هنا وهناك. بعيداً من الشاطئ، كانت هنالك غابة الزان، عميقة ومظلمة، من دون وجود أي نوع آخر من الشجر باستثناء بعض اللبلاب المتعرش فوق التربة البنية المتموجة؛ وسكون بني غريب، قد وقف ينتظر بين جذوع الأشجار، الناعمة والمستقيمة: ظنت أنها قد ترى في أي لحظة عفريتاً ألمانياً يعتمر قبعة حمراء، يختلس النظر إليها من خلال الأوراق الميتة. أخرجت من حقيبتها الأغراض اللازمة لحمام الشمس، ثم استلقت فوق الرمل الأبيض الناعم، ناعمة بنهار سعيد على الرغم من كونه فاتراً. أمطرت مجدداً في صباح اليوم التالي، فبقيت في غرفتها حتى وقت الغداء، تقرأ دون(*)، الذي بقي بالنسبة لها، بعد تلك المناسبة، مرتبطاً دائماً بذكرى ذلك اليوم الرطب، الرمادي والباهت، ونحيب طفل في الممر، يريد اللعب. في تلك اللحظات، وصل سبستيان. لا شك أنه كان سعيداً لرؤيتها، ولكن شيئاً ما في سلوكه لم يكن على طبيعته. بدا عصبياً ومضطرباً، وكان يحاول تجنب نظراتها في

(*) جون دون: شاعر إنكليزي (١٥٧٢-١٦٣١). (مترجم)

وجهه. قال إنه صادف رجلاً كان يعرفه منذ زمن بعيد في روسيا، وأنهما ذهبا في سيارة الرجل؛ سمّى مكاناً على الساحل على بعد بضعة أميال.

«ولكن ما الخطب يا عزيزي؟»، سألت محدقة في وجهه المتجهم.

«أوه لا شيء، لا شيء»، صاح بنبرة نكدة، «لا أستطيع المكوث من دون عمل، أفتقد للكتابة»، أضاف، ثم أزاح نظره بعيداً.

«أتساءل ما إذا كنتَ تخبرني بالحقيقة»، قالت.

هز كتفيه استهجاناً، ومرر حافة باطن كفه فوق طيات القبعة التي كان يحملها في يده.

«كفاكِ»، قال. «فلنتناول الغداء ثم نعود إلى لندن.»

ولكن لم يكن هنالك قطار إلى لندن قبل المساء، وعندما صفا الجو، ذهبا في نزهة. حاول سبستيان لمرة أو مرتين أن يكون حيوياً معها، كعادته، ولكنه قد فشل بطريقة أو بأخرى، وبقي كلاهما صامتاً. بلغا غابة الزان. كانت لا تزال عابقة بذلك الغموض والتشويق الباهت، وقال سبستيان، رغم أنها لم تخبره أنها قد زارت المكان قبلاً: «يا له من بقعة هادئة ومسلية. غريب! أليس كذلك؟ يتوقع المرء أن يرى عفريتاً بين تلك الأوراق الميتة واللبلاب.»

«انظر هنا يا سبستيان!» صاحت فجأة، واضعة يديها فوق كتفيه. «أريد أن أعرف ما الذي يجري! أتكون قد توقفت عن حبي؟ أخبرني!»

«ما هذا الهراء يا حبيبتي!» قال بجدية مثالية. «ولكن... إن كان عليك أن تعرفي... كما ترين... أنا لست ماهراً في الخداع،

وحسناً... من الأفضل أن أخبرك. في الواقع، لقد شعرت بألم مفاجئ في صدري وذراعي، ففكرت أنه من الأفضل أن أذهب إلى برلين وأعرض حالتي على طبيب. لقد أمر بإدخالي المستشفى هناك، وبقائي فيها... أكان الأمر خطيراً؟؟؟ لا أرجو ذلك. ناقشنا أموراً تخص القلب وتدفق الدم والجيوب الأنفية، وبالعموم، بدا لي عجوزاً تاجراً متطلباً أكثر من كونه طبيباً. سأستشير طبيباً آخر في لندن، وأحصل على رأي ثانٍ، رغم أنني اليوم أشعر وكأني كمان...»

أفترض أن سبستيان قد عرف بالضبط المرض القلبي الذي كان يعاني منه. ماتت والدته بالعلة ذاتها، وهي نوع نادر من الذبحة الصدرية، يُطلق عليه الأطباء «مرض ليمان». ومع ذلك، يبدو أنه بعد هجوم المرض الأول، حظي سبستيان بسنة من الراحة، على الأقل، رغم أنه قد تعرض، بين الحين والآخر، لوخز غريب لحكة داخلية في ذراعه اليسرى.

عاد إلى مهمته وعمل بثبات خلال الخريف، الشتاء والربيع. تبين أن تأليف «النجاح» كان أكثر صعوبة من روايته الأولى، كما أنه قد استغرقه وقتاً أطول أيضاً، رغم أن الكتابين كانا بذات الحجم تقريباً. بضربة حظ، حظيتُ بصورة مباشرة عن النهار الذي أنهى فيه سبستيان «النجاح». وهذا ما أدين به لشخص قد التقيته في وقت لاحق - وللحق، فإن العديد من الانطباعات التي حصلت عليها وعرضتها في هذا الفصل، قد زودتني بها الآنسة برات بتصريحاتها الموثقة، وكذلك ما أطلعني عليه صديق سبستيان الآخر، رغم أن الشرارة التي أشعلت كل شيء، تعود، وبطريقة غامضة، إلى هاتيك اللمحة الوجيزة، التي سمحت برؤية كلير بيشوب تسير متثاقلة في شارع في لندن.

فُتح الباب. وها نحن نرى سبستيان متمدداً فوق أرضيه غرفة

مكتبه، فارداً ذراعيه وساقيه. ها هي كلير تجمع رزمة أنيقة من الأوراق المطبوعة فوق طاولة الكتابة. الشخص الذي دخل، قد توقف قليلاً.

«لا يا ليزلي»، قال سبستيان من موضعه فوق الأرض، «أنا لست ميتاً. لقد أنهيت بناء عالم، وقد حان الوقت الآن لراحة سبتي.»

الفصل العاشر

لم تحظ رواية «الفص الموشوري» بالتقدير الذي تستحقه إلا بعد النجاح الحقيقي الأول لسبستيان، الذي دفع دار «برونسون» لنشرها من جديد؛ ولكن حتى وقتذاك، لم تسجل عدد مبيعات كما فعلت رواية «النجاح» و«ملكية ضائعة». نسبة لكونها الرواية الأولى، فقد أظهرت، على نحو ملحوظ، قوة فرض السمة الفنية، وتحكم ذاتي عالٍ بإدارة الدفة الأدبية. وكما جرت العادة مع سبستيان، فقد اعتمد المحاكاة الساخرة كمنصة وثب نحو أعلى نقطة في العواطف الجادة. قال عنه ج. ل. كولمان إنه مهرج بأجنحة، ملاك يقلد حمامة بهلوانية، وبالنسبة لي، أرى أنها استعارة ملائمة جداً. بمهارة اعتمادها على محاكاة بعض تقنيات المهنة الأدبية، شقت «الفص الموشوري» طريقها نحو السماء. بما يشبه الكراهية المتعصبة، كان سبستيان نايت يطارد دائماً الأشياء، التي كانت سابقاً نضرة ومشرقة، ثم أصبحت بالية ومنسية، الأشياء الميتة الضائعة بين تلك الحية؛ الأشياء الميتة، المطلية والمعاد طلاؤها، التي تقلد الحياة، والتي تستمر العقول الكسولة بقبولها، دون أن تدرك الحيلة المنطلية عليها. إن الأفكار البالية قد تكون بحد ذاتها بريئة، غير ضارة، وقد يُقال إن الاستمرار في استثمار هذا وذلك النمط من المواضيع أو الأساليب المهترئة، ليس بالخطيئة الكبيرة،

إن كان يرضي ويسلي القراء. ولكن بالنسبة لسبستيان نايت، فإن أبسط التوافه، كالبناء المتبع في رواية بوليسية على سبيل المثال، قد أصبح جثة منتفخة نتنة. لم تزعجه البتة مجلات القصص المثيرة الرخيصة، إذ لم تكن الأخلاقيات السائدة لتعنيه؛ لم تكن أعمال الدرجة الثالثة أو التاسعة هي ما يثير حفيظته، بل روايات الدرجة الثانية، سهلة التداول، إذ عندئذ فقط يبدأ الزيف الأدبي، وهذا ما كان يراه، بالمعنى الفني، غير أخلاقي. ولكن «الفص الموشوري» ليست مجرد محاكاة مرحة لبناء رواية بوليسية، بل حوَتْ أيضاً تهكماً خبيثاً بكثير من الأشياء الأخرى: على سبيل المثال، سلوك أدبي معين قد لاحظه سبستيان، بقدرته الخارقة على الانتباه إلى الانحطاط السري، الذي تراه بشكل واضح في أغلب الروايات المعاصرة: ذلك الأسلوب الدارج في تجميع مجموعة متنوعة من الأشخاص ضمن مساحة محدودة (فندق، جزيرة، شارع). كما أنه في سياق الكتاب، يسلط الضوء على أنواع مختلفة من الأنماط، إضافة إلى الطريقة التي يحل بها قلم أنيق مشكلة الجمع بين الحديث المباشر، السرد والوصف، باستخدام عبارات مختلفة لـ«قال»، مستعيناً بما في القواميس من أفعال، بدءاً بـ «أشار» ووصولاً حتى «ولول». ولكن كل هذه المتعة الغامضة لم تكن، وأقول مكرراً، إلا منصة وثب الكاتب.

يقيم اثنا عشر شخصاً في بنسيون؛ تم تصوير النزل بعناية شديدة، ولكن، ومن أجل التأكيد على ملاحظة «جزيرة»، فإن باقي البلدة يظهر عرضاً كتقاطع ثانوي عبر ضباب طبيعي، وكتقاطع أولي ما بين مستلزمات مسرحية وكوابيس وكيل عقاري. إن الأسلوب غير المباشر الذي اعتمده الكاتب في الإشارة، يشبه كثيراً ما يمارسه السينمائيون لإظهار نجمة الفيلم بدور طالبة في المهجع، متميزة

الجمال إلى حد مبهر ولافت، عن كل الحشد المحيط بها من زميلات المدرسة البسيطات ذوات المظهر الواقعي.

تم العثور على أحد المقيمين، ج. آبيسون، تاجر أعمال فنية، مقتولاً في غرفته. يقوم ضابط شرطة محلي، لا يوصف منه إلا حذاؤه، بالاتصال بمحقق في لندن، طالباً منه الحضور على الفور. بسبب خليط من الحوادث المزعجة (يدهس امرأة عجوزاً بسيارته، ثم يستقل القطار الخطأ)، يستغرقه الوصول هناك وقتاً طويلاً. في تلك الأثناء، يخضع كل النزلاء لفحص دقيق، إضافة إلى عابر، نوزباغ العجوز، الذي صدف وجوده في الصالة عندما اكتُشفت الجريمة. باستثناء نوزبانغ العجوز، وهو رجل نبيل لطيف، ذو لحية بيضاء مصفرة حول الفم، وذو شغف بريء بجمع صناديق السعوط الصغيرة، كلهم كانوا موضع شك، وعلى وجه الخصوص طالب فنون جميلة، مثير للريبة: تم العثور على نصف دزينة من المناديل الملطخة بالدماء تحت سريره. بالمناسبة، لتبسيط أمور والتركيز على أخرى، لم يتم ذكر أي خادم أو عامل فندق على وجه التحديد، كما لم يُبدِ أحد انزعاجه من غيابهم. ثم، وبحركة انزلاق سريعة، يبدأ تغيير المواقع في القصة (يجب ألّا ننسى أن المحقق لا يزال في طريقه إلى الفندق، أما جثة المغدور فلا تزال فوق السجادة). يتضح تدريجياً أن جميع النزلاء يرتبط أحدهم بالآخر، بطرق مختلفة. تبين أن السيدة العجوز في الغرفة رقم ٣، هي والدة عازف الكمان في الغرفة رقم ١١. الروائي شاغل غرفة النوم الأمامية، هو في الحقيقة زوج الشابة شاغلة الغرفة الخلفية في الطابق الثالث. طالب الفنون المريب ليس إلا شقيق الأخيرة. يتضح أن الشخص المهيب ذا الوجه الأبيض المستدير، والذي هو في غاية الأدب واللطف مع الجميع، ما هو إلا الخادم الخاص بالكولونيل الفظ العجوز، الذي يكون

بدوره والد عازف الكمان. وتستمر عملية الذوبان التدريجية تلك لتكشف عن كون طالب الفنون خطيباً للمرأة السمينة الصغيرة في الغرفة رقم ٥، والتي تكون ابنة السيدة العجوز، من زواج سابق. وبعد أن تم الكشف عن أن بطل كرة المضرب الهاوي الموجود في الغرفة رقم ٦، يكون شقيق عازف الكمان، وأن الروائي عمهما، وأن السيدة في الغرفة ٣ تكون زوجة الكولونيل الفظ العجوز، يمحي المؤلف بهدوء الأرقام عن الأبواب، ويستبدل بسلاسة، ومن دون عناء، مصطلح 'البنسيون' بـ'المنزل الريفي'، بكل تضميناته الطبيعية الملحقة. وهنا تأخذ القصة منحىً جمالياً غريباً. إن فكرة الوقت، التي عولجت بطريقة تظهرها على أنها هزلية (المحقق يضيع طريقه... تتقطع به السبل ليلاً في مكان ما) بدت عند تلك المرحلة وقد تقوقعت على ذاتها لتغرق في النوم. تلمع فجأة حيوات الشخصيات، بالمعنى الإنساني والواقعي، في حين لم يعد باب غرفة السيد ج. آبيسون المختوم إلا باب مخزن منسي. حبكة جديدة، دراما جديدة، لا علاقة لها مع بداية القصة، التي وقد تم طردها من عالم الأحلام، تصارع لشق طريقها نحو نور النهار. ولكن وفي اللحظة التي سيشعر فيها القارئ بأمان كامل في جو من الواقع الممتع، والتي سيبدو فيها أن طلاوة وتألق نثر الكاتب يشيران إلى بناء متجانس وغني، عند هذه اللحظة بالذات، نسمع قرعاً مزعجاً للباب، وإذا بالمحقق يدخل. ها نحن نغرق ثانية في مستنقع من السخرية. كان المحقق، وهو رجل داهية، يتكلم بطريقة رجل جاهل، وقد قصد الكاتب أن يُظهره بتلك الغرابة الطريفة؛ إنها ليست بمحاكاة ساخرة لقصص شيرلوك هولمز الشعبية، بل لموجة الانقلاب عليها، في زمن كتابة الرواية. خضع النزلاء للاستجواب مرة أخرى. خُمنت أدلة جديدة. طاف العجوز اللطيف نوزباغ خلال الصالة،

شارد الذهن، دون أن يزعج أحداً. كان قد مر هنا ليرى ما إذا كانت هناك غرفة شاغرة، كما شرح. يتولد انطباع لدى القارئ أن الكاتب عند تلك النقطة سيبدأ باستغلال وتنفيذ الخدعة القديمة القائمة على جعل الشخصية التي تبدو الأكثر براءة تتحول إلى شخصية الوغد الرئيسي. يهتم رجل المباحث فجأة بصناديق السعوط. «يا للروعة!» قال، «ألدينا من يتحدث عن الفنون هنا؟» يدخل فجأة الشرطي بوجه أحمر يكاد ينفجر، ويعلن أن الجثة قد اختفت. المحقق: «وماذا تعني بـ'اختفت'؟» الشرطي: «اختفت يا سيدي، والغرفة فارغة.» عم للحظة صمت مشوق وسخيف. «أعتقد»، قال العجوز نوزباغ بهدوء، «أن هذا أمر يمكنني تفسيره.» ببطء، وبحذر، نزع لحيته، الوصلة الرمادية المستعارة، نظارته السوداء السميكة، ليكشف عن وجه ج. آبيسون. «كما ترون»، قال السيد آبيسون بابتسامة تواضع، «لا يحب أحدنا أن يكون مقتولاً». مكتبة سُر مَن قرأ

لقد بذلت أقصى ما أمكنني لعرض مجريات تلك الرواية، أو على الأقل، بعض مجرياتها. فقط إن قرأتها بنفسك، ستلمس ما فيها من سحر ودعابة وعواطف. ولكن، فقط من أجل تنوير أولئك الذين أربكتهم عادته في إجراء التحولات، أو ربما شعروا بالاشمئزاز إذ لم يجدوا ما يتفق مع مفهوم «كتاب جميل» في رواية كتبت لتكون جديدة في كل ما فيها، لهم فقط، أود الإشارة إلى أنه لا يمكن الاستمتاع بـ«الفص الموشوري»، إلا عند فهمنا أن أبطال هذه الرواية هم ما يمكننا أن نسمّيهم بكل بساطة «مناهج التأليف». يبدو الأمر كما لو أن رساماً قد قال: «انظروا! ما سأريكم هنا ليس رسماً لمنظر طبيعي، بل رسم طرق عديدة لرسم منظر طبيعي معين، وأنا واثق من أن انصهارها المتناغم سيكشف عن المنظر الطبيعي، الذي أردت لكم أن تروه». في الكتاب الأول، أوصلت تلك النتيجة سبستيان إلى

نتيجة منطقية ومرضية. عند وضعه الكثير من الطرق والأساليب الأدبية تحت اختبار العبثية ذاك، تخلص من كثير منها، أسلوباً تلو الآخر، ليستنبط أسلوبه الخاص ويستخدمه على أكمل وجه في كتابه التالي، «النجاح». يبدو هنا وقد انتقل من طائرة إلى أخرى، مرتقياً نحو ارتفاع أعلى، لأنه، إن كانت روايته الأولى مبنية على مناهج التأليف الأدبي، فإن الثانية قد تعاملت بشكل رئيسي مع أساليب قدرية. مع الدقة العلمية التي اعتمدها في تصنيف فحص ورفض كمية هائلة من البيانات (التراكم الذي قد يكون ناتجاً عن الفرضية الأساسية القائلة إن المؤلف قادر على اكتشاف كل ما يحتاج إلى معرفته عن شخصياته، وإن هذه القدرة مقتصرة فقط على طريقة وهدف اختياراته، بقدر ما لا ينبغي لها أن تكون خلطاً فوضوياً بين تفاصيل عديمة القيمة، بل بحث محدد ومنهجي)، كرس سبستيان نايت ثلاثمئة صفحة من «النجاح»، لواحد من أكثر الأبحاث تعقيداً، التي قام بها كاتب يوماً. تدور القصة حول تاجر رحال، السيد ك.، الذي، عند مرحلة من حياته، وتحت ظرف معين، يلتقي بفتاة، مساعدة محضر أرواح، ويلتقي معها بالسعادة التي سترافقهما منذ ذلك الحين. يحصل اللقاء مصادفة، أو يبدو كذلك: يركب كل منهما ذات السيارة التي تعود لرجل غريب ولكن لطيف، في حين كانت باصات النقل مضربة عن العمل. إليكم الصيغة: نسبة لحدث واقعي، يبدو الأمر عديم الأهمية وغير مثير للانتباه أبداً، ولكن إن نظرنا إليه من زاوية خاصة، فإنه يصبح مصدر إثارة ومتعة ذهنية مميزة. تتمثل مهمة الكاتب في اكتشاف الإحداثيات التي توصل إلى تلك الصيغة؛ كما عليه استجماع كل سحر وقوة فنه بغرض كشف النقاب عن كيفية جعل خطين من الحياة يتقاطعان؛ في الواقع، إن الكتاب بأكمله رهان رائع على السببية والنتيجة، أو على التحقيق في اللغز المسبب

للأحداث العشوائية. تبدو الاحتمالات غير محدودة. بدرجات متفاوتة من النجاح، يمكننا اتباع عدة خطوط واضحة للبحث. بالعودة إلى الماضي، يكتشف الكاتب سبب الإضراب في ذلك اليوم المحدد، وولع سياسي معين برقم تسعة، طوال حياته، الأمر الذي تبين أنه أصل العلة في الأساس. ولكن هذا الخط لا يؤدي إلى مكان، ثم يتحول عنه الكاتب نهائياً (ليس قبل أن تتاح لنا الفرصة لنشهد مناظرة ساخنة بين أعضاء الحزب). أثر إشكالي آخر: سيارة الرجل الغريب. نحاول اكتشاف من هو وما الذي تسبب بمروره في لحظة معينة، في شارع معين؛ ولكن بمجرد معرفتنا أنه كان يسلك طريقه نحو مكتبه، وهذا ما يفعله في كل أيام الأسبوع، في الوقت ذاته، وعلى مدار سنوات حياته الأخيرة، عندئذ فقط، نشعر أن الكاتب قد تغلب علينا بذكائه. وبذلك نجد أنفسنا مرغمين على الافتراض بأن الظروف الخارجية لذلك اللقاء ليست عينات من الأنشطة المصيرية المتعلقة بشخصين، وإنما هي كيان معين، نقطة ثابتة، لا قيمة سببية لها، نعود معها، بوعي واضح، إلى المشكلة المطروحة: لمَ، من بين كل الناس، قد كُتب للسيد ك. والشابة آنا، أن يصلا إلى هاتيك البقعة المحددة، ويقفا للحظات فوق الرصيف جنباً إلى جنب؟ لذا يتبع الكاتب خط مصير الفتاة باتجاه عكسي نحو ماضيها، ثم نحو ماضي الرجل، يقارن البيانات، ثم، ومن جديد، يعود لتتبع حياتهما، كل على حدة. يطلعنا على عدد من الأمور الغريبة. يتبين أن الخطين اللذين تقاطعا في نهاية الأمر عند نقطة اللقاء، ليسا بالخطين المستقيمين لمثلث ينفرج بشكل مطرد باتجاه قاعدة غير معروفة، بل خطوط متعرجة، تكون أحياناً بعيدة جداً بعضها عن بعض، ثم تكاد تتلامس في أحيان أخرى. بعبارة أخرى، كانت هنالك مناسبتان على الأقل في حياة كل من الشخصيتين، حين

التقيا دون أن تكون لأحدهما معرفة بالآخر. يبدو أن القدر، في كل حالة، قد أعدّ لمثل هذا اللقاء بكثير من العناية؛ مجرياً تعديلاته على الاحتمالية الأولى، ثم الثانية؛ مخفياً المخارج ومشوهاً إشارات الإرشاد؛ محكماً قبضته على فتحة الشبكة التي كانت الفراشات ترفرف داخلها؛ منظماً كل التفاصيل دون أن يفسح مجالاً للصدف. إن الكشف عن تلك التحضيرات السرية لأمر رائع، ويبدو أنه كان للكاتب عيون آرغوس(*)، التي مكنته من أن يأخذ بالحسبان كل ألوان المكان والظرف. ولكن في كل مرة، يأتي خطأ صغير (ظل عيب طفيف، فجوة مسدودة لإمكانية غير متوقعة، نزوة إرادة الحرة) ليفسد متعة القطعية، ونرى الحياتين مرة أخرى تتباعدان، بسرعة متزايدة. وهكذا، وبسبب نحلة قد لدغت شفته، في اللحظة الأخيرة، يُحرم بيرسيفال ك. من الذهاب إلى الحفلة، التي قد تمكن القدر، وبعد صعوبات لا تنتهي، من جلب آنا إليها؛ آنا التي، وبسبب خدعة في اتجاه سيرورة الأحداث، قد خسرت وظيفة قد تم إعدادها بعناية في مكتب الممتلكات المفقودة، الذي يعمل فيه شقيق ك.

ولكن لا يمكن للفشل أن يثبط مثابرة القدر. وعندما نجح في النهاية، فإنما قد فعل من خلال مكائد دقيقة لم نسمع لها أدنى حسّ عندما التقى الاثنان. لا يجدر الخوض أكثر في تفاصيل تلك الرواية الذكية والممتعة. إنها أشهر أعمال سبستيان نايت، على الرغم من أن الكتب الثلاثة اللاحقة قد تفوقت عليها من عدّة نواحٍ. وكما خلال استعراضي لـ «الفصّ الموشوري»، فإن هدفي الوحيد هو إظهار النقاط الحيوية؛ ربما قد يضر ذلك بالانطباعات الجمالية التي خلّفها

(*) آرغوس: ذُكر في الميثولوجيا الإغريقية على أنه عملاق ذو عيون كثيرة تنتشر في رأسه وسائر جسده، قيل إنها ١٠٠ عين. (مترجم)

الكتاب ذاته، ناهيكم عن براعة الأسلوب الفني. إنه يحوي، ودعوني أضيف، فقرة مرتبطة على نحو غريب بحياة سبستيان الحميمة، في حقبة إنهائه للفصول الأخيرة، الفقرة التي تستحق أن تُقتبس بعد تلك السلسلة من الملاحظات التي تشير إلى طريقة تفكير الكاتب أكثر منها إلى الجانب العاطفي من فنه.

«كالعادة، أوصلها ويليام [خطيب آنا الأول، غريب الأطوار والمخنث، والذي تخلى عنها لاحقاً] حتى منزلها، واحتضنها للحظات في عتمة البوابة. شعرت فجأة بوجهه مبللاً. غطّاه بيديه ثم بحث عن منديله في جيبه. 'مطر الجنة'، قال... 'بصل السعادة... المسكين ويلي هو صفصافة باكية'. قبّلها فوق زاوية فمها، ثم فجر عصارة أنفه الرطبة. 'الرجال الناضجون لا يبكون'، قالت آنا. 'ولكني لست بناضج'، أجاب ناشجاً. 'هذا القمر طفولي، وهذا الرصيف المبلل طفولي، وما الحب إلا رضيع يقتات على العسل...'، 'توقف أرجوك!' قالت. 'تعرف أنني أكره سماعك تتحدث بهذه الطريقة، إنها سخيفة جداً...»، 'سخيفة جداً!' قال متنهداً. قبّلها مرة أخرى، ثم وقفا كتمثالين ناعمين داكنين برأسين لا يكادان يبينان. مر شرطي يجر الليل من أصفاده، ثم توقف عند عمود الصندوق البريدي، ليتنشق سعوطاً. 'أنا أيضاً سعيدة مثلك'، قالت، 'ولكني لا أريد البكاء أبداً أو التفوه بالترهات'. 'ولكن ألا ترين'، قال هامساً، 'ألا ترين أن السعادة، في أفضل أحوالها، ما هي إلا قناع زائف لمصيرها الزائل'. 'تصبح على خير'، قالت آنا. 'غداً عند الثامنة'، صاح بينما استدار مبتعداً. صفق الباب برفق، ثم راح يتجول في الشارع. إنها دافئة وجميلة، قال في نفسه، وأنا أحبها، ولكن كل هذا غير مُجدٍ، غير مُجدٍ، لأننا نموت بالفعل. لا أستطيع احتمال فكرة العودة إلى الماضي. لقد كانت القبلة الأخيرة ميتة،

باردة، وإن 'المرأة في اللباس الأبيض' [عنوان فيلم شاهداه في الأمسية ذاتها] لميتة كالحجر، والشرطي الذي مر أيضاً ميت، وحتى الباب لا يقل موتاً عن ظفرها. والفكرة الأخيرة التي مرت في خاطري، قد أصبحت في هذه اللحظة شيئاً ميتاً. كان كواتس [الطبيب] محقاً حين قال إن قلبي صغير جداً نسبة لحجمي. استمر في التنهد والتجول والتحدث إلى نفسه، وكان ظله تارة يظهر كظل لرجل طويل الأنف، وأخرى كظل لرجل منحنٍ، بينما كان يدور حول عمود النور. عندما وصل إلى مسكنه الكئيب، كان قد استغرق وقتاً طويلاً في تسلق الدرجات. قبل الخلود إلى سريره، قرع باب غرفة محضر الأرواح ووجد الرجل العجوز واقفاً بسرواله الداخلي، يبحث عن بنطاله الأسود. 'ماذا إذاً؟' قال ويليام، 'لا يبدو أن الأرواح تحب لكنتي'، أجاب الرجل، 'ولكني أعتقد أني سأعيد المحاولة'. جلس ويليام فوق السرير وقال: 'عليك أن تصبغ شعرك'. 'أنا أصلع أكثر مني أشيب'، قال المشعوذ. 'أتساءل أحياناً'، قال ويليام 'أين تذهب الأشياء التي نخسرها - إذ إنها لا بد تذهب إلى مكان ما -، شعرنا الذي يسقط، أظافرنا...'، 'جعة ثانية؟' اقترح المشعوذ من دون كثير من الإلحاح. طوى بنطاله بعناية وطلب من ويليام إخلاء السرير، ليضعه تحت الفراش. جلس ويليام فوق كرسي، واستأنف المشعوذ عمله؛ كان الشعر فوق ربلتيه منتصباً، فمه مزموماً، أما يداه فكانتا تتحركان بنعومة. 'أنا سعيد'، قال ويليام. 'لا يبدو عليك ذلك'، قال العجوز الرصين. 'أأشتري لك أرنباً؟' سأل ويليام. 'سأستجر واحداً عند الضرورة'، أجاب المشعوذ، ماداً الكلمة الأخيرة كما لو كانت شريطاً لا نهاية له. 'مهنة سخيفة'، قال ويليام، 'السارق كالمجنون، لا يختلفان إلا في اللغة التي يستخدمها كل منهما، والقروش في قبعة المتسول كتلك العجة

فوق قبعتك. السخافة ذاتها'. 'لقد اعتدنا تلقّي الإهانات'، قال المشعوذ. أطفأ مصباحه بهدوء، وتلمّس ويليام طريقه للخروج. بدت الكتب فوق سريره في الغرفة تواقة لتتحرك من مكانها. ما إن خلع ملابسه، حتى تخيل السعادة المحرمة لغسيل منشور تحت أشعة الشمس: ماء أزرق ومعاصم قرمزية. أيرجو آنا لتغسل قميصه؟ أيزعجها بذلك مرة أخرى؟ أتراها تعتقد حقاً أنهما سيتزوجان يوماً ما؟ نمشاتها القليلة الباهتة فوق بشرتها الزاهية تحت عينيها الصافيتين. سنها الأمامي خفيف النتوء. عنقها الناعم الدافئ. أحس بضغط الدموع فوق وجنتيه مرة أخرى. أيكون لها ذات مصير ماي، جودي، جولييت وأوغستا، وكل جمرات حبه التي أصبحت رماداً؟ سمع الراقصة القاطنة في الغرفة المجاورة تقفل بابها، تستحم، توقع الجرة أرضاً وتسعل سعالاً خفيفاً. سقط شيء ما محدثاً رنيناً. بدأ المشعوذ بالشخير.»

الفصل الحادي عشر

أراني أقترب بسرعة من النقطة المفصلية في حياة سبستيان نايت العاطفية، وكلما شعرت أني أنجزت ما أنجزت تحت الضوء الباهت للمهمة التي لا تزال تقع على عاتقي، فإني أشعر بسقم استثنائي الإزعاج. أتساءل ما إذا كنت حقاً قد أعطيت، حتى الآن، فكرة دقيقة عن حياة سبستيان، كما كنت آمل، وكما آمل أن أفعل الآن، في تطرقي إلى مراحلها الأخيرة. إن الصراع الممل مع مصطلحات أجنبية، والافتقار التام للخبرة الأدبية، لا تمنح المرء ثقة مفرطة. ولكن ورغم أنني قد لا أكون قد أتممت مهمتي في الفصول السابقة على أتم وجه، فإنني ما أزال عاقد العزم على المثابرة، متكلاً على معرفتي الضمنية والسرية، بأن شبح سبستيان، بطريقة أو بأخرى، سيكون متعاوناً بما يكفي.

لقد تلقيت مساعدة أكثر تجريدية. إنها من الشاعر ب. ج. شيلدون، الذي كان قد التقى كثيراً بكلير وسبستيان بين عامي ١٩٢٧ و١٩٣٠، والذي، عند اتصالي به بعد نصف لقائي الغريب بكلير، قد أبدى استعداداً لإخباري بكل ما يعرفه. وقد كان هو أيضاً من أنبأني، بعد مرور شهرين تقريباً (أي بعد بدئي الفعلي بالكتاب) بموت كلير المسكينة. كانت قد بدت لي بهيئة شابة طبيعية، وبصحة جيدة، كيف أمكن لذلك أن يحدث؟ أن تنزف حتى الموت بجوار مهد فارغ؟ لقد

أخبرني بمدى سعادتها حين ارتقت رواية «النجاح» لما وعد به عنوانها. لقد كان نجاحاً حقيقياً هذه المرة. ما السبب في ذلك؟ ما السبب الكامن وراء فشل كتاب ممتاز، في حين ينجح آخر، بنفس الجودة والمعايير، بتحقيق ما لم يحققه الأول؟ سيبقى الجواب لغزاً أبدياً. كما كانت الحال، أيضاً، في روايته الأولى، فإن سبستيان في «النجاح»، لم يحرك إصبعاً، ولم ينقر وتراً، ليجعلها تحظى بالإشادة والتهليل. عندما بدأت وكالة للرقابة الصحافية باقتباس كتاباته والإثناء عليها، لم يلق بالاً لقراءة وتجميع قصاصات المقالات المكتوبة، كما لم يوجه الشكر لأحد. الإعراب عن الامتنان لناقد يقوم بواجبه لا أكثر حينما يعبّر عن رأيه في كتاب ما، لم يكن بالنسبة لسبستيان أمراً غير لائق فحسب، بل رأى فيه أيضاً إهانة للجانب الإنساني في الصرامة المطلوبة عند إصدار أحكام غير متحيزة. وعلاوة على ذلك، كان يعرف أنه ما إن يفعلها مرة، حتى يصير مجبراً على الاستمرار والاستمرار في متابعة كل المقالات وتقديم الشكر لكل ما سيأتي لاحقاً، خوفاً من أن يجرح أحداً بسهو ما؛ وفي النهاية، فإن مثل ذلك الدفء المشوّش والرطب سيتطور (على الرغم من وجود بعض النقاد المشهود لهم بصدقهم) إلى مرحلة يجد معها الكاتب الممتن أنه لم يعد متأكداً تماماً ما إذا كان هنالك أثر لتعاطف شخصي.

من الشائع جداً في أيامنا هذه، أن يختلط الأمر ما بين الشهرة والوهج المستمر لعمل جدير بالقراءة. ولكن أياً كان معنى الشهرة، فقد صممت كلير على التباهي بها. لقد رغبت في رؤية الراغبين في رؤية سبستيان، الذي لم يرغب على الإطلاق في رؤية أيٍّ منهم. أرادت أن تسمع الغرباء متحدثين عن نجاح «النجاح»، الكتاب الذي قال سبستيان إنه لم يعد مهتماً به بشكل خاص. أرادت لسبستيان الانضمام إلى نادٍ أدبي، والاختلاط مع كتّاب آخرين. ولكن لمرة أو

لمرتين فقط، ارتدى سبستيان قميصاً منشّى، ثم خلعه، دون أن ينطق ولو بكلمة واحدة أثناء عشاء أقيم تكريماً له. لم يكن يشعر أنه على ما يرام، كما كان نومه سيئاً. اجتاحته نوبات مزاج مريعة - وكان ذلك جديداً على كلير. بعد ظهر أحد الأيام، وبينما كان يعمل على «الجبل المضحك»، في غرفة مكتبه، محاولاً اتباع مسار وعر وزلق بين الصخور المسننة لآلام صداعه النصفي، دخت كلير وسألته، بألطف طبقة في صوتها، إن كان لا يمانع باستقبال زائر.

«بل أمانع!» أجاب، مكشراً عن أسنانه، مستمراً في الكتابة.

«ولكنك طلبت منه الحضور عند الخامسة، وقد...»

«حسناً، لقد نجحتِ في ذلك»، هتف سبستيان، ثم رمى قلم الحبر إلى الحائط الأبيض المصدوم. «لا يمكنك تركي لأعمل بسلام»، وتصاعد صوته سامحاً لكريشيندو صياحه الوصول إلى مسامع بـ. جـ. شيلدون الذي كان جالساً في الغرفة المجاورة يلعب الشطرنج مع كلير، فما كان منه إلا أن خرج وأغلق الباب المؤدي إلى الردهة، التي كان ينتظره فيها رجل صغير الحجم ووديع.

كانت نوبات أخرى من مزاج الدعابة الفظة، لتسيطر عليه بين الحين والآخر. ذات مرة، بعد ظهر أحد الأيام، وكان برفقة كلير وبعض الأصدقاء، ابتكر نكتة عملية جميلة، يقصد بها شخصاً كانوا سيذهبون للقائه بعد العشاء. نسي شيلدون ما كانت عليه بالضبط تلك المكيدة. ضحك سبستيان، استدار على كعبيه، ضارباً قبضتيه بعضهما ببعض، الحركة التي يقوم بها عادة عندما يكون سعيداً ومستمتعاً. كانوا جميعاً على وشك الانطلاق بحماس شديد، طلبت كلير سيارة أجرة، انتعلت حذاءها الفضي اللماع، وتناولت حقيبة يدها، وإذ بسبستيان يفقد اهتمامه فجأة بإكمال المشروع. بدا ضجراً وبدأ بالتثاؤب دون أن يفتح فمه، وبطريقة مزعجة جداً؛ ثم قال إنه

سيأخذ الكلب في جولة وسيعود للنوم فوراً. كان لديه في تلك الفترة كلب بولدوغ أسود صغير؛ سقط في النهاية مريضاً وكان لا بد من حقنه بما ينهي ألمه وحياته.

تم الانتهاء من «الجبل المضحك»، ثم «ألبينوس باللون الأسود»، ثم قصته القصيرة الثالثة والأخيرة، «الوجه الآخر للقمر». أتذكرون هاتيك الشخصية فيها، ذلك الرجل الصغير الوديع، الذي، وبينما كان ينتظر القطار، ساعد ثلاثة مسافرين بائسين، وبطرق مختلفة؟ بين كل الشخصيات التي خلقها سبستيان في رواياته، قد يكون السيد سيلر هذا أكثر من بقي حياً في الأذهان، كما أنه سيكون الممثل النهائي لـ«موضوع البحث»، الذي تناولت فيه، قبلاً، «الفصّ الموشوري» و«النجاح». يبدو الأمر كما لو أن فكرة معينة كانت تنمو اطرادياً خلال كتابين، لتتجسد في وجود مادي وحقيقي للسيد سيلر، الذي يصلنا، على نحو فردي شديد الوضوح، بكامل تفاصيل عاداته وتصرفاته: حاجباه الكثيفان وشاربه المتواضع، ياقته اللينة و وتفاحة آدم المنتفخة في عنقه، التي كانت تتحرك كـ«مسترق سمع من وراء ستار»، عيناه البنيتان، عروق بلون النبيذ فوق أنفه الكبير القوي، «الذي يدفعك شكله للتساؤل ما إذا كان قد نسي سنمه في مكان ما»؛ ربطة عنقه السوداء الصغيرة مع مظلته العتيقة (بطة في حداد عميق)؛ الأجمات الداكنة في فتحتي أنفه؛ المفاجأة الجميلة للمعة مثالية عند رفعه لقبعته. ولكن، كلما ازدادت كتابة سبستيان جودة، ازدادت صحته سوءاً، وخاصة في فترات الاستراحات الفاصلة. يعتقد شيلدون أن عالم كتابه الأخير، «البروق المريب»، الذي كتبه بعد سنوات لاحقة، كان قد بدأ بإلقاء ظلاله على كل الأشياء المحيطة به، وأن رواياته وقصصه لم تكن إلا أقنعة مبهرجة، فخاخاً خبيثة، تحت ذريعة المغامرة الفنية، التي قادته، من دون إبطاء، نحو ما لم يمكن تجنبه.

كان يُفترض أنه شديد الولع بكلير، كما كان دائماً، ولكن شعوره بدنو الأجل، الذي لم يتمكن من التغاضي عنه، كان قد بدأ بالاستحواذ عليه، جاعلاً علاقته بها تبدو أكثر هشاشة مما ربما كانت عليه. أما من جهة كلير، فقد كانت، بحسن نيتها وبراءتها غير المقصودتين، تنعم في ركن مريح ومشمس من حياة سبستيان، الركن الذي، سبستيان ذاته، لم يبق عنده؛ وجدت نفسها متروكة هناك، دون أن تدري ما إذا كان عليها اللحاق به أو انتظار عودته. كانت دائمة الانشغال، وبسعادة، برعاية شؤون سبستيان الأدبية، وبالإبقاء على حياته مرتبة بشكل عام، وكانت عندما تشعر متأكدة بوجود خلل ما، أو بخطر يهدد بابتعادها عن وجوده الخيالي، فإنها كانت تعزي نفسها بافتراضه مجرد غيمة عابرة، وأن «كل شيء سيستقر لاحقاً لا محالة، رويداً رويداً».

من المؤكد أني لا أستطيع التطرق إلى الجانب الحميمي من علاقتهما؛ أولاً، لأنه من السخف مناقشة ما لا يستطيع أحد تأكيده بدقة، وثانياً، لأن لفظ كلمة «جنس»، مع هذا الهسيس المبتذل لصوت «السين» في آخر الكلمة، والذي يبدو كنداء القطط، يبدو تافهاً جداً بالنسبة لي، لدرجة أني لا أستطيع منع نفسي من الريبة في الفكرة الحقيقية الكامنة وراء هذه التسمية؛ حقاً، أعتقد أن منح الكلمة لوضع معين، وخاصة عند الحديث عن مشكلة بشرية، أو ما هو أسوأ، السماح لفكرة الجنسانية - إن كان هنالك حقاً ما يسمى بذلك - أن تغزو وتفسر كل شيء، لهو خطأ منطقي فادح. «إن تكسر موجة فوق الشاطئ لا يمكن أن يفسر البحر كله، من قمره إلى ثعبانه؛ ولكن البركة في جوف صخرة، والألماس المنعكس فوق مويجات الطريق المؤدي إلى كاثاي(*)، كلاهما ماء»، من كتاب «الوجه الآخر للقمر».

(*) كاثاي: الاسم الذي أطلقه الأوروبيون في العصور الوسطى على الصين. (مترجم)

«ليس الحب الجسدي إلا طريقة أخرى للتعبير عن الشيء ذاته، وليس نغمة جنسية خاصة، التي ما إن تسمعها مرة حتى يبقى صداها يتردد في كل بقعة من الروح»، (ملكية ضائعة، الصفحة ٨٢)، «لكل الأشياء الترتيب ذاته، ولذلك فإن هناك وحدانية الإدراك البشري، وحدانية الفردانية، وحدانية المادة، أياً كانت؛ الرقم الوحيد الحقيقي هو واحد، وكل ما تبقى هو مجرد تكرار»، (الرواية ذاتها، الصفحة ٨٣). حتى لو أنني عرفت، ومن مصدر موثوق، أن كلير لم ترق إلى مستوى معايير ممارسة الحب لدى سبستيان، فإنني سأستمر في رفضي لاعتبار ذلك الاستياء سبباً لانفعالاته المهتاجة، ولعصبيته. ولكن، وباعتباره لم يكن راضياً عن شيء بشكل عام، فربما قد يكون أيضاً غير راض عن لون قصة حبه. ولاحظوا أني لا أستعمل كلمة «عدم الرضى» عبثاً، إذ إن مزاج سبستيان خلال تلك الفترة من حياته، كان أكثر تعقيداً من مزاج مريض اكتئاب شديد، أو زنجي نائح في أغنية بلووز. لا يمكن فهمه إلا من خلال كتابه الأخير، «البروق المريب». كان هذا الكتاب آنذاك مجرد ضباب بعيد. أما الآن فقد أصبح الخط الواضح للشاطئ. عام ١٩٢٩، قام الطبيب أواتس، اختصاصي أمراض قلبية شهير، بنصح سبستيان بقضاء شهر في بلاوبيرغ، في الألزاس، حيث تم العثور على علاج معين، قد أثبت أنه ناجع في حالات مماثلة. يبدو أنه قد تم الاتفاق ضمنياً على ذهابه وحده. قبل رحيله، كانت الآنسة برات، شيلدون، كلير وسبستيان يتناولون الشاي سوية في شقته؛ كان مبتهجاً وثرثاراً، وكان يحاول إغاظة كلير لأنها أسقطت منديلها المجعد بين أغراضه التي كانت توضبها في حضوره المفرط في تطلبه. ثم هرع للإمساك بمعصم شيلدون (لم يضع سبستيان يوماً ساعة في يده)، نظر إلى الوقت، وبدأ فجأة بالاستعجال، رغم أنه كان لا يزال أمامه ساعة

قبل موعد الانطلاق. لم تقترح كلير مرافقته نحو القطار - تعرف أنه كان يمقت ذلك. قبّلها على خدها، ثم ساعده شيلدون بحمل حقائبه (أسبق أن ذكرت أنه باستثناء مدبرة منزله غريبة الأطوار، والندل الذين كانوا يحضرون له الوجبات في المطاعم، لم يكن لسبستيان أي خادم؟). عندما غادر، جلس الثلاثة صامتين لفترة وجيزة. ثم فجأة، وضعت كلير إبريق الشاي من يدها ثم قالت:

«أعتقد أن منديلي قد رغب في الذهاب معه، وإني لأجدها إشارة عليَّ إطاعتها.»

«لا تكوني سخيفة!» قال شيلدون.

«ولم لا؟» سألته.

«إن كنت تعنين أنك تريدين اللحاق بالقطار ذاته...» تدخلت الآنسة برات.

«لم لا؟» كررت كلير. «أمامي أربعون دقيقة للقيام بالأمر. سأتحرك في الحال، أوضب غرضاً أو اثنين، ثم أقفز إلى سيارة أجرة...»

وقد فعلت. لم نعرف ما الذي حصل في محطة فيكتوريا، ولكنها بعد ساعة أو ربما أكثر، اتصلت بشيلدون الذي كان قد عاد إلى منزله، وأخبرته بضحكة ضئيلة، مثيرة للشفقة، أن سبستيان لم يقبل حتى ببقائها فوق رصيف المحطة، حتى لحظة انطلاق القطار. لدي تمثيل واضح لما حدث هناك: وصلت المحطة مع حقيبتها، مع شفتيها الجاهزتين لإرسال ابتسامة هزلية، مع عينيها الكئيبتين تحدقان عبر زجاج نوافذ المقطورات، بحثاً عنه، ثم وجدته، أو ربما كان هو من رآها أولاً... «مرحباً، أنا هنا»، لا بد أنها قالتها بزهو، وربما أكثر مما يجب... راسلها بعد بضعة أيام، ليخبرها أن المكان مريح

جداً وأنه يشعر بتحسن ملحوظ. ثم عمّت فترة صمت. فقط عندما أبرقت كلير برسالة تعرب فيها عن قلقها، وصلتها بطاقة تحوي معلومات مفادها أنه قد اختصر إقامته في بلاوبيرغ، وسيمضي أسبوعاً في باريس، قبل أن يعود إلى المنزل. مع اقتراب نهاية ذلك الأسبوع، اتصل بي هاتفياً وتناولنا العشاء سوية في مطعم روسي. كنت قد رأيته للمرة الأخيرة خلال عام ١٩٢٤، وكان لقاؤنا هذا عام ١٩٢٩. بدا منهكاً ومريضاً، كما بدا، وبسبب شحوبه، غير حليق، رغم أنه أخبرني أنه كان قد خرج من صالون الحلاقة لتوّه. كانت هنالك دملة فوق قفا عنقه، مغطاة بضماد وردي اللون. بعد أن طرح بعض الأسئلة عن حالي، بذل كل منا جهداً لمواصلة المحادثة. سألته عن الفتاة اللطيفة التي رأيتها خلال لقائنا السابق. «أي فتاة؟» أجاب. «أوه، تقصد كلير. أجل، إنها بخير. نحن شبه متزوجين.»

«تبدو متوعكاً قليلاً»، قلت.

«آخر همي. أتريد تناول الـ 'بيلميني'(*)؟»

«من كان يتوقع أنك ما زلت تذكر مذاقها!» قلت.

«ولمَ لا أفعل؟» أجاب باقتضاب.

أكلنا في جو من الصمت الذي ساد لبضع دقائق. ثم تناولنا القهوة.

«ما كان اسم المكان الذي ذكرته؟ بلاوبيرغ؟»

«أجل، بلاوبيرغ.»

«وهل هو جميل؟»

«يعتمد على مفهومك للجمال»، قال، بينما كانت عضلات

(*) بيلميني: طبق روسي. (مترجم)

وجهه تتجهز للتثاؤب. «آسف»، قال، «آمل أن أحظى بقسط من النوم في القطار.»

حدّق فجأة بمعصمي.

«الثامنة والنصف»، أجبته.

«عليَّ أن أجري اتصالاً»، تمتم ثم عبر صالة الطعام مع منديل في يده. عاد بعد خمس دقائق وقد حشر نصف المنديل في جيب معطفه. قمت بسحبه.

«اسمع!» قال، «أنا آسف جداً ولكن عليَّ الذهاب. لقد نسيت أن لدي موعداً.»

«لطالما أزعجني»، كتب سبستيان في 'ملكية ضائعة'، «أن الناس في المطاعم لا يعيرون أدنى اهتمام للألغاز المتحركة التي تجلب لهم أطباقهم ومعاطفهم، وتفتح الأبواب لهم. ذات مرة، لفتُّ نظر رجل أعمال كنت قد تناولت معه الغداء قبل بضعة أسابيع، إلى أن المرأة التي جلبت لنا قبعاتنا، كانت تضع قطناً في أذنيها. بدا مرتبكاً وأجابني أنه لم ينتبه في الدرجة الأولى إلى وجود امرأة... إن الشخص الذي لا ينتبه إلى سائق سيارة الأجرة حين يكز على أسنانه عندما يكون في عجلة من أمره، هو كائن مهووس بذاته فقط. حين أكون الوحيد بين حشد، القادر على الانتباه لمرور طفلة سمراء نحيلة، لها عرجة طفيفة جداً، أشعر بأنني جالس بين قوم عميان أو مجانين.»

عندما غادرنا المطعم، واتجهنا نحو موقف سيارات الأجرة، اقترب منا رجل عجوز بعينين رطبتين، بلل إبهامَه بِريقه، ثم عرض على سبستيان، أو عليَّ، أو ربما على كلينا، واحدة من مجلات الإعلانات المطبوعة التي كان يقوم بتوزيعها. لم يأخذها أي منا، نظرنا مباشرة إلى الأمام، بوجهين متجهمين، متجاهلين العرض

المقدم. «حسناً، إلى اللقاء»، قلت لسبستيان في حين أومأ هو إلى سائق.

«تعال لزيارتي يوماً في لندن»، قال، ثم ألقى نظرة فوق كتفه. «انتظر لحظة!» أضاف، «ما كان يجب فعل ذلك. لقد صددت فقيراً معدماً...». تركني وعاد في أعقابه، ثم عاد بعد لحظات والمجلة في يده. قرأها بتمعن قبل أن يرميها بعيداً.

«أتريد توصيلة؟» سألني.

شعرت أنه كان متحرقاً للتخلص مني.

«لا شكراً»، قلت. لم ألتقط جيداً اسم العنوان الذي أعطاه للسائق، ولكني أذكر تماماً كيف أمره بالإسراع.

عندما عاد إلى لندن... لا، إن خيط القصة ينقطع ويجب أن أسأل الآخرين وصله مجدداً. أتراها كلير قد لاحظت من فورها حدوث أمر ما؟ هل اشتبهت فيما قد يكون ذلك الأمر؟ أيمكن لنا تخمين الأسئلة التي طرحتها على سبستيان؟ وبما أجابها؟ وماذا قالت عندها؟ لا أعتقد أننا سنفعل... لقد رآهما شيلدون بعد وقت قليل من عودة سبستيان ووجد أن سبستيان قد بدا غريباً جداً. ولكنه كان يبدو غريباً أيضاً حتى قبل ذلك... «ولكن حينذاك، بدا الأمر مقلقاً بالنسبة لي»، قال شيلدون. التقى بكلير وحدها وسألها ما إذا كانت تعتقد أن سبستيان بخير. «سبستيان؟» قالت كلير بابتسامة مريعة وبطيئة، «لقد أصبح سبستيان مجنوناً. كلياً»، قالت، فاتحة عينيها الشاحبتين بأقصى ما يمكن. «لقد توقف عن الكلام معي»، أضافت بصوت منخفض. ثم قابل شيلدون سبستيان وسأله عن الخطب. «وهل هذا شأنك؟» قال سبستيان مستفسراً، ببرودة هازئة. «أنا معجب بكلير»، قال شيلدون، «وأريد أن أعرف لماذا صارت تبدو

كروح هائمة.» (كانت تأتي لزيارة سبستيان كل يوم، وتجلس في زاوية نائية لم تعتد الجلوس فيها من قبل. كانت تجلب معها الحلوى أحياناً، أو ربطة عنق لسبستيان. لم يأكل الحلوى أحد، وبقيت ربطة العنق معلقة فوق ظهر كرسي. كانت تمر أمام سبستيان وكأنها شبح. ثم كانت تختفي بذات الصمت التي ظهرت فيه).

«حسناً»، قال شيلدون، «اعترف يا رجل! ما الذي فعلته بها؟»

الفصل الثاني عشر

لم يُسفر استفسار شيلدون عن أي إجابة مفيدة. ما عرفه لاحقاً كان من كلير ذاتها، رغم أنها لم تخبر بالكثير. بعد عودته إلى لندن، بدأ سبستيان بتلقي رسائل من امرأة روسية، كان قد التقاها في بلاوبيرغ. كانت نزيلة الفندق ذاته. لم يُعرف عن الأمر ما هو أكثر من ذلك.

بعد ستة أسابيع (سبتمبر ١٩٢٩) غادر سبستيان لندن ثانية، ولم يعد حتى يناير من العام التالي. لم يعرف أحد أين كان. يعتقد شيلدون أنه قد ذهب إلى إيطاليا، «إذ غالباً ما يذهب العشاق إلى هناك.» لم يتشبث باعتقاده هذا. ما إذا كان سبستيان قد أوضح لكلير تفسيراته الحاسمة حول ما كان يجري، أو أنه قد ترك لها رسالة عند مغادرته، لا جواب واضح. خرجت من حياته كما دخلتها، بصمت. غيرت سكنها، فقد كان بيتها قريباً جداً من شقة سبستيان. ذات يوم غائم من نوفمبر، التقت بها الآنسة برات وسط الضباب، وكانت في طريقها عائدة إلى المنزل من مكتب التأمين على الحياة، الذي كانت قد وجدت فيه عملاً. بعد ذلك، صارت لقاءات الفتاتين قليلة جداً، وصار اسم سبستيان نادراً ما يُذكر بينهما. بعد خمس سنوات، تزوجت كلير.

«ملكية مفقودة»، الرواية التي بدأ بكتابتها سبستيان في هذا

الوقت، بدت وكأنها محطة في رحلته الأدبية الاستكشافية: تقييم للوضع، عد الأشياء والأرواح التي فقدها في طريقه؛ تحديد الاتجاهات؛ نقر حوافر أحصنة غير مسرجة تتجول في الظلام؛ نار مخيم تتوهج تحت سماء مرصعة بالنجوم. في الرواية فصل قصير يحكي قصة حادث تحطم طائرة (قُتل القبطان وجميع الركاب، ما عدا واحداً)؛ أما الناجي، وهو مسن إنكليزي، فيكتشفه أحد المزارعين على مسافة بعيدة عن مكان الحادث، وكان جالساً على حجر. كان قد تكوم على ذاته - صورة البؤس والألم. «إصابتك بالغة؟» سأل المزارع. «لا»، أجاب الرجل الإنكليزي، «ألم أسنان فقط. لقد رافقني طوال الطريق.»

تم العثور على نصف دزينة من الرسائل المتناثرة في حقل، وهي كل ما تبقى في حقيبة البريد الجوي. اثنتان منها كانتا عبارة عن مراسلات تجارية في غاية الأهمية؛ توجهت الثالثة إلى امرأة، ولكنها بدأت بـ: «عزيزي السيد مورتيمر، رداً على رسالتك الواردة في السادس من الشهر الحالي...» ثم تبعت ذلك سلسلة من الأوامر؛ كانت الرابعة بطاقة تهنئة بعيد ميلاد أحدهم؛ الخامسة عبارة عن خطاب من جاسوس، بكلمات سرية مدسوسة في كومة قش؛ أما الأخيرة فكانت مغلفاً مرسلاً إلى شركة تجارية، ولكنه قد حوى الرسالة الخطأ، رسالة حب: «هذه الرسالة ستؤلمك جداً، يا حبيبتي المسكينة. لقد انتهت نزهتنا؛ الطريق المظلم يصبح أكثر وعورة، والطفل الأصغر في العربة على وشك أن يمرض. سيقول لك أحمق تافه: عليك أن تكوني شجاعة. ولكن بعد ذلك، كل ما سأقول لك بقصد التعزية أو الدعم سيبدو هلاماً سخيفاً - تعرفين ما أعني. لطالما فعلت. لقد كانت الحياة معك دائماً جميلة، وعندما أقول جميلة، فإنني أعني الحمائم، والزنابق، والمخمل، وعند 'الميم'، الثانية،

الرقيقة والوردية، تدفعين لسانك للتقوس قليلاً نحو الأعلى لينطق بـ 'اللام'. كانت حياتنا سوية متجانسة، وكلما فكرت في هاتيك الأشياء الصغيرة التي سوف تموت، التي لم نعد الآن قادرين على مشاركتها، أشعر وكأننا سنموت معها أيضاً. أو لربما قد متنا بالفعل. أرأيت، كلما كبرت سعادتنا، أصبحت حدودها أكثر غموضاً، كما لو أن معالمها كانت آخذة بالتلاشي، إلى أن اختفى كل شيء الآن. لم أتوقف يوماً عن حبك؛ ولكن هنالك ما مات في داخلي، ولم أعد قادراً على رؤيتك في الضباب... كل هذا هراء أدبي. أنا أكذب عليك. مجرد جبان. لا يوجد ما هو أكثر جبناً من شاعر يختبئ وراء كلماته. أعتقد أنك قادرة على تخمين الأمر: الصيغة المبتذلة لـ'امرأة أخرى'. أنا في غاية التعاسة معها - وهذا أكثر ما كتبته صدقاً حتى الآن. لم يعد لدي، كما أعتقد، ما أزيده على ذلك.

«لا يسعني إلا أن أشعر أن هنالك ما هو خاطئ في فكرة الحب. قد يتشاجر الأصدقاء أو يفترقون، الأشخاص المقربون أيضاً، ولكن من دون هذه الغصة، هذا الألم، من دون الفواجع التي يخلفها الحب. لا نكبات في الصداقة. لِمَ؟ كيف يمكن تفسير الأمر؟ لم أتوقف عن حبك، ولكن بما أنني لم أعد قادراً على تقبيل وجهك العزيز، علينا أن نفترق. علينا أن نفترق. لِمَ؟ وما هذه الطبيعية الغامضة الحصرية بالحب؟ قد يكون للمرء آلاف الأصدقاء، ولكن شقيق الروح لا يكون إلا واحداً. لا علاقة للحرملك بالأمر: أنا أتحدث عن الرقص، وليس الرياضات البدينة. أوتتصورين أن سلطاناً تركياً، ضخم الجثة، قادر على أن يحب زوجاته الأربعمئة كما أحببتك أنا؟ لأنني لو قلت اثنتين، لتوجب عليَّ البدء بعدّ لا نهاية له. لا يوجد إلا رقم واحد حقيقي: الرقم واحد. والحب، ظاهرياً، هو أكبر مثال على هذا التفرد.

«وداعاً يا حبي المسيكن. لن أنساك أبداً، ولن يحل مكانك أحد. من العبث أن أحاول إقناعك أن الحب الخالص، وأن هذا الشغف الآخر، هما كوميديا الجسد. جسد ونقاء، هذا هو الحب. ولكن هنالك أمر واحد مؤكد: لقد كنت سعيداً معك، بينما أشقى الآن مع أخرى. وهكذا تستمر الحياة. سأستمر بالمزاح مع رفاقي في المكتب، وأستمتع بأعشيتي (حتى أصاب بعسر هضم)، وأقرأ الكتب، وأنظم الشعر، وأراقب البورصة - أي لا شيء سيتغير بتصرفاتي، بشكل عام. ولكن هذا لا يعني أني سأسعد من دونك. . . أبسط الأشياء التي ستذكرني بك (الاستياء الذي سأشعر به كلما نظرت إلى حيث كنت ترتبين الوسائد وتجلسين أمام الموقد تذكين النار، وإلى كل الأشياء الصغيرة التي عاشت معنا) سأراها دائماً كنصف صدفة، قد بقي نصفها الآخر معك. الوداع يا حبي. ارحلي بعيداً. بعيداً. لا تراسليني! تزوجي من تشارلي أو أي رجل آخر جدير بك، يضع غليوناً بين أسنانه. انسيني الآن، ولكن تذكريني فيما بعد، عندما تنسين المرارة في قصتنا. بقعة الحبر هنا ليست بسبب دمعة. إن قلمي الحبري قد انكسر، وها أنا أكتب الآن بقلم رخيص، في غرفة رخيصة، من فندق رخيص. الحرارة مروعة، وأنا لم أتوصل إلى إغلاق المسألة، التي افترضت أني سأحققها بـ'خاتمة مرضية'، كما يقول الوغد مورتيمر. أعتقد أنك حصلت على كتاب أو اثنين من كتبي - ولكن هذا لم يعد مهماً. لا تراسليني، أرجوك!»

لـ.

إن جردنا هذه الرسالة الخيالية من كل ما يُفترض أنه يخص صاحبها شخصياً، فإنني مؤمن بأنها تضمنت كل مشاعر سبستيان تجاه كلير، وكل ما أراد أن يكتبه لها. لقد امتلك عادة غريبة متمثلة في

منحه لشخصياته الأكثر غرابة أو بشاعة، بعضاً من الأفكار، الانطباعات، أو حتى الرغبات، التي كانت تعتمل في نفسه. قد يكون في خطاب بطله نوع من الشيفرة التي وصف من خلالها بعضاً من حقائق علاقته بكلير. ولكني فشلت في تذكّر أي كاتب آخر، يستغل فنه بهذه الطريقة المحيرة - المحيرة لي على الأقل، أنا التواق لمعرفة الرجل الحقيقي وراء كاتب الرسالة. من الصعب تمييز ضوء الحقيقة الشخصية، تحت بريق شخصية متخيلة، ولكن الأصعب هو فهم الحقيقة المدهشة، القائلة إن رجلاً يكتب عن الأشياء التي عاشها وشعر بها أثناء زمن كتابته، فإنه قادر في الوقت ذاته، على خلق - مستخدماً ذات الأشياء التي كانت تجلد عقله - شخصية خيالية، مثيرة للسخرية، إلى حد ما.

عاد سبستيان إلى لندن مع بداية عام ١٩٣٠، وألزم السرير بعد نوبة قلبية حادة. بطريقة أو بأخرى، تمكن من الاستمرار في كتابة «ملكية مفقودة»: كتابه الأسهل، حسب رأيي. ترتب على ذلك - وهذا ما يمكن استنتاجه الآن - وجود كلير قربه لتكون وحدها المسؤولة عن شؤونه الأدبية، التي أصبحت معقدة جداً بعد رحيلها. في كثير من الحالات، لم يكن لدى سبستيان أدنى فكرة عن كيفية سير الأمور، ولم يعرف على وجه الدقة ما كانت عليه طبيعة العلاقة مع هذا الناشر أو ذاك. كان مشوشاً للغاية، غير مؤهل على الإطلاق، عاجزاً كلياً عن تذكّر اسم أو عنوان، أو الأمكنة المحددة لبعض أشيائه، وشعر بنفسه هائماً في أكثر المآزق عبثية. من الغريب أن إهمال كلير البناتي قد استبدل بوضوح تام، بمثابرة ودقة، حين تولت إدارة شؤون سبستيان؛ ولكن بعد ذلك، كل شيء قد غرق. لم يكن قد تعلم الضرب على الآلة الكاتبة، ولم تكن عصبيته الحالية لتسمح له الآن بذلك. نشرت رواية «الجبل المضحك» تزامناً في

مجلتين أمريكيتين، وقد وجد سبستيان صعوبة في تذكّر كيف تمكن من بيعها لجهتين مختلفتين. ثم جاءت قصته المعقدة مع رجل أراد تصوير «النجاح» سينمائياً، وقد قام بدفع مبلغ مقدم إلى سبستيان (دون أن ينتبه الأخير لذلك، إذ كان غالباً ما يقرأ بريده شارد الذهن) لقاء نسخة مختصرة و«مكثفة»، لم يعتزم سبستيان مطلقاً على تنفيذها. عادت «الفص الموشوري» إلى سوق البيع مجدداً، ولكن بالكاد أمكن لسبستيان معرفة الأمر. لم يلبِّ الدعوات ولم يجب عليها حتى؛ أثبتت أرقام الهواتف أنها مضللة، كما أثبت البحث المزعج عن المغلف الذي قد خربش عليه هذا أو ذاك الرقم، أنه أكثر استنزافاً من تأليف فصل. وعندئذ، كان عقله قد أصبح في مكان آخر، متتبعاً مسارات عشيقة غائبة، منتظراً اتصالاً منها. وصل الاتصال أخيراً، أو ربما هو من ذهب لرؤيتها لأنه لم يعد قادراً على الاحتمال أكثر، وكان في هذه المرحلة أن رأى روي كارسويل لمرته الأولى: رجل نحيل في معطف طويل، ينتعل خفاً منزلياً، يتهيأ لدخول سيارة بولمان.

كان ذلك في فترة بداية ظهور السيد غودمان. شيئاً فشيئاً، سلمه سبستيان إدارة كافة شؤونه الأدبية، إذ إن الوقوع على سكرتير فعال، قد أزاح الهم عن صدره. «كنت أجده عادة»، كتب السيد غودمان، «مستلقياً في سريره كفهد متجهم» (ما يذكرنا بطريقة ما بالذئب في قصة ذات الرداء الأحمر)... «لم أر في حياتي»، تابع في مقطع آخر، «كائناً بهذه الكآبة... لقد علمت أن الكاتب الفرنسي م. بروست، الذي قلده نايت، واعياً أو غير واعياً لذلك، كان ميالاً أيضاً لذات الفتور واللامبالاة، المثيرين للاهتمام». ثم تابع: «كان نايت نحيلاً جداً، بملامح شاحبة ويدين حساستين، اعتاد أن يحركهما بغنج أنثوي. اعترف لي ذات مرة أنه يحب صب نصف

زجاجة من العطر الفرنسي فوق الماء في حوض استحمامه، ولكنه، رغم ذلك، لم تبد العافية على هيئته أبداً... لقد كان مغروراً إلى حد لا يُصدق، كمعظم المؤلفين الحداثيين. لمرة أو مرتين، فاجأته متلبساً بلصق قصاصات صحافية من المؤكد أنها كانت مقالات تتناول كتبه، فوق ألبوم رائع وثمين، كان يحتفظ به في درج مقفل من طاولة مكتبه، إذ إنه ربما كان يخجل من السماح لعيني الناقدة بتأمل ثمرة ضعفه البشري... غالباً ما كان يسافر إلى الخارج، لمرة أو مرتين في السنة، وأفترض، وأجرؤ على افتراض ذلك، أن وجهته كانت Gay paree(*). ولكنه كان متكتماً وغامضاً إزاء ذلك، هارباً نحو الأمكنة التي يمكن له فيها استعراض روحه البايرونية(**). لا يسعني إلا الاعتقاد بأن رحلاته في القارة كان جزءاً من برنامجه الفني... لقد كان النموذج المثالي للادعاء والتفاخر.»

لكن فصاحة السيد غودمان تتعاظم عندما يبدأ بمناقشة أمور أكثر عمقاً. تقوم فكرته على تبيان وتفسير «الشرخ القاتل ما بين نايت الفنان، والعالم الطنان العظيم المحيط به» - (صداع دائري، على ما يبدو). «إن شخصية نايت غير المؤهلة للترويض الاجتماعي، هي سبب فشله»، يصرح غودمان، مشيراً إلى نقاط ثلاث. «إن العزلة لهي خطيئة لا تغتفر، في زمن تتحرق فيه الإنسانية الحائرة لوجود كتّاب ومفكرين، طالبة منهم الاهتمام - ما لم يكن العلاج - بويلاتها وجروحها... لم يعد التسامح مع 'البرج العاجي' ممكناً، ما لم

(*) Gay Paree: أو Gais Paris، الوصف الذي يطلق على مدينة باريس ويعني حرفياً: باريس المبتهجة. ولكن غودمان قد قصد به التلميح إلى المثلية. (مترجم)

(**) جورج غوردن بايرون: شاعر بريطاني (١٧٨٨-١٨٢٤)، أول دوواينه كان بعنوان: «ساعات الكسل». (مترجم)

يتحول إلى منارة أو محطة بث... في مثل هذا العصر... الذي لم تنطفئ نيران نوائبه بعد... الكساد الاقتصادي... الهزائم... الخداع... متشردون في الشوارع... نمو الاستبداد... البطالة.... الحرب العظمى المقبلة... مظاهر جديدة للحياة الأسرية... الجنس... البنية الكونية.» للسيد غودمان اهتمامات واضحة كما نلاحظ. «وها هو نايت»، يتابع، «يرفض رفضاً قاطعاً، الاهتمام بالأسئلة المعاصرة... عندما يُطلب منه الانضمام إلى حركة ما، للمشاركة في اجتماع مهم، أو ببساطة لإلصاق توقيعه بين مجموعة أسماء تزيده شهرة، للاعتراض على واقع دنيء أو شجب ظلم كبير، فإن كان يصر على رفضه، رغم كل تحذيراتي له، أو بالأحرى توسلاتي...»

«لقول الحق»، يتابع غودمان، «في كتابه الأخير (وأكثر كتبه غموضاً) قام بمسح العالم متفحصاً... لكن الزاوية التي اختارها والمظاهر التي لاحظها تختلف كل الاختلاف عما يتوقعه قارئ جاد من كاتب جاد... يبدو الأمر وكأنه يقدم لشخص يقوم بتحقيق دقيق ومتقن عن حياة وآلية مشروع عظيم، نحلةً ميتة فوق عتبة نافذة، مع كثير من الإطناب والتفصيل... كنت كلما لفتُّ انتباهه إلى هذا وذاك الكتاب المنشور حديثاً، ويكون سبق أن سحرني لما فيه من اهتمامات عامة وحيوية، فإنه كان يجيبني بطريقته الطفولية: 'هراء'، أو أنه يغير الموضوع كلياً... لقد اختلط عليه الأمر بين العزلة واسم الشمس باللاتينية(*). لقد فشل في إدراك أنها ليست إلا زاوية مظلمة. ومع ذلك، وبما أنه كان شديد الحساسية (أذكر كيف كان يجفل عندما كنت أطقطق أصابعي - وهي من عاداتي السيئة عند التأمل) فإنه لم

(*) الشمس باللاتينية: Solis، والعزلة هي Solitude. (مترجم)

يستطع يوماً التوقف عن الإحساس بأن هنالك خطباً ما... بأنه كان يسلخ نفسه أكثر فأكثر عن الحياة... وأن القابس كان معطلاً في حجرة التشميس خاصته. إن عذابه الذي كان في البداية ردة فعل شاب مزاجي رُمي به في عالم قاسٍ، والذي استمر لاحقاً في الظهور كقناع عصري في أيام نجاحه ككاتب، قد اتخذ الآن شكل حقيقة جديدة وبشعة. اللوحة التي تزين صدره قد كُتب فوقها: 'لا تقرأوا المزيد! أنا الكاتب الوحيد'؛ عدلتْها أصابع غير مرئية فصارت 'أنا أعمى'.»

من الإهانة لفطنة القارئ أن أعلق على طلاقة السيد غودمان. إن كان سبستيان أعمى، فإن سكرتيره، في هذه الحال، قد وقع على عاتقه دور النباح والجر. القيادة. أخبرني روي كارسويل، الذي رسم بورتريه لسبستيان عام ١٩٣٣، كيف كان يغشى من الضحك، عندما كان سبستيان يخبره قصصاً من علاقته بالسيد غودمان. من المحتمل جداً أنه لم يكن ليتحمس كفاية للتخلص منه، لو أنه - أي غودمان - لم يبدأ بخوض مغامراته الخاصة. عام ١٩٣٤، كتب سبستيان، من مدينة كان، رسالة إلى روي كارسويل يخبره فيها أنه اكتشف عن طريق الصدفة (نادراً ما كان يعيد قراءة كتبه) أن غودمان قد غيَّر لقباً في رواية «الجبل المضحك»، في نسختها الصادرة عن دار سوان. «لقد أوقفته عن العمل عندي» أضاف. امتنع السيد غودمان، وبكل تواضع، عن ذكر هذا التفصيل البسيط. بعد أن استنفد مخزونه من الانطباعات، وبعد أن خلص إلى نتيجة مفادها إلى أن سبب وفاة سبستيان الحقيقي يعود إلى إدراكه النهائي لكونه قد «فشل كرجل، وبالتالي كفنان»، ذكر مبتهجاً بأن عمله لدى سبستيان كسكرتير قد انتهى لأنه قد انتقل إلى نوع آخر من الأعمال. لن أتحدث أكثر عن كتاب السيد غودمان. إنه لم يعد موجوداً.

ولكنني عندما أعود إلى البورتريه الذي رسمه روي كارسويل، أرى وميضاً طفيفاً في عيني سبستيان، رغم كل الحزن الذي كانتا تحملانه. لقد أظهر ذلك الرسم، وعلى نحو رائع، القتامة الرطبة للرمادي المخضر في حدقتيه، مع حافة أكثر دكنة، وأثر لغبار ذهبي يحبط ببؤبؤيه. الجفون ثقيلة وقد تكون ملتهبة، مع عرق أو ربما اثنين، ينفجران حمرة في قزحيته اللامعة. لقد رُسمت هاتان العينان بطريقة تجعلهما تبدوان وكأنهما انعكاس لنظرة نارسيس في ماء صافٍ - مع تموج طفيف جداً فوق تجويف الخد، بسبب عنكبوت الماء الذي توقف فجأة وراح يطفو إلى الوراء. استقرت ورقة ذابلة فوق الجبين المنعكس، الذي تغضن مع تحديق الرجل في الماء. أما فوقه، فشعر أسود أشعث ينفرد فوق سلسلة أخرى من التموجات، ولكن خصلة بيضاء فوق الصدغ قد عكست شعاع شمس رطب. هنالك ثلم عميق بين الحاجبين المستقيمين، وآخر ينزل من الأنف وصولاً عند الشفتين المتجهمتين، المغلقتين بإحكام. لا شيء في اللوحة سوى هذا الرأس. يحجب العنق ظل براق قاتم، مانحاً الانطباع بأن الجزء العلوي من الجسد كان ينحسر نحو الوراء. الخلفية العامة عبارة عن خليط غامض من الأزرق، مع تعريشة دقيقة لبعض الأغصان في الزاوية. وهكذا انحنى سبستيان فوق الماء، محدقاً في وجهه.

«وددت اقتراح وجود امرأة في مكان ما خلفه، أو فوقه - ظل يد ربما... أي شيء... ولكن خشيت أني بذلك سأروي قصة بدل الرسم...»

«بالمناسبة، لا يبدو أن أحداً يعرف عنها شيئاً، ولا حتى شيلدون.»

«لقد دمرت حياته، ألا يكفيك معرفة ذلك؟»

«لا، أريد معرفة المزيد. لا بل كل شيء. وإلا فإن الأمر سيبقى غير مكتمل كما في لوحتك. إنه بورتريه مدهش، الشبه ممتاز، وأحببت جداً ذلك العنكبوت الطافي، وخاصة ظل أرجله في الماء. ولكن الوجه ليس إلا انعكاساً محتملاً. أي رجل قد ينظر إلى الماء.»

«ولكن ألا تعتقد أنه فعل ذلك بشكل جيد؟»

«بلى. أستطيع فهم وجهة نظرك. ولكن من ناحية أخرى عليَّ إيجاد تلك المرأة. إنها الحلقة المفقودة في تطور مراحل حياته، عليَّ أن أجدها - إنها ضرورة علمية.»

«أراهنك على هذا البورتريه أنك لن تجدها»، قال روي كارسويل.

الفصل الثالث عشر

أول ما يجب هو معرفة هويتها. كيف سأبدأ ببحثي عنها؟ ما البيانات التي عليَّ الوصول إليها؟ في يونيو ١٩٢٩، نزل سبستيان في فندق بومونت في بلاوبيرغ، وهناك التقى بها. كانت روسية. ولا توجد عنها أي معلومة أخرى.

أشارك سبستيان في نفوره من التعاملات البريدية. من الأسهل بالنسبة لي أن أسافر إلى مكان يبعد آلاف الأميال، على أن أكتب رسالة حتى وإن قصيرة، ثم إيجاد مغلف، كتابة العنوان الصحيح، شراء الطابع الصحيح، ثم وضع الرسالة في صندوق البريد (ثم أتصارع مع عقلي لأتذكر ما إذا كنت قد تركت توقيعي عليها أم لا). ثم إن المسألة التي كنت مقدماً عليها حساسة جداً، لا مجال معها للتعامل للجوء إلى المراسلات. في مارس ١٩٣٦، بعد شهر من الإقامة في لندن، استشرت مكتباً سياحياً ثم عزمت الوجهة إلى بلاوبيرغ.

إذاً، لقد مر من هنا، قلت في نفسي، عندما نظرت إلى الحقول الرطبة، بمساراتها الطويلة التي يغشاها ضباب أبيض، قد طافت فوقه الرؤوس غير الواضحة لأشجار الحور العالية. بلدة صغيرة تزينها أسطح القرميد الأحمر، تقع عند سفح جبل رمادي. تركت حقيبتي في غرفة الإيداع الخاصة بإحدى المحطات الصغيرة وشبه المهجورة،

حيث كان قطيع غير مرئي من الأبقار يخور حزيناً في بعض المقطورات المتوقفة، وصعدت منحدراً يؤدي إلى مجموعة من الفنادق والمصحات، وراء متنزه عابق برائحة الرطوبة. كان حول الفندق عدد قليل من الناس، لم تكن «ذروة الموسم» قد حانت بعد، وعندئذ فقط أدركت، مرعوباً، أنني قد أجده مغلقاً تماماً.

لم يكن كذلك؛ كنت محظوظاً... حتى اللحظة.

بدا المنزل مريحاً إلى حد ما، مع حديقة تلقى حظاً وافراً من العناية، وأشجار كستناء متبرعمة. لم يبد أنه يتسع لأكثر من خمسين شخص - وهذه نقطة لمصلحتي، إذ إن خياراتي ستكون محصورة أكثر. كان مدير الفندق رجلاً أشيباً مع لحية مشذبة وعينين سوداوين مخمليتين. بدأت مهمتي بحذر شديد.

قلت في البداية إني أخي، سبستيان نايت، الكاتب الإنكليزي الشهير، قد أحب كثيراً إقامته هنا، وإني كنت نفسي أفكر في البقاء فيه أيضاً، طوال الصيف. ربما كان عليَّ أولاً أن أحجز غرفة، أنسل فيها، أدلل نفسي، إن جاز التعبير، وأرجئ طلبي الخاص حتى لحظة أكثر مواتاة؛ ولكني لست أدري كيف خطر لي أن الأمر سيسوى على الفور. قال أجل، إنه يتذكر الرجل الإنكليزي الذي أقام هنا عام ١٩٢٩، وكان يأخذ حماماً كل صباح.

«لم يكن ممن يتخذون لهم أصدقاء بسهولة، أليس كذلك؟» سألت بعفوية مصطنعة. «أكان وحيداً دائماً؟»

«أوه، أعتقد أنه كان هنا مع والده.» أجاب مدير الفندق بطريقة مبهمة.

تجادلنا لبعض الوقت حول ثلاثة أو أربعة أشخاص إنكليزيين كانوا قد أقاموا في فندق بومونت خلال السنوات العشر الأخيرة. فهمت أنه لم يتذكر سبستيان بوضوح تام.

«سأكون صريحاً»، قلت بفظاظة، «إني أحاول إيجاد عنوان سيدة، صديقة أخي، وكانت قد أقامت هنا في ذات فترة إقامته.»

رفع مدير الفندق حاجبيه قليلاً، وشعرت أنا بالانزعاج إذ أدركت أني قد ارتكبت حماقة فادحة.

«لمَ؟» سأل (وفكرت سريعاً ما إذا كان عليَّ تقديم الرشوة له).

«حسناً»، قلت، «أنا مستعد للدفع مقابل العناء الذي سيكبده البحث عن المعلومات التي أحتاج إليها.»

«أي معلومات؟» سأل (كان عجوزاً غبياً وشكاكاً - أدعو أن لا يقرأ سطوري هذه).

«إني أتساءل»، تابعت بلهجة صبورة، «إن كان لطفك الكبير سيسمح لك بمساعدتي في البحث عن عنوان السيدة التي أقامت هنا في ذات وقت إقامة السيد نايت، وذلك في يونيو ١٩٢٩.»

«أي سيدة؟» سأل باللهجة الحوارية السقراطية الخاصة بفراشة لويس كارول(*).

«لست متأكداً من اسمها»، قلت بعصبية.

«وكيف تتوقع مني إيجادها؟» سأل مستهجناً.

«كانت روسية»، قلت. «ربما تذكر سيدة روسية، شابة، و... حسناً، حسنة المظهر.»

«لقد استقبلنا الكثير من الجميلات»، أجاب ببرودة متزايدة. «كيف تتوقع مني تذكّرها؟»

«حسناً»، قلت، «إن أبسط طريقة هي إلقاء نظرة على سجلاتك وفرز الأسماء الروسية منها، خلال عام ١٩٢٩.»

(*) لويس كارول: الكاتب الإنكليزي صاحب الرواية الشهيرة «أليس في بلاد العجائب». (مترجم)

«من المؤكد أن هنالك العديد منها»، قال. «كيف ستحزر اسمك المنشود، إن كنت لا تعرفه؟»

«أعطني أنت الأسماء والعناوين»، قلت يائساً، «واترك باقي الأمر لي.»

تنهد عميقاً ثم هز رأسه.

«لا»، قال.

«أتعني أنك لم تعد تحتفظ بالسجلات؟» سألت محاولاً العودة إلى نبرة هادئة.

«بلى، إنها عندي وفي أحسن حال»، قال. «إن مهنتي تتطلب الكثير من التنظيم. ولهذا أقول لك نعم. إن كل الأسماء محفوظة لدي...»

مشى بعيداً نحو آخر الغرفة، وعاد بمجلد كبير أسود.

«هنا»، قال، «الأسبوع الأول من يوليو ١٩٣٥... البروفسور أوت مع زوجته، الكولونيل سامين...»

«اسمعني!» قلت، «أنا لست مهتماً بسجلات يوليو ١٩٣٥. ما أريده...» أغلق الكتاب وحمله بعيداً.

«كل ما أردته هو أن ترى فقط»، قال، مديراً ظهره لي. «لأريك [صوت إغلاق قفل] أني أحتفظ بسجلاتي بأفضل حال.»

عاد إلى مكتبه، وطوى رسالة كانت ملقاة فوق لوح النشاف.

«صيف ١٩٢٩»، قلت متضرعاً. «لِمَ لا تريدني أن أرى الصفحة التي أحتاج إليها؟»

«حسناً، لم أنته من توضيح نفسي»، قال. «أولاً، لأنني لن أسمح لشخص، غريب عني تماماً، أن يزعجني أو يزعج أشخاصاً كانوا وما زالوا زبائني. ثانياً، لأنني عاجز عن فهم حرصك هذا على

إيجاد امرأة لا تريد ذكر اسمها. وثالثاً، لا أريد التورط في أي نوع من المشاكل. لدي ما يكفي منها. في الفندق الآخر عند الزاوية، انتحر زوجان سويسريان في عام ١٩٢٩»، قال، مضيفاً ما لا يمتّ إلى موضوعنا بصلة.

«أهذا كلامك الأخير؟» سألت.

هز رأسه ونظر إلى ساعة يده. أدرت كعبي وصفقت الباب ورائي - أو حاولت صفقه، على الأقل؛ كان من تلك الأبواب التي تعمل بضغط الهواء، ذات مقاومة مهولة. عدت ببطء إلى المحطة. عبرت خلال المتنزه. ربما يذكر سبستيان ذلك المقعد الحجري تحت الأرزة التي كانت تموت عند زيارتي للمكان. تلك الخطوط البارزة لذلك الجبل هناك، ربما كانت توقيعاً لليالٍ لا تنسى. بدا لي المكان بأسره تلة ضخمة ممانعة، كنت أعرف أني أضعت فيها جوهرة داكنة البريق. كان فشلي سخيفاً، فظيعاً ومؤلماً. البطء الثقيل لجهد تبذله في منام. تلمس يائس بين أشياء آخذة بالانحلال. لم كان الماضي بكل ذلك التمرد؟

«وماذا عليَّ أن أفعل الآن؟»

كان تيار كتاب السيرة الذي كنت تواقاً للبدء به، قد وصل واحداً من آخر تعرجاته، الضائعة في الضباب؛ كالوادي الذي كنت أتأمله. أيمكنني التراجع عن هذا المنعطف وإكمال الكتاب بما لدي فقط؟ كتاب بحلقة مفقودة. لوحة غير مكتملة - أطراف الشهيد غير الملونة، مع سهام في خاصرته.

شعرت أنني تائه، ولا مكان لي لأذهب إليه. فكرت طويلاً في الوسائل الممكنة لمعرفة اسم حبيبة سبستيان الأخيرة، ولكني أدركت أن لا سبيل لذلك. اسمها. شعرت أني كنت لأتعرف عليه فوراً لو تسنى لي الحصول على تلك الملفات السوداء الكبيرة. أعليَّ أن

أستسلم وأعود إلى بعض التفاصيل الثانوية الأخرى عن سبستيان التي ما زلت أحتاج إليها، والتي أعرف أين أجدها؟

كنت في حالة الذهول تلك حين دخلت محطة القطار المحلي البطيء، الذي كان سيعيدني إلى ستراسبورغ. ومن هناك، سأتابع ربما إلى سويسرا... ولكن لا. لم أكن قادراً على التغلب على وخز الألم الذي خلفه فشلي؛ رغم أني حاولت جاهداً أن أدفن نفسي في صحيفة إنكليزية كنت أحملها معي: كنت أدرب نفسي، إن جاز التعبير، على القراءة بالإنكليزية فقط، إذ كنت مقدماً على الكتابة فيها... ولكن هل يمكن لأحدنا البدء بأمر غير مكتمل في عقله؟

كنت وحيداً في مقصورتي (كما هي الحال في مقصورات الدرجة الثانية داخل هكذا نوع من القطارات)، ولكن بعد ذلك، وفي المحطة التالية، دخل رجل صغير البنية بحواجب كثيفة، حيّاني بطريقة أهل القارة، بلهجة فرنسية غليظة، ثم جلس فوق المقعد المقابل. واصل القطار مساره تحت شمس غاربة.

لاحظت فجأة أن الراكب مقابلي كان يبتسم في وجهي.

«جو رائع!» قال، ثم نزع قبعة البولينغ التي كان يرتديها، كاشفاً عن صلعة وردية لامعة. «هل أنت إنكليزي؟» سأل، مع إيماءة وابتسامة.

«حتى هذه اللحظة، أجل»، أجبت.

«أراك تقرأ صحيفة إنكليزية»، قال، مشيراً بإصبعه؛ ثم نزع قفازاته الجلدية بعجالة، وأشار ثانية (ربما قد قيل له إنه من المعيب الإشارة إلى شيء في حال ارتداء قفازات). تمتمت بشيء ما ثم نظرت بعيداً: لست من هواة الدردشة في القطار، إضافة إلى أنني كنت في حالة لا تشجع على ذلك. تابع نظراتي. كانت الشمس المنخفضة في الأفق قد ألقت وهجها فوق النوافذ العديدة لمبنى

كبير، كان يظهر أمامنا ببطء، مع مدخنة ضخمة، ثم مبنى آخر، بينما كان القطار يمر أمامه، بضجيجه الهادر.

«إنه»، قال الرجل الصغير، «مبنى فلامبوم وروث. مصنع كبير. مصنع للورق.»

عم صمت للحظات. ثم بدأ بحك أنفه الكبير اللامع، وقام بالانحناء نحوي.

«لقد زرت مرة»، قال، «لندن، مانشستر، شيفيلد، نيوكاسل»، ثم نظر إلى الإصبع الذي لم يشارك في التعداد.

«أجل»، قال، «لقد كنت تاجر ألعاب. قبل الحرب. كما أنني كنت ألعب كرة القدم قليلاً»، أضاف، ربما لأنه انتبه أنني كنت أحدق في ملعب توجد في كل من طرفيه شبكة مرمى، إحداهما بلا عارضة.

غمزني بطرف عينه؛ وكان شاربه منتصباً عند طرفيه.

«ذات مرة»، قال محاولاً إخفاء ضحكته، «ذات مرة، قذفت الطابة، من خلف خطوط التماس، مباشرة نحو المرمى.»

«حقاً؟» سألت بنبرة سأمة، «وهل حققت هدفاً؟»

«الريح سجلته. يا لها من روبينسانادا!»

«وما تكون الروبينسونادا؟»

«إنها حيلة عجيبة. أجل... أمسافر أنت نحو البعيد؟» تساءل بصوت فائق التهذيب واللطف.

«حسناً، إن هذا القطار لا يصل إلى ما هو أبعد من ستراسبورغ، أليس كذلك؟»

«لا. أقصد بشكل عام. أتسافر كثيراً عادة؟»

قلت أجل.

«في ماذا؟» سأل، مجلساً رأسه.

«أوه، أعتقد في الماضي»، أجبت.

أومأ رأسه بالإيجاب كما لو كان قد فهم قصدي. ثم انحنى ثانية نحوي، لمس ركبتي وقال: «في الوقت الحالي، أبيع الجلديات. طابات جلدية - كما تعلم - ليلعب بها الآخرون. وليس أنا. أصبحت عجوزاً! وضعيفاً! كما أنني أبيع كمامات جلدية للكلاب، وأشياء من هذا القبيل.»

ربت برفق فوق ركبتي مجدداً، ثم قال: «ولكنني، منذ وقت ليس بالبعيد، منذ عام، منذ أربعة أعوام، كنت أعمل في الشرطة. بملابس مدنية. وكيل مباحث، أفهمتني؟»

نظرت نحوه باهتمام مفاجئ، وقلت:

«أحقاً ما تقول؟ إن هذا يوحي إليّ بفكرة...»

«أجل»، قال، «إن كنت بحاجة إلى مساعدة، إلى شيء جلدي، إلى محفظة سجائر، أحزمة، مشورة، قفازات للملاكمة...»

«أحتاج إلى لخامسة، وربما الأولى»، قلت.

أمسك قبعته التي كان قد ألقاها بجانبه فوق المقعد، اعتمرها على مهل (تراقصت تفاحة حلقه صعوداً ونزولاً)، ثم، بابتسامة مشرقة، وبحركة سريعة، انتزع القبعة ثانية أمامي، أحنى رأسه وقال:

«أنا أدعى سيلبرمان»، ثم مد يده نحوي، صافحته وقمت بالتعريف عن نفسي أيضاً.

«ولكنه ليس اسماً إنكليزياً»، قال، صافعاً ركبتيه، «إنه روسي، غافريت باروسكي؟ أعرف أيضاً كلمات روسية أكثر غرابة... انتظر! أوه، أجل، تذكرت! كوكولكا؟ الدمية الصغيرة.»

صمت لدقيقة. دورت في رأسي الفكرة التي أوحاها لي. هل أجرب استشارة وكالة تحقيقات خاصة؟ أيكون هذا الرجل نافعاً يا ترى؟

«لا، لا»، صاح. «ذلك شيء آخر. ربما سمكة. صحيح؟ يا أخي العزيز؟»

«كنت أفكر»، قلت، «أنني ربما لو أخبرتك في أي مأزق أنا. . . »

«ولكن هذا كل ما أعرفه من الروسية»، قال متنهداً. «أنا أتحدث [عاد للعد على أصابعه] الليتوانية، الألمانية، الإنكليزية، الفرنسية [مجدداً، لم يستخدم إبهامه في العد]، ولكني نسيت الروسية. تماماً.»

«ربما تستطيع. . . » بدأت.

«أي خدمة»، قال. «أحزمة جلدية، محفظة نقود، دفاتر ملاحظات، اقتراحات.»

«اقتراحات»، قلت. «إليك قصتي. إنني أحاول تتبّع أثر شخص. . . سيدة روسية لم ألتق بها يوماً، ولا أعرف اسمها. كل ما أعرفه أنها أقامت لفترة معينة في فندق في بلاوبيرغ.»

«أوه، إنه مكان جيد»، قال السيد سيلبرمان، «جيد جداً.» ثم أرخى زوايا شفتيه كعلامة على إقرار متضامن. «ندلٌ جيدون، متنزهات، كازينو. ما الذي تريده مني بالضبط؟»

«حسناً»، قلت، «أريد أولاً أن أعرف ما الممكن فعله في حالات مشابهة؟»

أجاب من دون إبطاء: «أن تدعها وشأنها».

ثم دفع رأسه إلى الأمام، وبدأ حاجباه الكثيفان بالتحرك.

«انسَها»، قال. «اطردها من رأسك. إنه لأمر خطير وغير مُجدٍ.»

نفض شيئاً ما عن بنطالي، من فوق الركبة، هز رأسه، ثم استقام في جلسته مجدداً.

«دعك من هذا»، قلت. «السؤال هو كيف وليس لِمَ.»

«لكل كيف لِمَ خاصتها»، قال السيد سيلبرمان. «لقد وقعتَ على صورة لها، والآن صرت متلهفاً لمعرفتها الشخصية. هذا ليس حباً. يا للضحالة!»

«أوه، لا!» قلت صائحاً. «إن الأمر ليس كما يبدو. حتى أنني لا أملك أدنى فكرة عن شكلها. ولكن أخي المتوفى قد أحبها، وأود لو أسمع منها عنه. بكل بساطة.»

«كم هذا حزين!» قال السيد سيلبرمان، هازاً رأسه.

«أنا في صدد تأليف كتاب عنه»، استأنفت، «وإن أدنى تفصيل في حياته لهو مهم بالنسبة لي.»

«بم كان مريضاً؟» سأل السيد سيلبرمان بصوت مبحوح.

«القلب»، أجبت.

«قلبه! أمر مؤسف! كثير من التحذيرات، والفحوصات العامة، النوبات...»

«أجل، صحيح. كانت كالبروفات تحضيراً للموت».

«أجل. وكم كان عمره؟»

«ستة وثلاثين. لقد كان أديباً، يوقّع كتبه بكنية والدته. نايت. سبستيان نايت.»

«اكتبه هنا!» قال السيد سيلبرمان، ثم أعطاني دفتر ملاحظات جديد وفائق الجمال إلى حد لافت، وقد حشر بين صفحاته قلم حبر فضياً لا يقل جمالاً، ثم «تروريك تروريك»، نزع الصفحة التي دونت الاسم فوقها، وضعها في جيبه، ثم أعاد الدفتر إليّ.

«لقد أعجبك أليس كذلك؟» سأل بابتسامة قلقة. «اسمح لي بتقديم هدية متواضعة.»

«إن هذا في منتهى اللطف»، قلت.

«هذا لا شيء، لا شيء»، قال ملوّحاً بيده. «والآن، قل لي ما الذي تريده!»

«أريد»، أجبت، «أن أحصل على قائمة كاملة بأسماء كل الأشخاص الذين أقاموا في فندق بومونت خلال يونيو ١٩٢٩. وأريد بعض التفاصيل عنهم أيضاً، أو عن النساء على الأقل. أريد عناوينهن. وأريد التأكد من أن الأسماء الأجنبية لا تحجب وراءها سيدة روسية متخفية. ثم سأقوم أنا باختيار الأكثر احتمالية...»

«وتحاول الوصول إليهن»، قال السيد سيلبرمان، هازاً رأسه بالموافقة. «جيد! جيد جداً! لا تقلق، فأنا أمسك بكل سادة هذا الفندق هنا [مشيراً إلى باطن كفه]، وسيكون الأمر سهلاً. عنوانك لو سمحت!»

أخرج دفتر ملاحظات آخر، وكان هذه المرة بالياً جداً، وقد سقطت منه، كأوراق خريف، بعض الأوراق المهترئة التي تحمل فوقها خربشات. أضفت أنني لن أتحرك من ستراسبورغ قبل اتصاله.

«الجمعة»، قال. «عند السادسة بالضبط.»

ثم غاص الرجل الصغير، استثنائي الغرابة، في مقعده من جديد، طوى ذراعيه، وأغمض عينيه، كما لو أن القضية المحسومة التي تولاها قد جاءت كنقطة في نهاية سطر محادثتنا. تفحصتْ ذبابةٌ جبهته الصلعاء، لكنه لم يتحرك. بقي غافياً حتى ستراسبورغ. وهناك افترقنا.

«اسمع!» قلت عندما تصافحنا، «عليك أن تحدّد أجرك... أعني، أنا مستعد لدفع المبلغ الذي تراه مناسباً... ولربما كنت ترغب في دفعة مقدمة...»

«سترسل لي نسخة من كتابك»، قال رافعاً إصبعه القصير. «وأوفني أجري بما يليق»، أضاف بينه وبين نفسه، أنا متأكد من ذلك.

الفصل الرابع عشر

وتلك كانت هي الطريقة التي حصلت فيها على اثنين وأربعين اسماً، قد ظهر اسم سبستيان (سـ. نايت، ٣٦ «أوك بارك غاردنز»، لندن، الجنوب الغربي) غريباً، جميلاً وتائهاً. لقد فوجئت تماماً (مفاجأة سارة) بوجود كل العناوين الأخرى، إلى جانب الأسماء المذكورة في القائمة: شرح سيلبرمان على عجل أن الناس غالباً ما يموتون في بلاوبيرغ. من بين الأسماء الواحد والأربعين المجهولة، كان سبع وثلاثون منها «خارج نطاق المسألة»، كما قال الرجل الصغير. هذا صحيح، فثلاث منها تعود لسيدات (غير متزوجات) بكنيات روسية، ولكن اثنتين من هؤلاء النسوة الثلاث يكن ألمانيات، والثالثة ألزاسية: كثيراً ما كن يقمن في ذلك الفندق. كان هنالك اسم محير لفتاة تدعى فيرا راسين، ومع ذلك، كان سيلبرمان متأكداً من كونها فرنسية؛ وأنها، في الواقع، كانت راقصة وعشيقة لأحد المصرفيين في ستراسبورغ. كان هنالك اسمان أيضاً لبولنديين مسنين، تجاوزناهما من دون أي ريبة. كل ما تبقى من قائمة الـ «خارج نطاق المسألة»، أي واحد وثلاثون اسماً، عادت لعشرين رجل بالغ، ثمان منهم كان متزوجين أو على الأقل قد أحضروا معهم نساءهم (إيما، هيلدغارد، بولين، وغيرهن)، اللواتي قد أقسم سيلبرمان أنهن مسنات، محترمات ومعروفات على أنهن غير روسيات.

وهكذا يبقى أمامنا أربعة أسماء:

الآنسة ليديا بوهيمسكي مع عنوان في باريس. كانت قد قضت في الفندق تسعة أيام، مع بداية فترة إقامة سبستيان، ولم يذكر عنها المدير أي ملاحظة. السيدة دو ريكنوي. كانت قد غادرت المكان إلى باريس، عشية مغادرة سبستيان إلى المدينة ذاتها. تذكر المدير أنها كانت شابة أنيقة جداً، وسخية للغاية بتقديم الإكراميات. إن رمز ال «دو» وكما أعرفه، هو سمة مميزة لفئة معينة من الروس الذين يحبون تأكيد انتمائهم لطبقة النبلاء، ولقول الحق، فإن استخدام جسيم فرنسي ضئيل أمام كنية روسية لا يبدو سخيفاً فقط، بل غير شرعي أيضاً. لا بد أنها كانت هاوية مغامرات: قد تكون زوجة لرجل متعجرف.

هيلين غرينشتاين. كان الاسم يهودياً، ولكن وعلى الرغم من «شتاين»، إلا أنه ليس يهودياً - ألمانياً. تلك ال «ي» في «غرين» بدل «و»، تشير إلى كنية شخص قد ترعرع في روسيا. كانت قد وصلت إلى الفندق قبل مغادرة سبستيان بأسبوع، وبقيت لثلاثة أيام بعده. قال المدير إنها كانت امرأة جميلة. وقال إنها كانت قد نزلت في الفندق لمرة سابقة، وكانت تقيم في برلين.

هيلين فون غراون. اسم ألماني حقيقي. ولكن المدير قد أكد أنها لعدة مرات خلال إقامتها، قد غنت بالروسية. وقال إنها قد تمتعت بصوت كونترالتو رائع، وكانت فاتنة. أقامت شهراً بالمجمل، ثم غادرت إلى باريس قبل مغادرة سبستيان بخمسة أيام.

دققت في كل تلك التفاصيل، وفي العناوين الأربعة. قد يثبت أي منها أنه ما أسعى وراءه. شكرت السيد سيلبرمان بحرارة. كان يجلس أمامي مع قبعته مرتكزة فوق ركبتيه اللصيقتين. تنهد ونظر إلى طرف حذائه الأسود الصغير المخطط بالرمادي.

«لقد فعلت هذا»، قال، «لأني رأيت فيك رجلاً لطيفاً. ولكن [وجّه عينيه البنيتين اللامعتين إليَّ، بنظرة تحمل شيئاً من الاستعطاف] ولكن أرجوك، أعتقد أنك تجري وراء سراب. لا يمكنك أن ترى الوجه الآخر للقمر. أرجوك، لا تسع وراء هذه المرأة. الماضي قد مضى. إنها لا تتذكر أخاك.»

«سيسعدني أن أذكّرها به»، قلت بصوت قوي.

«كما تشاء»، تمتم، ثم استقام في جلسته وبدأ بتزيير معطفه. نهض. «رحلة موفقة»، قال، من دون ابتسامته المعتادة.

«انتظر قليلاً يا سيد سيلبرمان، علينا أن نسوي أمراً. بكم أدين لك؟»

«أجل هذا صحيح»، قال بينما جلس مرة أخرى. «لحظة.» نزع غطاء قلمه الحبري، دوَّن بعض الأرقام على عجالة فوق ورقة، تأملها بينما كان يضغط بأسنانه فوق غطاء القلم: «أجل، ثمانية وستون فرنكاً.»

«حسناً، ليس بالكثير»، قلت، «ألا ترغب ربما...»

«انتظر»، صاح، «هذا خطأ. لقد نسيت... أما زلت تحتفظ بدفتر الملاحظات الذي أعطيتك إياه؟»

«لـمَ، أجل»، قلت، «في الواقع، لقد بدأت باستخدامه. أترى... لقد فكرت...»

«إذاً، فالمبلغ ليس ثمانية وستين»، قال مراجعاً حساباته، «إنه... إنه ثمانون فقط، لأن الدفتر يكلفك خمسة عشر. المجموع ثمانون فرنكاً. تكاليف السفر...»

«ولكن»، قلت مذهولاً بحساباته...

«لا، الحساب الآن صحيح»، قال السيد سيلبرمان.

وجدت معي قطعة عشرين فرنكاً رغم أني كنت لأعطيه أضعاف ما طلب عن طيب خاطر، لو أنه سمح لي.

«إذاً»، قال، «أنت مدين لي الآن... أجل، هذا صحيح. ثمانية عشر زائد اثنين تساوي عشرين»، قطب حاجبيه. «أجل، عشرون. إنها لك.»

وضع قطعة العشرين فرنكاً على الطاولة ومضى.

تساءلت كيف يمكن لي أن أرسل له نسخة من هذا الكتاب بعد أن أنهيه: إن الرجل الصغير الغريب لم يترك لي عنوانه، كان رأسي مشغولاً جداً بأمور أخرى قد أنستني أن أسأله عنواناً، ولكن، إن حدث يوماً وقرأ هذا الكتاب، «الحياة الحقيقية لسبستيان نايت»، أرجو أن يعرف كم أني ممتن لمساعدته التي قدمها. وبالنسبة لدفتر الملاحظات، فقد امتلأ الآن، وعندما أنتهي من استخدام كل صفحاته، سأبدأ بلصق أخرى جديدة فوقها.

بعد مغادرة السيد سيلبرمان، درست بإسهاب العناوين الأربعة التي حصل عليها بطريقة سحرية، وقررت البدء مع المقيمة في برلين. إن خيبت أملي، فسأكون جاهزاً للانقضاض على الثلاث الأخريات الموجودات في باريس، من دون الخوف من إجراء رحلة طويلة أخرى، الرحلة التي من شأنها أن تستنزف كل طاقتي، لأني سأكون مدركاً أنني ألعب بآخر بطاقة أملكها. وفي حال جرى العكس، وكانت رحلتي الأولى موفقة، فإنني عندئذ... ولكن لا، لا يهم. لقد كانت مكافأة القدر لي كبيرة، كبيرة جداً.

كانت الريح تجرف رقاقات كبيرة ورطبة من الثلوج نحو شارع باسوار ستراسيه غرب برلين، عندما وصلت أمام منزل قديم وقبيح، تخفي سقالة نصف واجهته. نقرت فوق زجاج نافذة مسكن البواب، شُقت ستارة الموسلين ثم جُرّت جانباً، فُتحت النافذة، لتظهر امرأة

عجوز متوردة الخدين. أخبرتني أن السيدة هيلين غرينشتاين كانت لا تزال تعيش في المنزل. شعرت بقشعريرة غبطة، غريبة من نوعها، ثم صعدت الدرج. «غرينشتاين»، أعلنت اللافتة النحاسية المعلقة فوق الباب.

سمح لي بالدخول فتى صامت بربطة عنق سوداء، ووجه شاحب ومتورم، دون أن يسألني عن اسمي أو أي أمر آخر؛ استدار وسار نحو آخر ممر الغرف. كانت هنالك معاطف محشودة فوق رف خاص في القاعة الصغيرة. أُلقيت باقة من الأقحوان الأبيض فوق الطاولة بين قبعتين تبدو عليهما الفخامة. وحين لم يأت أحد للقائي، قرعت أحد الأبواب، فتحته، ثم أغلقته مباشرة. لمحت فتاة صغيرة بشعر أسود، مستغرقة بنومها فوق ديوان، يغطيها معطف جلدي. وقفت لدقيقة في منتصف القاعة. مسحت وجهي الذي كان لا يزال يحمل رطوبة الثلج. عصفت حمولة أنفي. ثم غامرت بتقدمي نحو آخر غرفة في الممر. كان الباب مشقوقاً، والتقطت أصواتاً منخفضة تتحدث بالروسية. كان هنالك الكثير من الناس في غرفتين كبيرتين، مفتوحتين على بعضهما، من خلال قوس أو ما شابه. عند اقتحامي المكان، استدار نحوي وجه أو اثنان، بنظرات مبهمة. غير ذلك، لم يثر دخولي أدنى اهتمام عند أحد. لاحظت وجود أكواب شاي نصف منتهية فوق الطاولة، مع طبق يملأه الفتات. كان رجل في الزاوية يقرأ صحيفة. جلست امرأة تلف عنقها بشال رمادي إلى الطاولة، تسند رأسها إلى يدها، مع دمعة قد سقطت من عينها فوق معصمها. جلس شخصان أو ثلاثة آخرون صامتين فوق ديوان. فتاة صغيرة تشبه تلك التي رأيتها نائمة، كانت تداعب كلباً عجوزاً متكوماً فوق كرسي. بدأ أحدهم بالضحك أو اللهاث أو ربما شيء آخر، في الغرفة المجاورة، حيث وُجد عدد أكبر من الأشخاص، بعضهم

جالس وبعضهم الآخر يتجول. مرّ الصبي الذي فتح لي الباب يحمل كوب ماء وسألته بالروسية ما إذا كان مسموحاً لي بالتحدث إلى السيدة هيلين غرينشتاين.

«العمة إيلينا!» قال متوجهاً إلى ظهر امرأة نحيلة متشحة بالسواد، منحنية فوق رجل مسن، قد جلس محدودباً فوق كرسي بذراعين. تقدمت نحوي ثم دعتني للمشي في قاعة استقبال صغيرة، على الجهة الأخرى للممر. كانت شابة صغيرة السن ورشيقة، مع خدين متبرجين وعينين طويلتين ناعمتين، بدت ممتدتين نحو صدغيها. كانت تضع قفازات سوداء، وبدت يداها رقيقتين كما العنق.

«Kahk eto oojahsno... أليس هذا مروعاً؟» همست.

«أخشى أني قد وصلت في الوقت غير المناسب»، قلت مرتبكاً.

«أوه»، قالت، «أظن أنك...» نظرت إليّ. «اجلس»، قالت، «ظننت أني رأيتك قبل قليل في الجنازة... لا؟ حسناً، كما ترى، لقد توفي شقيق زوجي، و... لا، لا، اجلس. لقد كان يوماً مروّعاً.»

«لا أريد إزعاجكم»، قلت، «أفضل أن... كل ما أردته هو التحدث إليك عن أحد أقاربي... الذي أعتقد أنك تعرفينه... من بلاوبيرغ... ولكن هذا لم يعد مهماً الآن...»

«بلاوبيرغ؟ لقد زرت المكان مرتين»، قالت، ثم انتفض وجهها عندما بدأ الهاتف بالرنين في مكان ما من المنزل.

«كان اسمه سبستيان نايت»، قلت، ناظراً إلى شفتيها الرقيقتين المرتجفتين، غير المطليتين.

«لا، لم أسمع في حياتي بهذا الاسم»، قالت، «لا.»

«كان نصف إنكليزي»، أضفت، «وقد كان كاتباً».

هزت رأسها ثم التفت نحو الباب الذي فتحه الفتى الصامت، ابن أخيها.

«صونيا قادمة في غضون نصف ساعة»، قال. أومأت هي برأسها فانصرف هو.

«في الحقيقة لم أتعرف على أي شخص في الفندق»، تابعت. أحنيت رأسي واعتذرت مجدداً.

«ولكن ما اسمك أنت؟» سألت، محدقة في وجهي بعينيها الرقيقتين الحزينتين، اللتين ذكرتاني بكلير، بطريقة أو بأخرى.

«أعتقد أنك ذكرته، ولكن ذهني ليس صافياً اليوم... آوه»، قالت عندما أخبرتها به.

«ولكنه يبدو مألوفاً. ألم يوجد رجل بالكنية ذاتها قد مات مقتولاً في نزال في سانت بطرسبورغ؟ أويكون والدك؟ فهمت. انتظر لحظة. شخص ما... قبل عدة أيام... كان هنالك شخص يتذكر الحادثة. يا للغرابة... دائماً ما تترادف الصدف هكذا. أجل. آل روزانوف... إنهم يعرفون عائلتك وكل...»

«كان لأخي زميل دراسة من آل روزانوف»، قلت.

«يمكنك إيجادهم في دليل الهاتف»، تابعت بعجالة، «فكما ترى، أنا لا أعرفهم بشكل جيد، ثم إنني لست في حالة تؤهلني للبحث عن أي شيء الآن.»

ناداها أحدهم، وبقيت وحدي في الصالة أمشي. وجدت هناك رجلاً مسناً يجلس فوق معطفي ويدخن سيجاراً. لم يستطع في البداية تخمين ما أريد، ولكنه بعد ذلك اعتذر بشدة.

شعرت ببعض الأسف لأنها لم تكن المرأة التي أبحث عنها، رغم وضوح استحالة كونها قادرة على جعل سبستيان بائس التعاسة. لا يمكن للنساء من صنفها تدمير حياة رجل - بل إنهن يبنينها. كانت

هناك تدير شؤون منزل رازح تحت حزن فاجعة، وفي الوقت ذاته، وجدت سبيلاً للاهتمام بشؤون غريبة تخص غريباً عابراً، قد وصل في اللحظة الخاطئة. إنها لم تكتف بالاستماع إليّ فقط، بل أعطتني نصيحة قد أخذت بها فوراً؛ ورغم أن الأشخاص الذين رأيتهم هناك لم تكن لهم أي علاقة ببلاوبيرغ، إلا أنني حصلت على واحدة من أثمن صفحات سبستيان. ولو أن عقلي كان ليعمل بطريقة أكثر منهجية، لتوجب عليّ وضعها في بداية هذا الكتاب، ولكن رحلة بحثي قد طورت سحرها الخاص ومنطقها الخاص، لم أستطع أحياناً منع نفسي من الاعتقاد بأن رحلتي قد أصبحت، شيئاً فشيئاً، حلماً، معتمدة في ذلك على أنماط واقعية لنسج خيالها الخاص، ولكن، ورغم اعتقادي هذا، أجدني مجبراً على الاعتراف أنها لم تضللني أبداً، وأنني، في مسعاي لتقديمي حياة سبستيان، عليَّ اتباع إيقاع تشابكات الأحداث ذاته.

يبدو أن قانون التناغم الغريب هو ما لعب دوراً في ترتيب لقاء يتعلق بأول قصة مراهقة لسبستيان، ووضعها قريبة جداً من أصداء حبه الأخير الغامض. يتقاطع نمطان من حياته، والإجابة هي حياته ذاتها، وهذه أقرب نقطة يمكننا الاقتراب منها في حقيقة كائن بشري. كان في السادسة عشرة من عمره، وهي أيضاً. تُطفأ الأضواء وتُرفع الستارة عن منظر طبيعي في الصيف الروسي؛ نهر متعرج، يغمر الظل نصفه، بسبب أشجار التنوب الداكنة فوق ضفة طينية مرتفعة، والتي بالكاد قد وصل انعكاسها الأسود والعميق إلى الضفة الأخرى، المنخفضة، المشمسة والحلوة، مع زهور المستنقعات، وعشب يلمع ببريق فضي. بشعره القصير، من دون قبعة، بقميصه الحريري الفضفاض المرخي، الذي يكشف تارة عن كتفه وأخرى عن صدره في كل مرة ينحني فيها إلى الأمام أو يعود إلى الخلف، يجذف

سبستيان بقوة مركباً مطلياً بالأخضر اللامع. تجلس فتاة فوق الدفة، ولكننا سنتركها بلا ألوان: مجرد خطوط ملامح، شكل أبيض لم يلونه الرسام. في رحلة بطيئة، يمر يعسوب داكن الزرقة، يعلو ويعلو ثم ينخفض، فوق أوراق النباتات المائية المسطحة. أسماء، تواريخ وحتى وجوه قد طُمست في ذلك الطين الأحمر للضفة المرتفعة، التي، ومن ثقوب فيها، تدخل وتخرج طيور السمامة. أسنان سبستيان تتلألأ. ثم، وعندما يتوقف قليلاً وينظر إلى الخلف، ينزلق القارب، مع هسيس حريري، نحو القصب.

«أنتِ ربان عديم الخبرة»، قال.

يتغير المشهد: تعرج آخر للنهر. مسار يؤدي إلى حافة المياه، يتوقف، يتردد، ثم ينعطف ليعقد حبله بمقعد غليظ. لم يأت المساء بعد، ولكن الهواء ذهبي، والبعوض يؤدي رقصة بدائية تحت شعاع شمس، بين أوراق الحور التي هدأت، هدأت في النهاية، بعد أن نسيت يهوذا(*).

يجلس سبستيان على المقعد ويقرأ بصوت عالٍ بعض القصائد الروسية، من دفتر أسود الغلاف. ثم يتوقف فجأة: قليلاً نحو اليسار، نرى رأس حورية بحر صغيرة، كستنائية الشعر، يبرز من تحت الماء. تتقدم ببطء، سامحة لخصلات شعرها بأن تطفو وراءها. ثم يخرج المستحم العاري من الماء، والذي تبين أنه كاهن القرية، ليجلس فوق الضفة المواجهة، يسد أنفه بمساعدة إبهامه، ثم يضغطه ليخرج الماء منه. يعود سبستيان لتلاوة الشعر على الفتاة التي تجلس

(*) الحور ويهوذا: وفقاً لما يرويه الفلكلور الروسي، فإن يهوذا قد شنق نفسه بحبل مربوط إلى شجرة حور، القصة التي اشتق منها المثل الروسي: يرتجف كشجرة حور. (مترجم)

إلى جانبه. لم يلون الرسام بعد الشكل الأبيض باستثناء ذراع نحيلة قد دبغتها الشمس، من المعصم وحتى المرفق، على امتداد الخط الخارجي، مع بريق يتلألأ تحته.

وكما لو كنا في حلم بايرون(*)، يتغير المشهد مجدداً. إنه الليل الآن. تعج السماء بالنجوم. كتب سبستيان بعد عدّة سنين أن ذلك التحديق في النجوم كان يثير عنده شعوراً بالإعياء والغثيان، كما، علي سبيل المثال، حين ننظر إلى أحشاء وحش ممزق الجثة. ولكن، في ذلك الوقت، لم يكن سبستيان قد عبّر عن هذه الفكرة. الظلام حالك. لا يمكنه تمييز مسار المتنزه. ظلمات مكدسة فوق ظلمات، وبومة تنعق في مكان ما. تظهر فجأة من هاوية سوداء دائرة خضراء صغيرة، وتبدأ بالتحرك: إنها الأرقام المضيئة في ساعة يد (كره سبستيان وضع الساعات بعدما نضج).

«هل من الضروري أن تغادري الآن؟» نسمع صوته متسائلاً.

التغيير الأخير للمشهد: سرب من طيور الكركي المهاجرة على شكل V؛ تذوب أصواتها الناحبة في زرقة السماء اللازوردية، فوق بستان من أشجار التنوب المصفرة. لا يزال سبستيان برفقة أحدهم، يجلس على جذع أبيض ورمادي، لشجرة مبتورة. دراجته ملقاة فوق الأرض، نرى بريقها يلمع بين السراخس. تحوم فراشة Camberwell Beauty لتستقر فوق صدع في الجذع، خافقة بأجنحتها المخملية، وكأنها مروحة. العودة إلى المدينة في الغد، تبدأ المدرسة يوم الاثنين.

«أتكون هذه النهاية؟ أتريدين القول إننا لن نتقابل في الشتاء؟» كرر سؤاله لمرتين أو ثلاث. لا جواب. «ألا تظنين أنك واقعة في

(*) حلم بايرون: قصيدة أخرى لـ جورج غوردن بايرون. (مترجم)

الحب مع هذا الطالب الواقف أمامك - vetovo studenta؟» بقي شكل الفتاة الأبيض فارغاً باستثناء ذراع وكف يد رقيقة تضغط فوق مضخة هواء للدراجات. باستخدام طرف المقبض، كتبت ببطء فوق رمل الأرض الناعمة كلمة «أجل»، وقد كتبته بالإنكليزية، لتخفيف وطأة الاعتراف.

تنزل الستارة. أجل، هذا كل شيء. نعم إنه قليل، ولكنه يخطف الأنفاس. لم يتجرأ يوماً على أن يسأل زميل دراسته، الذي يجلس فوق مقعد مجاور :«كيف حال شقيقتك؟» ولم يسأل أبداً المعلمة العجوز، الآنسة فوربس، التي كانت تمر لإعطاء الدروس بين الحين والآخر، عن الفتاة الصغيرة التي كانت تعلمها أيضاً. وكيف سيكون قادراً في الصيف القادم على المشي مرة أخرى فوق المسارات ذاتها، ومشاهدة الغروب، وركوب الدراجة على طول امتداد ضفة النهر؟ (ولكن الصيف التالي سيكون مكرساً بشكل أساسي للشاعر المستقبلي بان).

تحت ظروف محكومة بالصدفة البحتة، كان شقيق ناتاشا روزانوف هو من أوصلني إلى محطة شارلوتنينبورغ حيث سيأخذني القطار إلى باريس. حدثته عن مدى غرابة ذلك اللقاء الذي جمعني بشقيقته، التي أصبحت أماً سمينة لولدين، والحديث الذي دار بيننا عن ذاك الصيف البعيد في روسيا، الأرض الحلم. أجاب أنه كان راضياً تماماً عن وظيفته في برلين. حاولت، كما حاولت قبلاً ولكن من دون جدوى، أن أجعله يتحدث عن حياة سبستيان المدرسية. «لن تصدق كم هي ذاكرتي سيئة!» أجاب، «إضافة إلى أنني كثير الانشغال، ولا وقت عندي للانجراف عاطفياً وراء أمور تافهة.»

«أوه، ولكن بالتأكيد، بالتأكيد»، قلت، «يمكنك تذكر بعض الحوادث الرائعة، سأثمن أي شيء قد تتذكره...» ضحك.

«حسناً»، قال، «ألم تمضِ ساعات من الثرثرة مع أختي؟ إنها تعشق الحديث عن الماضي، أليست كذلك؟ قالت، أنك ستصفها في كتاب، كما كانت تبدو في هاتيك الأيام، إنها متحمسة جداً لذلك، في الواقع.»

«أرجوك حاول أن تتذكر شيئاً»، أصررت، بعناد.

«قلت لك إني لا أذكر شيئاً أبداً، إنك فعلاً لشخص غريب. لا جدوى من ذلك. لا جدوى. لا يوجد ما هو استثنائي، ما عدا الحماقات العادية: الاستهتار في الدراسة، الغش في الامتحانات، وإطلاق الألقاب على المعلمين. حظينا بأوقات رائعة. على ما أعتقد... ولكن كما تعلم، إن أخاك... كيف أقولها؟... لم يحظ بشعبية كبيرة في المدرسة...»

الفصل الخامس عشر

مكتبة
t.me/soramnqraa

كما قد يكون القارئ قد لاحظ، فإني حاولت أن أضع في هذا الكتاب أقل ما يمكن مما عندي. حاولت أن لا أتطرق إلى ظروف حياتي الخاصة، على الرغم من أني اعتمدت التلميح إليها بين الحين والآخر، لجعل خلفية بحثي أكثر وضوحاً. لذا، فإنني عند هذه المرحلة من قصتي، لن أسهب في شرح بعض الصعوبات التي واجهتني عند وصولي إلى باريس، التي كان لي فيها منزل شبه دائم؛ صعوبات لا تمتّ إلى بحثي بصلة، وإن كنت أذكرها الآن بشكل عابر، فليس ذلك إلا للتأكيد على حقيقة أنني كنت منخرطاً، بكل ما أوتيت من جهد، في رحلة استكشافي لآخر قصة حب عاشها سبستيان، لدرجة أني وضعت جانباً أي مشكلة شخصية قد يستوجب حلها عطلة طويلة.

لم آسف أبداً على بدء رحلتي من برلين. لقد أوصلتني على الأقل إلى التقاط لمحة غير متوقعة لفصل آخر من ماضي سبستيان. والآن، تم استبعاد اسم، ولا يزال أمامي ثلاث فرص أخرى. أسفر دليل الهاتف في باريس عن معلومات مفادها أن «غراون (فون)، هيلين» و«ريكنوي، بول» (لاحظت فوراً غياب الـ «دو» من الكنية)، لهما ذات العناوين التي أملكها. كان احتمال لقاء الزوج أمراً مزعجاً ولكن حتمي. لم أجد اسم السيدة الثالثة، ليديا بوهيمسكي، لا في

دليل الهاتف، ولا في دليل «بوتين»، الدليل التحفة، الذي رُتبت فيه الأسماء وفقاً للشوارع. بكل الأحوال، قد يساعدني عنوانها الذي في حوزتي على إيجادها.

كانت باريس مدينتي، وكنت أعرفها جيداً، لذا كنت أعرف جيداً أيضاً، بقصد اختصار الزمن، ما هو الترتيب المناسب للإجراءات التي عليّ القيام بها، إن أردت إنهاءها خلال يوم واحد. اسمحوا لي أن أضيف، في حال تفاجأ الكاتب بنشاطي ذي الأسلوب المتسرع والمندفع، أني أكره إجراء المكالمات الهاتفية بقدر ما أكره كتابة الرسائل.

الباب الأول الذي قرعته قد فتحه رجل نحيل، طويل، كثيف الشعر، يرتدي قميصاً بأكمام طويلة، لا ياقة له، ولكن خط العنق مزرود بزر نحاسي. كان يحمل حجر شطرنج - الحصان الأسود - في يده. ألقيت عليه تحية بالروسية.

«تفضل، تفضل»، قال لي بلهجة مرحة، كما لو كان يتوقع حضوري.

«اسمي كذا وكذا»، قلت.

«أنا أدعى»، قال بصوت عال، «بال باليتش ريكنوي»؛ ضحك بحرارة كما لو ألقى دعابة. «لو سمحت»، أشار بالحجر الذي كان يحمله نحو باب مفتوح.

دخلت غرفة متواضعة، توجد في إحدى زواياها ماكينة خياطة، ويعبق جوها برائحة خفيفة من أقمشة اللينين. جلس رجل ذو بنية ضخمة جداً أمام طاولة قد فُردت فوقها رقعة شطرنج مشمعة، مع أحجار لا تتناسب بحجمها الكبير مع الخانات الصغيرة. نظر إليها بارتياب، في حين نظرت حاملة السجائر الفارغة، التي كانت في زاوية فمه، في اتجاه آخر. كان هنالك طفل جميل، ربما في الرابعة

أو الخامسة من عمره، راكعاً على الأرض، تحيط به سيارات صغيرة جداً. دحرج بال باليتش الحصان الأسود فوق الطاولة، فانفك رأسه. أعاده «الأسود(*)» إلى مكانه مجدداً، وبعناية تامة.

«اجلس!» قال بال باليتش. «هذا ابن عمي»، أضاف. انحنى الأسود. جلست فوق الكرسي الثالث (والأخير). نهض الطفل واقترب مني، وأظهر لي، صامتاً، قلم رصاص جديداً، أزرق وأحمر. «بإمكاني أن أطيح برأسك الآن لو أردت»، قال الأسود بصوت متجهم، «ولكن لدي خطة أفضل.»

رفع وزيره ثم حشره بين مجموعة من البيادق الصفراء - التي حل كشتبان محل أحدها. قام بال باليتش بهجوم سريع واستولى على الوزير بالقلعة. ثم قهقه عالياً.

«والآن»، قال الأسود بهدوء، في حين توقف الأبيض عن القهقهة، «كش ملك يا حمامتي اللطيفة!»

وبينما راحا يتجادلان حول ما جرى، مع الأبيض محاولاً التراجع عن خطوته غير المدروسة، رحت أنا أتأمل الغرفة. انتبهت للصورة التي تظهر فيها ما بدا أنها كانت في الماضي عائلة إمبراطورية؛ وشارب جنرال شهير، كان ذا شأن عظيم في موسكو، بضع سنوات خلت. لاحظت أيضاً انتفاخ الرفاس المرن للديوان البني، الذي استُخدم، وفقاً لإحساسي، كسرير ثلاثي، لزوجة وزوجة مع طفل بينهما. بدا للحظات أن وجودي هناك سخيف على نحو مجنون. كما أنني، وبطريقة ما، تذكرت جولة الزيارات الغريبة التي قام بها تشيشيكوف في «النفوس الميتة» لغوغول. بدأ الطفل برسم سيارة لي.

(*) الأسود: ويقصد اللاعب بأحجار الشطرنج السوداء. (مترجم)

«أنا في خدمتك»، قال بال باليتش، (كان قد خسر اللعبة، حسبما فهمت، وبدأ الأسود بإعادة الحجارة - ما عدا الكشتبان - إلى صندوق كرتوني قديم). قلت ما كنت مسبقاً قد أعددته بعناية: أي أنني أردت رؤية زوجته، لأنها كانت صديقة... حسناً، لأحد أصدقائي الألمان (كنت خائفاً من النطق باسم سبستيان على الفور). «عليك أن تنتظر قليلاً إذاً»، قال بال باليتش. «إنها ليست هنا، كما ترى. لديها أشغال في البلدة وستعود بعد قليل.»

هيأت نفسي للانتظار، رغم أنني شعرت أنني لن أتمكن اليوم من رؤية زوجته على انفراد. ومع ذلك، شعرت أن استجواباً بسيطاً سيكشف ربما ما إذا كانت على علاقة بسبستيان؛ ثم، شيئاً فشيئاً، سأجرها للتحدث.

«في هذه الأثناء»، قال بال باليتش، «سنتناول القليل من البراندي - كونياكو.»

الطفل، وقد وجد أني قد أبديت ما يكفي من الاهتمام برسمه، مشى نحو عمه، الذي رفعه على الفور إلى حضنه، وبدأ يرسم له، بسرعة لا تُصدق، سيارة سباق رائعة.

«أنت فنان»، قلت - لأقول شيئاً ما.

ضحك بال باليتش، الذي كان في المطبخ يغسل الأكواب، وأدار رأسه جانبياً وصاح: «أوه، إنه عبقري شامل. يمكنه عزف الكمان واقفاً على رأسه، وأن يعرف حاصل ضرب رقميْ هاتف خلال ثوانٍ ثلاث، كما يمكنه كتابة اسمه رأساً على عقب، دون أن يغير خطه.»

«ويمكنه قيادة سيارة أجرة»، أضاف الولد، مؤرجحاً ساقيه النحيلتين المتسختين المدلتين.

«لا، لن أشرب معك»، قال العم الأسود، عندما وضع بال

باليتش الكؤوس فوق الطاولة. «أظن أني سأصحب الصبي في نزهة. أين هي أشياؤه؟»

تم العثور على معطف الصبي، ثم اقتاده الأسود إلى الخارج. صبّ بال باليتش البراندي، ثم قال: «أرجو أن تعذرني لتقديمي هذه الكؤوس. كنت ثرياً في روسيا، ثم كنت ثرياً أيضاً في بلجيكا، عشر سنوات خلت، ولكن بعد ذلك، أصبحت مفلساً. ها هي كأسك. بصحتك!»

«أتعمل زوجتك في الخياطة؟» سألت، لأبقي طابة الحديث في الملعب.

«أجل، إنها تصنع ملابساً للسيدات»، قال بضحكة سعيدة. «وأعمل أنا في التنضيد، ولكني خسرت وظيفتي مؤخراً. ستعود قريباً، أنا متأكد. لست على علم بأن لها أصدقاء ألماناً»، أضاف.

«أعتقد»، قلت، «أنهما تقابلا في ألمانيا، أو ربما كان ذلك في الألزاس.»

كان يعيد ملء كأسه، لكنه توقف فجأة ونظر إليّ.

«أخشى أنك مخطئ»، هتف مستهجناً. «لا بد أنك تقصد زوجتي الأولى. لم تذهب فارفارا ميتروفانا خارج باريس يوماً - باستثناء روسيا، طبعاً -، لقد جاءت إلى هنا من سيباستوبول عبر مارسيليا.» ازدرد كأسه ثم عاد للضحك.

«إنها لبلعة جيدة»، قال بينما نظر إليَّ بفضول. «ألم ألتقِك قبلاً؟ أتعرف زوجتي الأولى بشكل شخصي؟»

هززت رأسي نافياً.

«أنت محظوظ إذاً»، قال بصوت عالٍ. «اللعنة كم أنت محظوظ! لقد أرسلك صديقك الألماني وراء الإوزات البرية الأسطورية، فأنت لن تجدها أبداً.»

«لِمَ؟»، سألت وقد بدأ اهتمامي يتزايد كما فضولي.

«لأنني بعد سنة من فراقنا، والذي وقع منذ زمن بعيد، فقدت أي أثر لها على الإطلاق. رآها أحدهم في روما، وآخر في السويد - ولكني لست متأكداً من ذلك حتى. قد تكون حقاً هناك، وقد تكون في الجحيم. لا آبه لذلك.»

« أيمكنك اقتراح أي وسيلة للعثور عليها؟»

«أبداً»، أجاب.

«معارف مشتركون مثلاً؟»

«كانوا معارفها، وليسوا بمعارفي»، أجاب بصوت مرتعش.

«أتحتفظ بصورة لها، أو ما شابه؟»

«اسمع»، قال، «ما الذي تريد الوصول إليه؟ أتبحث الشرطة عنها؟ لأنني لن أستغرب إن تبين أنها كانت جاسوسة دولية. ماتا هاري(*). إنها من هذا النمط. أوه، تماماً. أترى؟ إنها ليست من النوع الذي يمكن نسيانه بسهولة إن حصل ودخلت مرة في كيانك. لقد امتصّتني حتى النخاع، وبأكثر من طريقة. مالياً وروحياً، على سبيل المثال. كنت لأقتلها... لو لم يكن هناك آناتول.»

«ومن يكون هذا؟» سألت.

«آناتول؟ إنه الجلاد. رجل المقصلة هنا. إذاً، أنت لست مبعوثاً من قبل الشرطة. أليس كذلك؟ لا بد أنه أمر شخصي، على ما أعتقد. ولكنها فعلاً قد أوصلتني للجنون. لقد قابلتها في أوستند، لا بد أن ذلك قد كان... لحظة لأتذكر... أجل، عام ١٩٢٧ - كانت

(*) ماتا هاري: أشهر جاسوسة في التاريخ، هولندية الأصل. تم إعدامها من قبل الفرنسيين رمياً بالرصاص بتهمة التجسس عليهم خلال الحرب العالمية الأولى. (مترجم)

في العشرين من عمرها، لا، لم تكن قد بلغت العشرين بعد. كنت أعرف حينذاك أنها عشيقة لرجل آخر ولكن ما كان الأمر ليعنيني. كانت كل فكرتها عن الحياة مختزلة في الشرب وتناول العشاء عند الرابعة فجراً، ورقص الشيمي، أو أياً كان اسمه، والذهاب في جولات على بيوت الدعارة، لأن ذلك كان رائجاً بين الأوساط الراقية الباريسية، وشراء ملابس باهظة الثمن، وإطلاق شياطينها الجهنمية في الفنادق عندما كانت تشتبه بسرقة الخادمة لقطعة نقدية صغيرة، وجدتها لاحقاً في الحمام... أجل، وكل ما يمكن تخيله من هذا القبيل. يمكنك إيجادها في رواية مبتذلة، إنها نموذج مناسب، مناسب جداً. كانت تهوى ادعاء إصابتها بأمراض مختلقة، والذهاب إلى بعض المنتجعات الصحية، و...»

«لحظة من فضلك»، قلت. «إنها نقطة مهمة بالنسبة لي. أكانت وحدها في بلاوبيرغ عام ١٩٢٩؟» مكتبة سُر مَن قرأ

«بالضبط، ولكن ذلك قد كان في آخر زواجنا. كنا حينذاك نقطن في باريس، ثم افترقنا بعد ذلك، وذهبت أنا للعمل لسنة واحدة في مصنع في ليون. كنت مفلساً. فهمتني؟»

«أتقصد أنها قد تعرفت على رجل ما في بلاوبيرغ؟»

«لا. هذا ما لا أعرفه. لا أظن أنها كانت لتخدعني إلى هذا الحد، ليست بهذه الحقارة - أو لنقل إن هذا ما أجبرت نفسي على الاعتقاد به، لأنها كانت محاطة دائماً بالرجال، ولم تكن تمانع تقبيلهم لها، على ما أفترض، ولكني لو أخذت الأمر على محمل الجد لكنت أصبحت مجنوناً. أذكر ذات مرة...»

«عذراً»، قاطعته ثانية، «لكن أولم تسمع مرة بصديق لها كان إنكليزياً؟»

«إنكليزي؟ أذكر أنك قلت ألماني! لا. لا أعرف شيئاً. كان

هنالك شاب أمريكي في شارع سانت ماكسيم عام ١٩٢٨، على ما أعتقد، وكان يغمى عليه كلما راقص نينكا - و... حسناً، ربما كان هنالك إنكليزيون في أوستيند أو أماكن أخرى، ولكني صدقاً لم أزعج نفسي يوماً بمعرفة جنسيات معجبيها.»

«إذاً أنت متأكد أنك لا تعرف شيئاً عن أمور بلاوبيرغ، و... حسناً، وعمّا جرى بعد ذلك؟»

«لا»، قال. «لا أعتقد أنها كانت مهتمة بأحد ما هناك. كانت تمر في إحدى مراحل مرضها آنذاك - وكانت آنذاك تأكل مثلجات الليمون والخيار فقط، وتتحدث عن الموت وعن النيرفانا، أو ما شابه. كانت تعاني من هذا النوع من الهلوسات. أفهمت ما أعني؟»

«ما كان اسمها بالضبط؟» سألت.

«حسناً، كان اسمها نينا توروفيتز عندما التقيتها. لكن حتى وإن... لا، لا. لا أعتقد أنك ستجدها. في واقع الأمر، كثيراً ما أحاول إقناع نفسي أنها لم تظهر في حياتي أصلاً. لقد أخبرت فارفارا ميتروفانا عنها، وقالت إنها مجرد حلم مزعج بعد حضور فيلم سينمائي سيّئ. أوه. أنت لن تذهب فوراً، أليس كذلك؟ ستحضر قريباً...» نظر إليَّ وضحك (أعتقد أن ذلك البراندي قد أخذ منه أي مأخذ).

«أوه، لقد نسيت»، قال. «إنها ليست زوجتي الحالية من تود رؤيتها. وبالمناسبة»، أضاف، «إن أوراقي الخاصة مثالية الترتيب. أستطيع أن أريك بطاقة عملي. وإن وجدتها، أتمنى أن أراها قبل اقتيادها إلى السجن. أو ربما من الأفضل أن لا أفعل.»

«حسناً، شكراً للمحادثة»، بينما كنت نتصافح بحرارة - أولاً في الغرفة، ثانياً في الردهة، وثالثاً أمام الباب.

«أنا أشكرك»، قال بال باليتش. «كما ترى، أنا أحب التحدث عنها. كما أنني آسف لأنني لم أحتفظ بأي صورة لها.»

وقفت للحظة مسترسلاً. أتراني قد عصرت كل ما عنده؟ حسناً... يمكنني دائماً أن أراه مرة ثانية. أيمكن لصورتها أن تكون في أي من تلك المجلات التي تعرض الفراء، السيارات، الكلاب وأزياء الريفييرا؟ سألته عن ذلك.

«ربما»، أجابني، «ربما. لقد حصلت على جائزة مرة في حفلة تنكرية، ولكني لم أعد أذكر أين حصل ذلك. إن كل المدن هي بالنسبة لي مطاعم وقاعات رقص.» هز رأسه مطلقاً ضحكة مدوية، ثم صفق الباب. كان العم الأسود والفتى يصعدان ببطء على الدرجات التي هممت بنزولها.

«كانا ياما كان»، كان العم الأسود يقول، «كان هنالك بطل سباق سيارات ولديه سنجاب صغير... »

الفصل السادس عشر

كان انطباعي الأول أنني حصلت على ما أردت - وهو أنني على الأقل قد عرفت من كانت عشيقة سبستيان؛ ثم بدأت بتهدئة نفسي. أتكون حقاً هي، زوجة الثرثار الأولى؟ رحت أتساءل بينما كنت في سيارة الأجرة نحو هدفي الثاني. أيكون من المجدي يا ترى متابعة هذا المسار المعقول، والمعقول جداً؟ تلك الصورة التي استحضرها بال باليتش، أوليست واضحة جداً؟ امرأة مستهترة قادرة على تدمير حياة رجل أحمق بنزواتها. ولكن هل كان حقاً سبستيان أحمق؟ تذكرت فوراً نفوره الحاد من كل الناس واضحي السوء أو واضحي الطيبة؛ ومن كل أشكال المتع الجاهزة أو المحن النمطية. امرأة من نوعها ستصيبه بالتوتر فوراً. ما نوع الحوار الذي كانت قادرة على إجرائه معه، لو سلمنا جدلاً أنها تمكنت من التعرف في بلاوبيرغ على ذلك الإنكليزي الصامت، المنطوي على ذاته وشارد الذهن. كان ليتجنبها حتماً بعد أن تنفث أفكارها. اعتاد أن يقول إن الفتيات السريعات لهن عقول بطيئة، وإنه لا يمكن أن يوجد ما هو أكثر مللاً من مرافقة امرأة جميلة تحب اللهو والمرح؛ لا بل قال ما هو أسوأ: حتى وإن كنت تنظر إلى أجمل فتاة وهي تخوض حديثاً تافهاً، فإنك ستجد في جمالها عيباً ولو صغيراً، يتناسب مع أفكارها. ربما لم يكن ليمانع في قضم تفاحة الخطيئة، لأنه لم يكترث يوماً لفكرة

الخطيئة، ناهيك عن أنه كان يعتبرها مفهوماً ركيكاً؛ ولكنه كان يمانع مربى التفاح، المصنَّع والمعلَّب. كان يغفر لامرأة ما كونها لعوباً، وعلى العلن، ولكنه لم يكن ليتحمل أبداً الألغاز المخزية. لربما كان ليستمتع بعاهرة تشرب الجعة حتى الثَّمَل، ولكنه لم يكن يغفر للعوب متمرسة تلميحها إلى رغبتها الملحّة في تدخين الحشيش. كلما فكرت في الأمر، قلّت احتمالية إمكانيته... بكل الأحوال، يجب ألّا ألقي لهذه الفتاة بالاً، قبل أن أنظر في أمر الاحتمالين الآخرين.

وهكذا، دخلت بخطوة حماسية إلى البيت شديد الفخامة (في منطقة أنيقة جداً من المدينة) الذي توقفت أمامه سيارة الأجرة. أخبرتني الخادمة أن السيدة لم تكن موجودة، ولكنها بعد أن رأت خيبة أملي، طلبت مني الانتظار لحظة، ثم عادت تقترح عليَّ، إن أردت، التحدث إلى صديقة السيدة فون غراون، السيدة لوسيرف. تبين أنها شابة صغيرة الحجم، رقيقته، بوجه شاحب وشعر أسود ناعم. فكرت أنني لم أر في حياتي وجهاً بهذا الشحوب؛ كانت ياقة فستانها الأسود عالية، وكانت تستخدم حاملة سجائر سوداء طويلة.

«ترغب إذاً في رؤية صديقتي؟» قالت، وكانت هناك، كما اعتقدت، أناقة الأيام الخوالي، في فرنسيتها الواضحة كالكريستال.

قدمت نفسي.

«أجل»، قالت، «رأيت بطاقتك. أنت روسي، أليس كذلك؟»

«لقد جئت هنا»، بدأت بالشرح، «في مهمة حساسة للغاية. ولكن أخبريني أولاً، أيحق لي الافتراض أن السيدة غراون واحدة من أبناء موطني؟»

«بلى، إنها روسية بكل ما فيها»، أجابت بصوتها الناعم الرنان. «كان زوجها ألمانياً، ولكنه كان يتحدث الروسية أيضاً.»

«أوه، استخدام واعد للزمن الماضي!»

«بإمكانك أن تكون صريحاً معي»، قالت السيدة لوسيرف. «أنا أيضاً أحب المهمات الحساسة.»

«أنا أكون من أقارب كاتب إنكليزي»، قلت، «سبستيان نايت، الذي مات قبل شهرين؛ وأنا أحاول كتابة سيرة حياته. كانت له صديقة مقربة قد التقى بها في بلاوبيرغ، حيث أقام عام ١٩٢٩. أحاول تتبّع أثرها. هذا كل ما في الأمر.»

«يا لها من قصة غريبة!» هتفت. «وما الذي تريدها أن تخبرك به؟»

«أي ما تسمح به... ولكن هل فهمتك بشكل صحيح؟ أتعنين أن السيدة غراون هي المعنية؟»

«ممكن جداً»، قالت، «رغم أني لا أذكر أني سمعت منها يوماً ذلك الاسم بالتحديد... ما كان اسمه؟»

«سبستيان نايت.»

«لا. ولكن لا تزال الإمكانية قائمة. كان لها أصدقاء أينما حلت. ومن المؤكد»، أضافت، «أنه يتوجب عليك التحدث معها شخصياً. أوه، أنا متأكدة أنك ستجدها ساحرة. ولكن يا للقصة الغريبة!» بقيت تكررها بينما راحت تنظر إليَّ مبتسمة. «لم عليك أن تكتب سيرة حياته؟ وكيف حدث أنك لا تعرف اسم المرأة؟»

«كان سبستيان نايت شخصية متكتمة»، شرحت. «ورسائل تلك السيدة التي كان يحتفظ بها... حسناً، لقد طلب إتلافها بعد موته.»

«هذا صحيح»، قالت بنبرة مرحة، «يمكنني فهمه تماماً. مهما كلف الأمر، على رسائل الحب أن تُحرق. ماضي الأمس حريق اليوم. إنه وقود نبيل. أترغب في كوب من الشاي؟»

«لا»، قلت، «ما أرغب فيه حقاً هو أن أعرف متى يمكنني رؤية السيدة غراون.»

«قريباً»، قالت السيدة لوسيرف. «إنها ليست في باريس حالياً، ولكن أعتقد ينه يمكنك الاتصال مجدداً غداً. أجل، لا بأس في ذلك، على ما أظن. حتى أنها قد تعود الليلة.»

«أتسمحين بإخباري»، قلت، «المزيد عنها؟»

«حسناً، هذا سهل»، قالت السيدة لوسيرف. «إنها مغنية بارعة... أغانٍ غجرية، هذا النوع من الأغاني، كما تعرف. إنها فائقة الجمال. إنها تلهب المشاعر. أحبها على نحو فظيع، ولدي دائماً في هذه الشقة غرفة، كلما جئت إلى باريس. بالمناسبة، هذه صورتها.»

ببطء وسكون، عبرت الصالة المكسوة بسجاد كثيف، وتناولت صورة كبيرة مؤطرة من فوق البيانو. حدقتُ للحظة في وجه فاتن، يشيح عني بنصف استدارة. الالتواء الناعم للخد، وتقوس الحاجب الشبحي، كانا يشيان بملامح روسية، كما فكرت. كان هنالك بريق فوق الجفن السفلي، وفوق الشفتين القاتمتين والممتلئتين. بدا في تعابير وجهها مزيج من الحلم والمكر.

«أجل»، قلت، «أجل...»

«لمَ؟ أتكون هي؟» سألت السيدة لوسيرف بفضول.

«ممكن»، أجبت، «وأنا في غاية التوق لمقابلتها.»

«سأحاول بنفسي اكتشاف الأمر»، قالت السيدة لوسيرف بروح تآمرية ساحرة. «لأنني، كما ترى، أعتقد أن تأليف كتاب عن شخص تعرفه، هو أكثر صدقاً من اقتباس أحداث حياته ثم مزجها وتقديمها على أنها اختراعك.»

شكرتها وودعتها على الطريقة الفرنسية. كانت يدها صغيرة بشكل ملحوظ، وعندما ضغطت فوقها بقوة، دونما قصد، جفلت،

لأنه كان هنالك خاتم كبير في الإصبع الوسطى. لقد آلمني قليلاً أيضاً.

«غداً، في الوقت ذاته»، قالت وضحكت بلطف. شخصية لطيفة ومؤثرة إلى أبعد حد.

لم يكن اللقاء قد أثمر بعد عن جواب، ولكني شعرت بالنجاح في تقدمي. بقي عليَّ الآن أن أريح عقلي من جهة ليديا بوهيمسكي. عندما وصلت إلى العنوان الذي كان بحوزتي، أخبرني البواب أن السيدة قد انتقلت قبل عدة أشهر خلت. قال إنه يعتقد أنها تقيم في فندق صغير في آخر الشارع. هناك أعلموني أنها كانت قد تركت المكان قبل أسابيع ثلاث، وأنها تعيش في الطرف الآخر من المدينة. سألت مخبري ما إذا كان يعتقد أنها روسية. ردّ بالإيجاب. «امرأة وسيمة بشعر أسود؟» سألت مقترحاً، مستخدماً حيلة شيرلوك هولمز القديمة. «بالضبط»، قال. ربما قالها لإسكاتي والتخلص مني (كان يمكن للجواب الصحيح أن يكون: أوه لا إنها شقراء قبيحة). بعد نصف ساعة، دخلت منزلاً يوحي مظهره بالكآبة، قريباً من سجن سانتيه. أجابت على جرسي امرأة مسنة سمينة، بشعر متماوج ذي لون برتقالي لامع، خدين بنفسجيين، وبعض زغب أسود فوق شفتها العليا المطلية.

«أيُسمح لي بالتحدث إلى الآنسة ليديا بوهيمسكي؟» قلت.

«أنت تتحدث إليها فعلاً»، أجابت بلكنة روسية رهيبة.

«إذاً، سأحضر الأشياء»، تمتمتُ وغادرتُ المكان مسرعاً. يتهيأ لي أحياناً أنها لا تزال واقفة تنتظرني أمام الباب.

عندما ذهبت في اليوم التالي إلى منزل السيدة فون غراون، قادتني الخادمة نحو غرفة أخرى - يمكن القول إن مخدع سيدة قد بذل قصارى جهده ليبدو ساحراً. كنت قد لاحظت، ومنذ اليوم

الفائت، أن تدفئة الشقة عالية جداً، وبما أن الطقس الخارجي، كان رطباً جداً وقليل البرودة، فإن تلك التدفئة المركزية بدت أمراً جهنمياً مبالغاً فيه جداً. بقيت منتظراً لوقت طويل. كان هنالك العديد من الروايات الفرنسية القديمة فوق الكونصول؛ ينتمي معظمها لأدب الجوائز، ونسخة قد بدت عليها علامات كثرة الاستخدام ، من قصة «سان ميشيل» لآكسيل مونت(*). باقة من القرنفل قد وقفت زاهية في إناء متفاخر. وُجدت حوله بعض أواني الزينة الهشة - قد تكون جميلة وباهظة الثمن، ولكني لطالما شاركت سبستيان في مقته المَرَضي لكل ما هو مصنوع من الزجاج أو في الصين. أخيراً وليس آخراً، كانت هنالك قطعة أثاث زائفة ومطلية، وقد احتوت، حسبما شعرت، هول الأهوال: جهاز راديو. نظراً إلى كل ما رأيت، بدا لي أن هيلين فون غراون ذات شخصية تتمتع «بذوق وثقافة». وأخيراً فتح الباب، والمرأة التي رأيتها بالأمس، انسلت في الغرفة بمشية جانبية - كان رأسها مستديراً نحو الخلف وللأسفل، تتحدث إلى ما تبين أنه كلب بولدوغ لاهث، وله شكل الضفدع، كان متأخراً عنها في بخترته.

«تذكّر خاتمي!» قالت بينما مدت نحوي يدها الصغيرة الباردة. جلستْ فوق الأريكة الزرقاء، وسحبت نحوها كلبها الثقيل. «تعال يا كلبي العجوز»، نطقت لاهثة، «تعال. إنه يعاني في غياب هيلين»، ، قالت، بينما حشر الوحش نفسه بين الوسائد المريحة. «إنني خجلة منك، فقد أخبرتك أنها ستعود مع الصباح، ولكنها اتصلت من

(*) آكسيل مونت: طبيب سويدي وعالم نفس وكاتب (١٨٥٧-١٩٤٩)، كان يتحدث بخمس لغات، ويعالج الفقراء مجاناً وكان محامي دفاع عن حقوق الحيوانات التي كرس لها جزءاً كبيراً من حياته واهتمامه.

ديجون وقالت إنها لن تعود قبل يوم السبت (كان يومذاك الثلاثاء). أنا بأشد الأسف. لم أعرف أين أجدك لإخبارك. إنها لخيبة كبيرة، أليس كذلك؟» - ثم نظرت إليّ، مع ذقنها متكئاً فوق كفّيها المتشابكتين، ومرفقيها الحادين، بأكمام المخمل الضيقة، مسندين إلى ركبتيها.

«حسناً»، قلت، «سأجد بعض تعزية إن أخبرتني المزيد عن السيدة غراون.»

لا أعرف لماذا، ولكن الجو قد حرضني على الإتيان بكلمات وتصرفات متكلفة.

«لدي ما هو أكثر»، قالت وقد رفعت إصبعها بظفرها المقلم بطريقة حادة، «لدي مفاجأة صغيرة لك. علينا أولاً تناول الشاي.» وجدت أنني لا أستطيع رفض المشاركة في مهزلة الشاي هذه المرة؛ كانت الخادمة قد جرّت، بالفعل، الطاولة التي تحمل عُدّة الشاي المتلألئة.

«ضعيها هنا يا جانين!» قالت السيدة لوسيرف. «أجل، هذا جيد.»

«والآن، عليك أن تكون صريحاً جداً معي»، قالت السيدة لوسيرف، «وتخبرني كيف تحب تناول كوب شاي. أظنك تحبه مع القشدة، إن كنت قد عشت في إنكلترا. تبدو إنكليزياً، أتعرف ذلك؟»

«أفضّل أن أبدو روسياً»، قلت.

«أخشى أني لم أتعرف إلى أي روسي، باستثناء هيلين، بالطبع. أعتقد أنك ستجد هذا البسكويت لذيذاً.»

«وما هي مفاجأتك؟» سألت.

كانت لها طريقة غريبة بالنظر إلى الشخص أمامها، إذ كانت تحدق، ليس في العينين، بل أسفل الوجه كما لو أنها تتفحص فتاتاً

فوق الذقن. كانت نموذجاً خفيفاً للمرأة الفرنسية، وقد وجدت في بشرتها الشفافة وشعرها الداكن جاذبية كبيرة.

«آه»، قالت، «لقد سألتها عن أمر حين اتصلت، و ــــ» توقفت كما لو كانت تستمتع بقلة صبري.

«فأجابت»، قلت أنا، «أنها لم تسمع باسمه مطلقاً.»

«لا»، قالت السيدة لوسيرف، «لقد ضحكت فقط، ولكني أعرف ضحكتها هذه.»

وقفت، وذرعت الغرفة جيئة وذهاباً.

«ولكن الأمر ليس بالمضحك»، قلت، «أليس كذلك؟ ألا تعرف أن سبستيان نايت قد مات؟»

أغلقت السيدة لوسيرف عينيها على «أجل» صامتة، ثم عادت للنظر إلى ذقني.

«هل رأيتها مؤخراً؟ أقصد هل رأيتها في يناير حين انتشر نبأ موته في الصحف؟ ألم تأسف لذلك؟»

«اسمع يا صديقي العزيز»، قالت السيدة لوسيرف، «أنت غريب بسذاجتك، هنالك أنواع عديدة للتعبير عن الحب كما عن الأسى. لنفترض أن هيلين هي من تبحث عنها، لمَ تريدنا أن نفترض مسبقاً أنها قد أحبته لدرجة تحزن معها على نبأ موته؟ وربما تكون قد أحبته بالفعل، ولكن لها ردة فعل خاصة تجاه الموت، ليست بالضرورة هيستيرية. ماذا نعرف نحن عن تلك الأمور؟ إنها علاقة تخصها هي. وهي من سيخبرك عنها. ولكن وحتى حينذاك، أعتقد أنه ليس من العدل أن تهينها!»

«لم أهنها»، هتفتُ عالياً. «أنا آسف إن بدا الأمر كذلك. ولكن وبما أننا نتحدث عنها، أخبريني! منذ متى تعرفينها؟»

«أوه، لم أرها كثيراً في السنوات الأخيرة ما عدا هذه الزيارة - إنها كثيرة الأسفار كما تعرف. ولكننا كنا زميلتيْ دراسة، هنا في باريس. كان والدها رساماً روسياً، على ما أعتقد. كانت شابة صغيرة عندما تزوجت من ذلك الأحمق.»

«أي أحمق؟» سألت مستفسراً.

«حسناً، أقصد زوجها طبعاً. معظم الأزواج حمقى، ولكن خاصتها كان خارج المنافسة. لم يدم زواجهما طويلاً، لحسن الحظ. أترغب في واحدة؟» قدمت إليَّ ولاعتها. غرق البولدوغ في نومه. نهضت وتكورت فوق الأريكة، مفسحة مجالاً لي. «لا تبدو خبيراً في شؤون النساء، ألست كذلك؟» سألت بينما راحت تداعب كعبها.

«أنا مهتم بشؤون امرأة واحدة»، أجبت.

«وكم عمرك؟» تابعت. «ثمانية وعشرون؟ أتراني حزرت؟ لا؟ حسناً، فأنت تزيدني عمراً. ولكن ليس مهماً. ماذا كنت أخبرك؟... أجل. أنا أعرف بعض الأمور عنها - منها ما أخبرتني هي بها، ومنها ما التقطته بنفسي من هنا وهناك. الرجل الوحيد الذي أحبته كان متزوجاً، وقد حصل ذلك قبل زواجها هي. كانت آنذاك مجرد مراهقة وقد يكون قد سئم منها أو شيئاً من هذا القبيل. خاضت قليلاً من العلاقات بعد ذلك، ولكن لم تكن بتلك الأهمية. لا شيء يحيي قلب امرأة قد مات. ثم كانت هنالك قصة قد روتها لي بكل تفاصيلها - كانت قصة محزنة.»

ضحكت. كانت أسنانها كبيرة جداً نسبة لفمها الضئيل.

«يبدو الأمر وكأن صديقتي تكون حبيبتك أنت»، قالت بنبرة مغيظة. «بالمناسبة، أردت أن أسأل كيف وصلت إلى العنوان - أعني، ما الذي دفعك للبحث عن هيلين؟»

أخبرتها عن العناوين الأربعة التي حصلت عليها من بلاوبيرغ. وذكرت الأسماء.

«يا للروعة!» صاحت. «هذا ما أسميه بالحيوية! ها أنت هنا، وكنت قبلاً في برلين؟ واتضح أنها يهودية؟ رائع! هل قابلت البقية أيضاً؟»

«رأيت واحدة»، قلت، «وكان ذلك كافياً.»

«أي واحدة؟» سألت بطفرة من البهجة التي لا يمكن السيطرة عليها.

«من؟ السيدة ريكنوي؟»

«لا، هذه كانت قد اختفت بعد أن تركت زوجها الذي يعيش الآن مع زوجة أخرى.»

«أنت ساحر، ساحر!» قالت السيدة لوسيرف، بينما مسحت عينيها لتنفجر بضحكة جديدة. «لا يمكنني تخيلك وقد اقتحمت المكان، لتواجه شخصين بريئين! أوه، لم أسمع بحياتي بما يضحك إلى هذا الحد. هل دحرجتك زوجته فوق الدرج أم ماذا؟»

«دعينا نتخطى هذه السيرة» قلت بصوت فظ، إذ كنت قد اكتفيت من مرح تلك الفتاة. أخشى أنها كانت لديها روح الدعابة الفرنسية تلك المرتبطة بأمور وقصص الزواج، التي كنت، ربما، لأسعد وأستمتع بها لو كنت في ظرف آخر؛ ولكن للحظتي تلك، شعرت أن نظرتها غير اللائقة عن بحثي قد قللت، بطريقة ما، من احترام ذكرى سبستيان. ومع تعمق شعوري ذاك، وجدت نفسي فجأة أفكر أن ربما كل ما أقوم به هو غير لائق أيضاً، وأن جهودي الخرقاء التي أبذلها في سبيل مطاردة شبح، قد أغرقت أي فكرة قد أشكّلها يوماً عن حب سبستيان الأخير. وهل تراه سبستيان سيكون راضياً عن هذا الجانب البشع من البحث الذي أقوم به إكراماً له؟ وفي هذه السيرة الذاتية،

هل سيجد بطلها في حيلها والتواءاتها من «الشهامة» ما يجعله يغفر تخبط كاتبها؟

«سامحني أرجوك»، قالت، أحنت رأسها ونظرت إليّ، واضعة يدها الباردة فوق يدي. «يجب ألّا تكون حساساً لهذه الدرجة.»

نهضت سريعاً ومشت نحو ذلك الشيء الماهوغني في الزاوية. نظرت إلى ظهرها البناتي النحيل بينما كانت منحنية - وحزرت ما كانت على وشك القيام به.

«لا، ليس هذا، حباً بالله!» هتفت صائحاً.

«لا؟» قالت، «ظننت أن قليلاً من الموسيقى قد تهدئ أعصابك. وتخلق جواً مناسباً لحديثك. لا؟ حسناً. كما تريد.»

هز الكلب نفسه ثم عاد للاستلقاء ثانية.

«هذا صحيح»، قالت بصوت يحمل شيئاً من التجهم.

«كنت على وشك أن تخبريني»، ذكّرتها.

«أجل»، قالت، بينما جلست إلى جانبي، وقد شدت هدب تنورتها حين رفعت ساقاً لتلفّها فوق الأخرى. «حسناً، لا أعرف من كان الرجل، ولكني فهمت أنه من النوع القاسي. قالت إنه كان يحب مظهره وحركات يديه والطريقة التي يتحدث بها، وكانت قد اعتقدت أن حب رجل مثله سيكون ممتعاً؛ إذ إنه قد بدا لها مثقفاً جداً، ومختلفاً، أي النوع الذي تشعر بالتسلية حين تلقاه. ولكن الرجل الذكي يمشي على الأربعة ويختفي فجأة، ويهز ذنبه... ما الأمر الآن يا سيدي العزيز؟»

«ما الذي تتفوهين به بحق الجحيم؟»، صحت. «متى وأين حصلت هذه القصة؟»

«ولكن عفواً! أنا لست دفتر تقويم صديقتي. أنت لن تقبل لي بهذا، صحيح؟ لم أُعن مرة بسؤالها عن التواريخ والأسماء، وإن

كانت قد أخبرتني بها بنفسها، فإنني نسيتها. لا أرجوك! لا تسألني أي سؤال: أنا أخبرك بما أعرفه، وليس بما تود أنت معرفته. لا أعتقد أنه كان قريبك، ولكني متأكدة أنه لا يشبهك طباعاً، بقدر ما يمكنني الحكم من خلال ما سمعته منها وما أراه منك؛ أنت شاب لطيف وطموح، بينما هو، حسناً، هو كان أي شيء ما عدا لطيفاً. لقد أصابته لعنة رهيبة حين وقع في غرام هيلين. أوه لا، لا تظن أنه تحول إلى جرو عاطفي، كما توقعت هي. لقد أخبرها بفظاظة أنه يراها رخيصة ومغرورة، ثم قبّلها ليتأكد أنها لم تكن تمثالاً مرمرياً. حسناً، أثبتت أنها لم تكن. ثم اكتشف بعد ذلك أنه لا يمكنه العيش من دونها، ثم اكتشفت هي أنها قد اكتفت من سماعه يتحدث عن أحلامه، والأحلام التي يراها في أحلامه. انتبه! أنا لا أدين أي منهما. ربما كان كلاهما مصيباً والعكس صحيح. ولكن صديقتي، لم تكن المرأة التي ظنها - كانت مختلفة تماماً، وكانت تعرف عن الحياة والموت والناس، أكثر بقليل مما ظن بنفسه أنه يعرف. لقد كان من نوع الرجال ذاك الذي يرى كل الكتب الحديثة سخيفة، وكل الشبان حمقى، بسبب أنه، بكل بساطة، مشغول جداً بأحاسيسه وأفكاره الخاصة عن فهم تلك الخاصة بالآخرين. قالت، إنه يمكن تخيل ذوقه ونزواته، والطريقة التي يتحدث فيها عن الأديان؛ لا بد أنها كانت طريقة مروعة، على ما أتصور. وعلى الرغم من كونه شخصاً مرحاً جداً وحيوياً جداً، إلا أنها كانت، يا صديقي، تشعر معه بالضيق وبالتقدم بالسن. إذ إنه ما كان ليبقى معها لفترة طويلة، ولو لمرة واحدة. كان يأتي على حين غرة، ويجلس فوق أريكة صغيرة، مع يديه مطبقتين فوق مقبض عصاه، دون أن ينزع قفازاته، وكان يحدق في الفراغ طويلاً. بعد وقت قريب، بدأت بصداقة جديدة مع آخر قد عبدها، وكان، أوه، أكثر اهتماماً ولطفاً ورصانة

من الرجل الذي افترضتَ مخطئاً أنه شقيقك (لا تعبس، أرجوك)، ولكنها لم تتعلق بأي منهما، وقالت إنه كان من المذهل رؤيتهما كيف كانا يتبادلان العبارات المهذبة، عند تلاقيهما. كانت تحب السفر، ولكنها أينما وجدت مكاناً جميلاً بحق، حيث يمكنها نسيان المشاكل وكل شيء، كانت تراه يظهر فجأة في المنظر الطبيعي أمامها، ويجلس إلى طاولتها فوق الشرفة، ليقول لها إنها رخيصة ومغرورة، وإنه لم يتمكن من العيش من دونها. أو أنه كان ليلقي خطاباً طويلاً بحضور أصدقائه، الشبان المولعين بالضحك؛ خطاب طويل وغامض عن شكل منفضة السجائر أو لون الزمن، وكان إذاً ليجد نفسه وقد تُرك وحيداً فوق الكرسي، يضحك لنفسه كالغبي، أو يتحسس نبضه ويعده. سآسف حقاً إن تبين أنه قريبك، لأنني لا أعتقد أنها تحتفظ بذكريات استثنائية البهجة عن أيامه، التي أصبح مؤذياً جداً في نهايتها، كما قالت، وما عادت سمحت له بلمسها مطلقاً، لأنه كان يُصاب بنوبة أو ما شابه في حالة الإثارة. ذات يوم، في النهاية، عندما علمت أنه سيصل بقطار الليل، طلبت من شاب كان مستعداً لفعل أي شيء لإرضائها، أن يلقاه ويخبره أنها لم تعد راغبة في رؤيته أبداً، وأنه إن حاول الوصول إليها، فإن لها أصدقاء يعرفون كيف يتعاملون مع غريب مزعج. لا أعتقد أن ذلك كان لطيفاً من قبلها، ولكني واثقة أنها اعتقدت أن ذلك لهو خير له، على المدى الطويل. وقد كانت محقة. لقد توقف عن إرسال توسلاته المعتادة، التي لم تكن تقرأها أبداً، بكل الأحوال. لا، لا حقاً، لا أعتقد أنه هو. إن كنت أخبرك بكل هذا، فربما لأني أريد أن أرسم لك صورة عن هيلين، وليس عن عشاقها. كانت مليئة جداً بالحياة، على أهبة الاستعداد الدائم لمنح لطفها للجميع، طافحة بتلك البهجة الحيوية التي كانت، علاوة على ذلك، متماشية تماماً مع فلسفة فطرية، ومع

فهم شبه ديني لظواهر الحياة. وبمَ أفادها كل ذلك؟ الرجال الذين أحبتهم قد أثبتوا أنهم مخيبين للآمال، كل النساء، باستثناء القليلات، لسن أكثر من كونهن قططاً، ولقد صرفت معظم حياتها في محاولتها لتكون سعيدة في عالم قد قام بكل ما بوسعه لتحطيمها. حسناً، سوف تراها بنفسك وتحكم ما إذا أنصفتها بكلماتي هذه أم لا.»

بقينا صامتين لفترة طويلة. للأسف، ما عاد لدي أي شكوك، على الرغم من أن صورة سبستيان قد بدت فظيعة، ولكني، على الأقل، قد وقعت عليها.

«طبعاً»، قلت، «سأراها مهما كلف الأمر. وهذا لسببين: أولاً لأنني أريد أن أطرح عليها بعض الأسئلة - في الحقيقة سؤال واحد، وثانياً...»

«أجل»، قالت السيدة لوسيرف بينما كانت تحتسي شايها البارد، «الثاني؟»

«ثانياً، لأنني لا يمكنني أن أتخيل كيف يمكن لامرأة مثلها أن تجذب أخي؛ لذا، أريد أن أراها بعيني.»

«أتقصد بقولك»، سألت السيدة لوسيرف، «أنها امرأة مروِّعة وخطيرة؟ امرأة قاتلة؟ لأنك مخطئ إن فعلت. إنها بطيبة رغيف طازج.»

«أوه، لا»، قلت، «ليست مروِّعة، ولا خطيرة. بل ذكية، إن أعجبك القول، ولكن لا، عليَّ أن أراها بنفسي.»

«من يبقَ حياً يرَ»، قالت السيدة لوسيرف. «والآن اسمع! لدي اقتراح. أنا مسافرة في الغد. وأنا خائفة من حضورك يوم السبت، فقد تكون هيلين في عجلة من أمرها - إنها دائماً مستعجلة، كما تعرف - وحينذاك سوف تؤجلك لليوم التالي، متناسية أنها في اليوم

التالي ستأتي لزيارتي في منزلي في الريف، حيث ستبقى لمدة أسبوع: وهكذا سيفوتك لقاؤها مرة أخرى. بعبارة أخرى، أعتقد أن الحل المثالي هو أن تأتي إلى منزلي، أيضاً. لأنك بهذه الطريقة ستكون متأكداً، لا بل متأكداً جداً من رؤيتها. ما أقترحه هو أن تأتي صباح الأحد، ويمكنك المكوث هناك قدر ما تشاء. لدي هناك أربع غرف نوم احتياطية، وأعتقد أنك ستكون مرتاحاً. ثم إنني، وكما تعرف، إن أخبرتها بالأمر قليلاً قبل وصولك، فإني سأهيئها للحديث معك. ما رأيك؟ موافق؟»

الفصل السابع عشر

«يا لغرابة الأمر!» قلت في نفسي متأملاً ما جرى: يبدو أن هنالك تشابهاً أُسرياً طفيفاً ما بين نينا ريكنوي وهيلين فون غراون - أو على الأقل بين الصورتين اللتين رسمهما لي زوج الأولى وصديقة الثانية. لم تكن الفوارق بينهما كثيرة. كانت نينا ضحلة وباهرة، وهيلين ماكرة وقاسية؛ كلتاهما طائشتان؛ لا تتوافق أي منهما مع ذوقي، ولم أكن لأعتقد أنهما من النمط الذي يحبه سبستيان. أتساءل ما إذا كانت المرأتان قد تقابلتا في بلاوبيرغ: كانتا لتتفقان جداً، نظرياً؛ في الواقع، ربما كانت كل منهما لتستهجن الأخرى لا بل وتبصق عليها أيضاً. من جهة أخرى، يمكنني الآن استبعاد السيدة ريكنوي نهائياً - ما وجدت فيه ارتياحاً كبيراً. أن يكون ما أخبرتني به الفتاة الفرنسية عن عشيق صديقتها مجرد مصادفة، هو أمر مستبعد أيضاً.

وبغضّ النظر عن المشاعر التي خبرتها عندما أُخبرت عن الطريقة التي عومل بها سبستيان، فإني لا يمكنني إنكار الرضى الذي شعرت به لعلمي أن بحثي قد اقترب من نهايته، وأنني قد أُعفيت من مهمة استخراج زوجة بال باليتش من باطن الأرض، التي، وعلى حد علمي، قد تكون في السجن أو في لوس أنجلوس.

كنت أعرف تماماً أني قد مُنحت فرصة أخيرة، وكنت حريصاً

على إنجاح لقائي بهيلين فون غراون، بذلت جهداً مهولاً وراسلتها إلى عنوانها في باريس، لتجد الرسالة في انتظارها عند وصولها. كانت قصيرة جداً: أبلغتها فقط أنني تلقيت دعوة من صديقتها في ليسكو، وأني قبلتها فقط لغاية رؤيتها؛ أضفت أن هنالك مسألة أدبية أود مناقشتها معها. لم تكن الجملة الأخيرة صادقة جداً، ولكني اعتقدت أن سيكون لها تأثير جذاب. لم أكن قد فهمت تماماً ما إذا كانت صديقتها قد ذكرت أي شيء يتعلق برغبتي في لقائها، عندما اتصلت من ديجون. كنت مرعوباً من أن تقول لي السيدة لوسيرف يوم الأحد إن هيلين قد سافرت إلى نيس بدلاً من ليسكو. بعد أن وضعت الرسالة في البريد، شعرت أنني قد فعلت كل ما يمكن فعله لترتيب أمر اجتماعنا.

بدأت رحلتي في الصباح الباكر، بغاية أن أصل ليسكو حوالي الظهيرة، كما اتفقنا. كنت قد أصبحت على متن القطار، عندما أدركت فجأة، وبصدمة، أن طريق الرحلة سيمر عبر سان دامييه، حيث توفي ودُفن سبستيان. سبق أن قضيت ليلة سفر لا تنسى، للوصول إلى هناك. ولكن الآن، لم أنجح في التعرف على أي شيء: عندما توقف القطار لدقيقة في محطة سان دامييه، فإن اللافتة كانت هي الشيء الوحيد الذي أخبرني أنه قد سبق لي أن كنت هنا ذات مرة. بدا المكان في غاية البساطة والرصانة والوضوح، بعكس الانطباعات المشوهة التي تراود أحلامي، والتي انطبعت في ذاكرتي. أم تراها تكون الآن مشوهة؟

شعرت بارتياح غريب مع تحرك القطار: لا مزيد من ذكريات المسارات الشبحية التي اتبعتها قبل شهرين. كان الجو جميلاً، وكنت كلما توقف القطار أسمع أنفاس الربيع المتفاوتة والخفيفة، التي بالكاد أصبحت مرئية، ولكنها موجودة لا محالة: «راقصات الباليه

الصغيرات، بأطرافهن الباردة، ينتظرن في الكواليس»، كما وصف سبستيان الربيع مرة.

كان منزل السيدة لوسيرف كبيراً قديم الطراز. تتألف الحديقة من مجموعة من الأشجار القديمة والمريضة. أحاطت بالمنزل حقول من جهة، وتلة يعتليها مصنع من الجهة الأخرى. كل ما كان على مقربة منه بدا بالياً على نحو غريب، رثاً ومغبراً؛ عندما عرفت لاحقاً أنه قد بني منذ ثلاثين سنة فقط، زادت دهشتي أكثر من تداعيه اللامعقول. عندما اقتربت من المدخل، قابلت رجلاً يمشي بعجل فوق ممر الحصى التي كانت تقعقع تحت وقع قدمَيه؛ توقف وصافحني:

«سعيد بلقائك»، قال متفحصاً كامل شكلي بنظرة كئيبة، «زوجتي تنتظرك. أنا آسف جداً... ولكني مجبر على الذهاب إلى باريس هذا الأحد.»

كان رجلاً في منتصف العمر، له ذات السمات العامة لرجل فرنسي، بعينين متعبتين وابتسامة أتوماتيكية. تصافحنا مرة أخرى.

«سيفوتك القطار يا صديقي»، وصل صوت السيدة لوسيرف الكريستالي من الشرفة، فخفّ في مشيته مطيعاً لأوامرها.

كانت ترتدي يومذاك ثوباً بلون البيج، وكان أحمر شفتيها لامعاً، ولكنها لم تضع فوق بشرتها الشفافة أي لون ينعشها. أعطت الشمس شعرها بريقاً أزرق، ووجدت نفسي أفكر أنها حقاً شابة جميلة حقاً. تجولنا عبر غرفتين أو ثلاث، قد بدت أنها قد تقاسمت فكرة غرفة المعيشة فيما بينها. تكوّن لدي انطباع أننا وحدنا في ذلك المنزل، غير المترابط وغير المريح. تناولتْ شالاً كان ملقى فوق أريكة منجدة بالحرير الأخضر، ولفّته حولها.

«أليس الجو بارداً؟» سألتْ. «هذا أحد الأمور التي أكرهها في

حياتي: البرد. تلمس يديّ! إنهما دائمتا البرودة ما عدا خلال الصيف. سيكون الغداء جاهزاً خلال دقيقة. اجلس.»

«متى ستأتي بالتحديد؟» سألت.

«اسمع!» قالت السيدة لوسيرف، «ألا يمكنك نسيانها لدقيقة والتحدث عن أمر آخر؟ هذا ليس لطيفاً جداً من قبلك. أخبرني شيئاً عنك. أين تقطن، وما هو عملك؟»

«هل ستصل هذا العصر؟»

«أجل، أجل، أيها الرجل العنيد. إنها آتية بلا شك. لا تكن نافد الصبر. فكما تعلم، لا تأبه النساء برجل ذي فكرة واحدة وثابتة. كيف وجدت زوجي؟»

قلت إنه لا بد يزيدها جداً في العمر.

«إنه لطيف جداً ولكنه مضجر إلى حد مرعب»، قالت، ضاحكة. «لقد أرسلته بعيداً عن قصد. نحن متزوجان منذ سنة، ولكن زواجنا يبدو كحفل زفاف براق. أنا فقط أكره هذا البيت. أيعجبك؟»

قلت إنه يبدو قديم الطراز.

«أوه، إنه ليس بالمصطلح الصحيح. لقد بدا حديثاً جداً عندما رأيته لمرتي الأولى. لكنه قد فقد بريقه وبدأ بالتداعي منذ ذلك الحين. لقد أخبرت مرة طبيبي أني كل ما ألمسه من الزهور يذبل، ما عدا الوردية منها وزهور النرجس البري - أليس غريباً؟»

«وماذا قال؟»

«قال إنه ليس بعالِم نبات. يُقال إن هنالك أميرة فارسية مثلي، وقد أفسدت حدائق القصر.»

نظرت خادمة مسنة وكئيبة المظهر إلى سيدتها، وأومأت برأسها.

«تعالي!» قالت السيدة لوسيرف. «من يرى وجهك يظن أنك ستموتين جوعاً.»

تصادمنا في المدخل لأنها التفتت فجأة إلى الخلف بينما كنت وراءها أتبعها. أمسكت بكتفي ولمس شعرها خدي.

«يا لك من شاب غير رشيق! لقد نسيت أدويتي.»

وجدتها، ثم تابعنا جولتنا في المنزل بحثاً عن غرفة الطعام. وجدناها أخيراً. كانت عبارة عن مكان موحش مع نافذة ناتئة، قد بدت أنها قد غيرت رأيها في اللحظة الأخيرة وقامت بأقصى جهودها لتعود وتصير من جديد نافذة عادية. ظهر شخصان يمشيان بصمت تام، عبر أبواب مختلفة. كان أحدهما سيدة، قد علمت لاحقاً أنها نسيبة السيد لوسيرف، وقد اقتصرت محادثتها على بعض المداخلات المهذبة أثناء تمرير الأطباق. الآخر كان رجلاً أنيقاً بملابس غولف، وبوجه مهيب، وخط رمادي غريب في شعره الأشقر المتناثر. لم يتفوه بكلمة واحدة أثناء تناول الغداء. اقتصرت طريقة السيدة لوسيرف في تقديم الأشخاص على إيماءات سريعة دون أن تكلف نفسها عناء ذكر الأسماء. لاحظت أنها تجاهلت حضوره إلى الطاولة، وكأنه يجلس منفصلاً بالفعل. كان الغداء لذيذاً ولكن مفتقراً للتنظيم. بكل الأحوال، كان النبيذ جيداً جداً.

بعد أن انتهينا من صخب الجولة الأولى، أشعل الرجل الأشقر سيجارة وانصرف بعيداً. عاد بعد دقيقة مع منفضة سجائر. السيدة لوسيرف، التي كانت لا تزال منشغلة بطعامها، نظرت إليّ وقالت:

«إذاً، لقد كنت كثير الأسفار مؤخراً! لم أزر إنكلترا في حياتي، أتعرف ذلك؟ لم تتح لي الفرصة يوماً. تبدو لي بلداً حزيناً. لا بد أنها باعثة على الملل. أليس كذلك؟ كما تعرف... الضباب... لا موسيقى... لا تنوع في الفنون... أوه، هذا أرنب مطهو بطريقة خاصة جداً. أعتقد أنها ستعجبك.»

«بالمناسبة»، قلت، «نسيت أن أخبرك. لقد كتبت رسالة لصديقتك لإخطارها بحضوري إلى هنا، كتذكير لها بموعدها.»

وضعت السيدة لوسيرف شوكتها وسكينها. بدأت متفاجئة ومتضايقة. «ما كان عليك أن تفعل!» أجابت مستنكرة.

«ولكنه ليس بالتصرف المؤذي، أليس كذلك؟ أم تظنين...»

التهمنا الأرنب بصمت. تبعته كريما الشوكولا. طوى الرجل الأشقر منديله بعناية، حشره في حلقة، نهض، أحنى رأسه قليلاً لمضيفته، ثم انسحب.

«سنتناول قهوتنا في الغرفة الخضراء»، قالت السيدة لوسيرف للخادمة.

«أنا غاضبة منك»، قالت ما إن استقررنا، «لقد أفسدت الأمر برمّته.»

«ولكن لماذا؟ ما الخطأ الذي فعلته؟» سألت.

نظرت في البعيد. ارتفع نهداها الصغيران الصلبان (كتب سبستيان مرة أن ذلك يحصل في الروايات فقط، ولكن يبدو أنه كان مخطئاً). بدأ نبض وريدها الأزرق في عنقها بالانتفاض (وهذا ما لست متأكداً منه). رفرفت رموشها. أجل، لقد كانت بكل تأكيد امرأة جميلة. هل كانت من جنوب فرنسا؟ تساءلت في نفسي. ربما من آرل. ولكن لا، كانت لهجتها باريسية.

«أين ولدتِ في باريس؟» سألتُ.

«شكراً»، قالت دون أن تنظر إليّ، «لأنك توجه لي أول سؤال شخصي. ولكن لا تعتبره تكفيراً عن ذنبك. إنه أسخف ما أمكن لك القيام به. ربما، لو حاولت... اعذرني، سأعود في دقيقة.»

أسندت ظهري ودخنت. كان الغبار يحتشد تحت أشعة الشمس المائلة؛ انضمت إليه حلقات التبغ التي زفرتها، بتناوب رقيق،

وبطيء، كما لو كانت تشكل صورة حية للحظة ما. دعوني أكرر أني أكره إزعاج هذه الصفحات هنا بأي ما يخصني شخصياً؛ ولكني أعتقد، أن القارئ ربما سيجد متعة (وربما شبح سبستيان أيضاً، من يدري؟) لو عرف أنني للحظات، شعرت برغبة في ممارسة الحب مع تلك المرأة. كان شعوراً غريباً بحق - وفي الوقت ذاته، كانت تضايقني - أعني أن الغريب هو الأمور التي أخبرتني بها. كنت أفقد السيطرة على نفسي بطريقة ما. أمرت عقلي بالاستيقاظ عندما عادت.

«ها قد فعلتها. هيلين ليس في المنزل.»

«وهذا أفضل»، أجبت، «إنها على الأرجح في طريقها إلى هنا، وفي الحقيقة، عليك أن تستوعبي مدى نفاد صبري وتحرقي لرؤيتها.»

«ولكن لِمَ بحق الجحيم قد كتبت لها؟» صاحت السيدة لوسيرف. «حتى أنك لا تعرفها. وكنت قد وعدتك أنها ستكون هنا اليوم. أيوجد ما تتمناه أكثر؟ وإن كنت لا تصدقني، وتريد التحكم بي، فاسمح لي أن أقول إنك لشخص تافه، سيدي العزيز!»

«اسمعي!» قلت بصدق شديد، «هذا ما لم يخطر في بالي أبداً. أنا فكرت فقط أن... حسناً... لا يمكن للزبدة أن تفسد العصيدة، كما نقول نحن الروس.»

«لا أظنني أكترث للزبدة... أو للروس»، قالت. ماذا يمكنني أن أفعل. ألقيتُ نظرة خاطفة إلى يدها الملقاة بقرب يدي. كانت ترتجف قليلاً، كان ثوبها رقيقاً جداً؛ اجتاحت عمودي الفقري قشعريرة ليست بالضرورة قشعريرة برد. أكان عليّ تقبيل تلك اليد؟ أكان بالإمكان أن أجاملها بلطف دون أن أبدو غبياً؟

تنهدتْ ثم وقفت.

«حسناً، لم يعد بالإمكان تسوية الأمر. أخشى أنك قد أبعدتها، وإن كانت ستأتي... حسناً، لم يعد ذلك مهماً. سنرى. أترغب في

التجول في ملكيتنا؟ أعتقد أن الجو في الخارج أكثر دفئاً منه في هذا المنزل البائس.»

تتألف «الملكية» من حديقة وبستان سبق أن لاحظت وجوده. كان كل شيء صامتاً. أغصان سوداء مع بقع خضراء تزينها هنا وهناك، بدت وكأنها في حالة إصغاء لصوت حياتها الداخلي. روح من الكآبة والملل كانت تطوف في المكان. كانت الأرض قد حُفرت و كُوّم التراب جانباً أمام جدار من الطوب، من قِبل بستاني غامض قد ذهب ونسي هناك معزقة صدئة. لسبب غريب بعض الشيء، تذكرت جريمة كانت قد وقعت مؤخراً، حيث قام القاتل بدفن ضحيته في حديقة مشابهة.

كانت السيدة لوسيرف صامتة؛ ثم قالت: «لا بد أنك مغرم بأخيك غير الشقيق، لتحدث كل هذه الضجة للنبش في ماضيه. كيف مات؟ منتحراً؟»

«أوه، لا»، قلت، «كان يعاني من آفة في قلبه.»

«ظننت أنك قلت إنه أطلق النار على نفسه. كان ذلك ليكون أكثر شاعرية. سيخيبني كتابك إن كان كل شيء سيصب في السرير. تتفتح الورود هنا في الصيف - هنا، فوق هذا الطين - لكني لن أعود لقضاء الصيف هنا، مستحيل.»

«أنا بالتأكيد لن أفكر في تزوير حياته، ولا بأي شكل من الأشكال»، قلت.

«أوه حسناً، أعرف رجلاً قد نشر رسائل زوجته بعد مماتها ووزعها بين أصدقائه. لمَ تظن أن سيرة حياة أخيك ستهم القراء؟»

« أولم تقرئي في حياتك. . .» بدأت، عندما توقفت أمام البوابة سيارة أنيقة المظهر رغم بعض بقع الطين فوقها.

«أوه، يا للإزعاج!» قالت السيدة لوسيرف.

«ربما تكون هي»، قلت هاتفاً.

خرجت امرأة من السيارة، لتجد نفسها وقد داست مباشرة في بركة طين.

«نعم، إنها هي»، قالت السيدة لوسيرف. «والآن، ابقَ مكانك أرجوك.»

ركضتْ نحو آخر الممر، ملوّحة بيدها، وصلت عند الوافدة الجديدة، قبّلتها، وقادتها يساراً حيث اختفت كل منهما وراء بعض الأجمات. لمحتهما ثانية بعض لحظات، عندما تجاوزتا الحديقة ووصلتا الدرجات. صعدتا، ثم اختفيتا في المنزل. لم أكن قد رأيت شيئاً من هيلين فون غراون ما عدا معطفاً فرائياً محلولاً، ووشاحاً بألوان زاهية. وجدت مقعداً حجرياً وجلست فوقه. كنت متحمساً وسعيداً لأنني وقعت على طريدتي وأخيراً. كانت عصا أحدهم ملقاة فوق المقعد، فبدأت أنقر بها التربة البنية الغنية. لقد نجحت! هذه الليلة، وبعد أن أتحدث إليها، سأعود إلى باريس و... أحسست بغرابة ما سيأتي لاحقاً، كطفل عند فطامه، كأحمق يرتجف وينزلق بين الحشود... أتراني سأعود الليلة؟ ما كانت تلك العبارة الخاطفة للأنفاس في قصة موباسان(*)، المصنفة درجة ثانية : «لقد نسيت كتاباً». ولكني كنت قد نسيت كتابي أيضاً.

«إذاً أنت هنا»، قال صوت السيدة لوسيرف. «ظننتك عدت إلى المنزل.»

«حسناً، أكل شيء على ما يرام؟»

«لا أبداً»، أجابت بهدوء. «لا أعرف بالضبط ما الذي كتبته،

(*) غي دو موباسان: كاتب وروائي فرنسي (١٨٥٠-١٨٩٣) صاحب قصة «العقد» الشهيرة. أما القصة المقصودة في روايتنا فهي «ذلك الخنزير موران». (مترجم)

ولكنها ظنت أن الأمر متعلق بفيلم سينمائي كانت تسعى للحصول على دور فيه. قالت إنك أوقعت بها. والآن ستفعل ما أخبرك به فقط. أنت لن تتحدث إليها لا اليوم ولا غداً ولا حتى بعد غد. ولكنك ستبقى هنا وستكون معها في غاية اللطف. وقد وعدت بإخباري كل شيء، وبعد ذلك يمكنك ربما التحدث معها في الأمر. أتقبل بهذه الصفقة؟»

«أعرف كم هو مقيت أن تتحملي عبء كل هذه المشاكل»، قلت. جلست فوق المقعد إلى جانبي، وبما أن المقعد كان قصيراً إلى حد ما، وكنت أنا فوق الجانب الثابت منه، فقد لامس كتفها كتفي. رطبت شفتيَّ الجافتين بلساني ثم رسمت خطوطاً فوق التربة، بالعصا التي كنت أحملها.

«ماذا تحاول أن ترسم؟» سألت، ثم تنحنحت.

«أمواج فكرتي»، أجبت بحماقة.

«ذات يوم»، قالت بصوت ناعم، «قبّلت رجلاً فقط لأنه يعرف كيف يكتب اسمه رأساً على عقب.»

وقعت العصا من يدي. حدقت في وجه السيدة لوسيرف. حدقت في جبينها الأبيض الناعم، ورأيت جفنيها البنفسجيين السميكين، اللذين قد أخفضتهما، ربما لتتجنب نظرتي - رأيت وحمة صغيرة شاحبة فوق خدها الشاحب، فتحتي أنفها الدقيقتين، رسم شفتها العليا عندما أخفضت رأسها الأسود، بياض حنجرتها الباهت، أظافر أصابعها الرقيقة المطلية بالأحمر الوردي. رفعت رأسها، ومن جديد، نظرت إلى شفتي بعينيها المخمليتين الغريبتين، وكانت قزحيتاها في تلك اللحظة أعلى من المعتاد.

نهضتُ.

«ما الخطب؟» قالت، «ما الذي تفكر فيه؟».

هززت رأسي نفياً، ولكنها كانت محقة، كنت أفكر في أمر ما - أمر عليّ أن أجد له حلاً، وعلى الفور.

«لماذا؟ أتريد دخول المنزل؟» سألت ما إن بدأت المشي فوق المسار.

أومأت إيجاباً.

«ولكنها لن تنزل فوراً. أخبرني، لماذا تبدو متجهماً؟»

أذكر أني توقفت، وحدقت فيها ثانية، وهذه المرة في قوامها المسكوب في ذلك الثوب الضيق. تابعت تقدمي، تغزو الأفكار رأسي، وبدا المسار المرقط بالشمس يحدق بي عابساً بدوره.

«لست في غاية لطفك»، قالت السيدة لوسيرف.

كانت هنالك طاولة وبضعة كراسي فوق الشرفة. كان الرجل الأشقر الصامت الذي التقيته على الغداء جالساً هناك، وكان يتفحص عمل ساعة يده. مررت بقربه بطريقة خرقاء فاهتز مرفقه ووقع منه برغي صغير.

«Boga radi»، (لا تهتم) قال لي عندما اعتذرت.

(أوه، اتضح أنه روسي. رائع! فهذا قد يساعد). بقيت السيدة لوسيرف واقفة وقد أدارت ظهرها لنا، وكانت تدمدم بعذوبة، وتنقر كعبيها فوق البلاط.

عندها التفتُّ إلى ابن بلدي الصامت الذي كان منشغلاً بساعته المكسورة.

«A ou ney na cheyké paouk(*)»، قلت بصوت منخفض.

رفعت الشابة يدها بسرعة فوق عنقها وأدارت كعبيها.

«ماذا؟» سأل ابن بلدي بليد الذهن، وقد ألقى إليّ نظرة خاطفة.

(*) Ah-oo-neigh na-sheiky pah-ook: هنالك عنكبوت فوق عنقها. (مترجم)

ثم نظر إلى السيدة، ابتسم ابتسامة عريضة ولكن غير مريحة، ثم عاد إلى ساعته.

«هنالك شيء ما فوق عنقي، أنا أشعر به»، قالت السيدة لوسيرف.

«في واقع الأمر»، قلت، «كنت قد قلت لتوّي لهذا الرجل الروسي إن هنالك عنكبوتاً فوق عنقك. ولكني كنت مخطئاً. إنها حيلة الضوء والظلال.»

«أتريدنا أن نشغّل الفونوغراف؟» سألت بحيوية.

«أنا آسف بشدة»، قلت، «فإني أعتقد أن عليّ العودة إلى المنزل. ستعذرينني، أليس كذلك؟»

«ولكنك مجنون!» صاحت، «أنت مجنون، ألا تريد رؤية صديقتي؟»

«ربما في مرة أخرى»، ، قلت بهدوء، «مرة أخرى.»

«أخبرني!» قالت بينما كانت تتبعني في الحديقة، «ما خطبك؟»

«لقد كنتِ بمنتهى الذكاء»، قلتها بلغتنا الروسية العظيمة الليبرالية، «كنت بمنتهى الذكاء لجعلي كل تلك المدة أصدق أنك كنت تتحدثين عن صديقتك في حين كنت تتحدثين عن نفسك. إن تلك الخدعة الدنيئة كانت لتستمر لفترة طويلة لو لم يدفع القدر كوع الرجل. والآن، لقد انفصل المصل عن اللبن. أتعرفين لماذا؟ لأنني قابلت ابن عم زوجك السابق، الذي يستطيع الكتابة رأساً على عقب. ثم قمت باختبار بسيط. وعندما لاشعورياً قد التقطتِ جملة روسية تمتمت بها بقربك...»

لا، لم أتفوه بكلمة من هذا. كل ما فعلته هو أنني خرجت من الحديقة، ويوماً ما، حين ستصلها نسخة من هذا الكتاب، ستفهم كل شيء.

الفصل الثامن عشر

ذلك السؤال الذي وددت طرحه على نينا بقي بلا إجابة. تمنيت لو أسألها ما إذا كانت مدركة أن الرجل ذا الوجه الشاحب العليل، والذي كانت تجد حضوره مملاً، هو في الواقع من أبرز كتّاب عصره. وما جدوى السؤال! امرأة من صنفها لا تعلق قيمة كبيرة على الكتب؛ بالنسبة لها، فإن أحداث حياتها الخاصة أهم من مئات الروايات. لو حُكم عليها مرة بقضاء نهار كامل في مكتبة، لوُجدت ميتة حوالي الظهيرة. أنا واثق تماماً أن سبستيان لم يذكر مرة شيئاً عن كتبه في حضورها: كان الأمر ليبدو كما لو مزولة شمسية تناقش خفاش. إذا فلندع ذلك الخفاش يرفرف ويبتعد في الغسق الراحل نحو الظلمة: المقلد الكريه للسنونو.

في آخر سنواته وأكثرها حزناً كتب سبستيان رواية «البروق المريب»، والتي هي تحفة أعماله، من دون أدنى شك. أين وكيف كتبها؟ في قاعة القراءة من المتحف البريطاني (بعيداً عن عينَي السيد غودمان الساهرة). فوق طاولة متواضعة في أقصى زاوية حانة باريسية صغيرة (ليس من النوع الذي ترتاده عشيقته)؛ فوق كرسي طويل تحت مظلة كبيرة برتقالية في مدينة كان أو جيان، حين تركته وشلّتها وحيداً، ليلتحقوا بحفلة سمر في مكان آخر؛ في غرفة انتظار محطة مهجورة، بين نوبتين قلبيتين؛ في فندق، مع جلبة غسل أطباق في

فناءه؛ في العديد من الأماكن الأخرى التي لا أملك عنها إلا تخمينات غامضة.

موضوع الكتاب بسيط: رجل يحتضر: تشعر بغرقه على امتداد الكتاب؛ تجتاح أفكاره وذكرياته الكتاب كله، بتفاصيل قد تزيد وتقل (كشهيق وزفير أنفاس غير منتظمة)، تعلق صورة، ثم ترميها في مهب الريح، أو تقذفها إلى الشاطئ، حيث تبدو تخفق وتحيا لدقيقة أخرى، من تلقاء نفسها، ثم وفي اللحظة التالية، تسحبها البحار الرمادية حيث تغرق، أو تتحول بغرابة إلى شكل آخر. رجل يموت، وهو في الوقت ذاته بطل القصة؛ ولكن في حين تبدو حيوات الآخرين في الكتاب تامة الواقعية (أو على الأقل واقعية بالمعنى الخاص بالكاتب)، يبقى القارئ جاهلاً بهوية الرجل المحتضر، أو بمكان فراش موته الطافي، أو إذا ما كان فراشاً بحق. الرجل هو الكتاب؛ الكتاب بحد ذاته يلفظ أنفاسه الأخيرة، ويرسم ركبة شبح. صورة فكرة واحدة، ثم أخرى، تتكسر فوق شواطئ الوعي، ونحن نتابع الشيء، أو الكائن، الذي تم استحضاره: بقايا حياة محطمة قد ضلت طريقها؛ تخيلات بليدة تتسكع، ثم فجأة، تفرد أجنحتها التي تحمل عيوناً. وكل تلك الحيوات، ليست إلا تعليقات على الموضوع الرئيسي. نتابع شوارتز، لاعب الشطرنج العجوز اللطيف، الذي يجلس فوق كرسي في غرفة من منزل، ويقوم بتعليم فتى يتيم حركات الشطرنج؛ نلتقي بالمرأة البوهيمية السمينة التي يظهر خط رمادي في شعرها المصبوغ بلون متوهج مبتذل؛ نستمع، في مكان عام سيّئ السمعة، لخطاب رجل بائس شاحب يستنكر فيه سياسة القمع، أمام رجل بلباس مدني قد أعار الأذن الصاغية؛ تدوس الممثلة الطويلة الجميلة المستعجلة في بركة، وتفسد حذاءها الفضي؛ ينشج رجل عجوز، فتأتي فتاة جميلة بملابس حداد، وتهدئ دموعه بقبلة من

شفتيها؛ البروفسور نوسبوم، وهو عالم سويسري، يطلق النار على عشيقته ثم على نفسه في غرفة فندق عند الثالثة والنصف فجراً. يأتون ويذهبون، هؤلاء وغيرهم، يفتحون أبواباً ويغلقونها، ويعيشون بقدر ما تسمح لهم إضاءة الطريق الذي يتبعونه، ثم تبلعهم، الواحد تلو الآخر، أمواج الموضوع المهيمن: احتضار رجل. يبدو أنه يحرك ذراعه، أو يدير رأسه فوق ما قد يكون وسادة، وكلما تحرك، تتلاشى أو تتغير هذه أو تلك، من الحيوات التي كنا نراقبها. في لحظات، يستعيد وعيه بنفسه، ونشعر عندئذ أننا نمر بشريان الكتاب الرئيسي.

«الآن، بعد أن تأخر الوقت، وأغلقت دكاكين الحياة أبوابها، ندم لأنه قد فاته أن يشتري كتاباً لطالما رغب في اقتنائه؛ ندم لأنه لم يختبر مرة هزة أرضية، أو حريقاً، أو حادث قطار؛ لأنه لم يزر مرة تاتسينلوفي التيبت، ولم يسمع غراب العقعق الأزرق ينعق بين صفصاف الصين؛ لأنه لم يتحدث إلى فتاة المدرسة تلك، المنحرفة ذات العينين الوقحتين، حين التقى بها في فرجة منعزلة؛ لأنه لم يضحك للدعابة البائسة التي ألقتها امرأة خجولة وقبيحة، عندما لم يضحك أحد في الغرفة؛ ندم للقطارات التي فاتته، والإشارات والفرص؛ ولأنه لم يعطِ القرش الذي كان في يده لعازف الكمان الذي يعزف مرتجفاً في الشارع ، ذات يوم كئيب، في بلدة منسية.»

لطالما أحب سبستيان نايت اللعب بالمواضيع، كما يلعب بهلواني بالكرات، فيجعلها تتصادم أو يخلط ما بينها بمكر، ليعبّر بواسطتها عن المعنى المخفي، الذي لا يمكن التعبير عنه إلا في سلسلة أمواج متعاقبة، كما الموسيقى في عوامة صينية، التي لا تبدأ إلا مع بدء التماوج. في رواية «البروق المريب»، وصل أسلوبه إلى الكمال. ليست العناصر بحد ذاتها هي المهمة، بل الجمع ما بينها. يبدو أيضاً أن هنالك طريقة خاصة في أسلوب الكاتب في تعبيره

الفيزيائي عن مراحل الاحتضار: الخطوات المؤدية إلى الظلام؛ تناوب الأدوار بين الدماغ والجسد والرئتين. يتبع الدماغ أولاً تسلسلاً هرمياً للأفكار - أفكاره عن الموت: أفكار زائفة الذكاء، مدوّنة بعجالة فوق هامش كتاب مستعار (حلقة الفيلسوف):

«قوة جاذبية الموت: المادة التي تنمو رأساً على عقب، كقطرة ماء تبقى معلقة طويلاً، وفي النهاية، تقع في العدم.»

أفكار شاعرية، دينية:

«... مستنقعات مراتب 'المادية' والفراديس الذهبية لأولئك الذين يدعوهم ديين بارك بالمتفائلين...» «ولكن الرجل المحتضر قد عرف أن تلك ليست بأفكار حقيقية، وأنه في الواقع، لا يمكن لأحد أن يؤكد إلا نصف مفهوم الموت، إلا هذا الجانب فقط من المسألة؛ الوجع، المفارقة، رصيف الحياة الذي يتحرك ببطء، بعيداً بعيداً عن المناديل الملوحة: آه! إنه إذاً بالفعل فوق الجانب الآخر، بما أنه يرى انحسار الشاطئ؛ لا، ليس تماماً - فهو لا يزال قادراً على التفكير.»

(وهكذا، يمكن للشخص الذي قد أتى فقط لرؤية صديق، أن يبقى لوقت متأخر جداً فوق ظهر السفينة، دون أن يُعتبر مسافراً).

ثم، شيئاً فشيئاً، تخنق شياطين المرض الجسدي مع كثير من الآلام المبرحة، كل أشكال الأفكار، الفلسفة، التكهنات، الذكريات، الأمل والندم. نرى أنفسنا نتخبط في مناظر طبيعية بشعة، دون أن نأبه لوجهتنا، إذ لا يوجد إلا الكرب الذي لا حد له، ولا شيء سواه. يتم عكس الأسلوب الآن. فبدلاً من الصور الفكرية التي يخفت إشعاعها أكثر فأكثر، والتي تبعناها في أزقة عمياء، فإننا نرى الاقتحام البطيء لرؤى مهولة غير مألوفة، تحوم حولنا وتحاصرنا: قصة تعذيب طفل؛ تقرير عن حياته في المنفى في البلد القاسي الذي

هرب إليه؛ معتوه وديع بعينين سوداوين؛ مزارع يركل كلبه بطريقة خشنة وشريرة. وهنا يتلاشى الألم أيضاً.

«وهنا، وصل من الإنهاك ما لم يعد معه مهتماً بأمر الموت.» وهكذا «يشخر رجال متعرقون في مقصورات الدرجة الثالثة المزدحمة؛ وهكذا ينام طالب مدرسة فوق مسألة جمع غير منتهية.» «أنا متعب، متعب... تدور العجلة وتدور من تلقاء نفسها، تتأرجح حيناً، تتباطأ حيناً آخر، ثم...»

هذه هي اللحظة التي طفت فيها فجأة موجة من النور لتغمر الكتاب:

«كأنما فتح أحدهم الباب على مصراعيه، وتدفق الناس، يومضون بأعينهم، ويندفعون بشكل محموم نحو رزم ليحملوها.»

نشعر أننا على حافة حقيقة مطلقة، مبهرة في روعتها، وعادية في بساطتها المثالية على حد سواء. من خلال استخدام لا يُصدق لصيغ إيحائية، يدفعنا الكاتب لنصدق أنه يعرف حقيقة الموت وسيخبرنا بها. بعد لحظة أو اثنتين، في نهاية تلك الصيغ، وفي منتصف ما يأتي بعدها، أو ربما أبعد بقليل، سنعرف منه ما سيغير مفاهيمنا، كما لو أننا اكتشفنا أننا بتحريك أذرعنا بطريقة بسيطة، لم نجربها قبلاً، يمكننا الطيران.

«العقدة الأكثر صعوبة ما هي إلا حبل متعرج؛ قد يكون خشناً على أظافرنا، ولكنه في الحقيقة الطريقة البسيطة، والتي لا تتطلب جهداً كبيراً، للحصول على عقد رشيقة. تستطيع فكها بالعيون، بينما الأصابع تنزف. هو (الرجل المحتضر)، كان تلك العقدة، وكان ليستطيع فك نفسه بحركة واحدة، لو أنه تمكن من رؤية باقي الحبل. وليس فقط هو، ولكن كل شيء سينهار أيضاً؛ كل ما كان يمكن له أن يتخيله، بمفاهيمنا الصبيانية، عن شروط الزمان والمكان، اللذين

قد اخترع الإنسان كليهما كأحاجٍ، ونتيجة لذلك، ينقلب في النهاية السحر على الساحر: كيد الهراء المرتد... الآن استطاع أن يلقط شيئاً حقيقياً، لا علاقة له البتة مع الأفكار أو المشاعر، أو أي تجارب قد خبرها في روضة أطفال الحياة....»

الإجابة عن كل الأسئلة الدائرة حول الموت والحياة، «الحل المطلق»، المكتوبة في كل أنحاء العالم الذي عرفه: كما لو أن المسافر كان مدركاً أن الأرض البرية الموحشة التي يتجول فيها ويعاينها ليست مجرد ظواهر طبيعية قد اجتمعت بالمصادفة، بل صفحة في كتاب تعرض كل تلك الجبال والغابات، الحقول والأنهار، بطريقة مرتبة تشكل جملة متماسكة؛ الحرف الصوتي لبحيرة يُدغم مع الحرف الساكن لمنحدر؛ تعرجات طريق تكتب رسالته بخط مدوّر، كخط الآباء؛ أشجار تتحدث فيما بينها بإيماءات يفهمها فقط من تعلم لغة الإشارات الصامتة... وبالتالي، فإن المسافر يفسر المشهد ويكشف عن معانيه، وبالمثل، يكشف نمط الحياة البشرية المعقد، أنه عبارة عن شعارات مونوغرامية، الأمر الذي يصبح جلياً أمام العين الداخلية التي تحاول تفكيك الحروف المتشابكة. والكلمة، المعنى الذي يذهلك ببساطته: الأمر الأكثر غرابة ومفاجأة، هو أننا ربما وخلال وجودنا الأرضي - حيث كانت أدمغتنا مقيدة بأسلاك معدنية بواسطة أكثر الأحلام ملاءمة لشخصية كل منا - لم نُعط عن طريق الصدفة هزة دماغية قادرة على تحرير فكرنا المسجون وتزويده بالذكاء العظيم. والآن وجدنا حل اللغز.

«وكما أن معاني كل الأشياء تتجلى من خلال أشكالها، فإن العديد من الأفكار والأحداث التي سبق أن بدت لنا ذات أهمية قصوى، تتضاءل أهميتها ولكن ليس إلى الحد الذي تنعدم فيه، إذ لا

شيء الآن يكون تافهاً، ولكن تتضاءل لتصير بالحجم الذي وصلت إليه أهميتها، إذ إننا لم نعد نر فيها ذات الأهمية السابقة.»

وهكذا، فإن العمالقة الضخام الخارجين من عقولنا، كالعلوم، الفنون أو الدين، يسقطون من جدول تصنيفهم المعتاد، ويمدون أيديهم، لتختلط وترتفع، بسرور، إلى المستوى ذاته. وهكذا، فإن نواة حبة كرز مع ظلها الضئيل فوق الخشب المطلي لمقعد مهترئ، أو قطعة ممزقة من ورقة بالية، أو أي شيء تافه بين ملايين وملايين الأشياء التافهة، كل تلك الأشياء الضئيلة، نراها تنمو لتصبح مذهلة الحجم، وبعد أن أعيد تشكيلها ودمجها، ألقى الكون معناها إلى الأرواح بشكل طبيعي، كما التنفس.

والآن، يجب أن نعرف ما هو بالضبط هذا المعنى؛ سيتم النطق بالكلمة - وأنا، وأنتم، وكل من في هذا العالم سيصفع جبينه قائلاً: «ما أغباني!»

عند هذا المنعطف الأخير من الكتاب، يبدو المؤلف وقد توقف للحظة، كما لو أنه كان يفكر ملياً ما إذا كان من الحكمة أن يخرج الحكمة من قمقمها. يبدو أنه في لحظة قد رفع يده، ترك الرجل المحتضر الذي كان يتابع أفكاره، وابتعد عنه مفكراً: هل سنتبعه حتى النهاية؟ هل سننطق بالكلمة التي ستكسر صمت أدمغتنا المريح؟ سنفعل. لقد ذهبنا أبعد من اللازم، وها هي الكلمة قد بدأت بالتشكل وأوشكت على الظهور. وها نحن نعود لننحني ثانية فوق فراش ضبابي، يطوف فوق رمادي يبدأ بسحبه إلى الأسفل، أكثر فأكثر... ولكن لحظة الشك تلك كانت قاتلة: لقد مات الرجل.

مات الرجل دون أن نعرف شيئاً. لمْ يوجد ما هو أكثر ريبة من البروق الموجود فوق الشاطئ الآخر. نحمل كتاباً ميتاً بين أيدينا. أم ترانا مخطئين؟ يتهيأ لي أحياناً حين أقلب في صفحات تحفة سبستيان

أن «الحل المطلق» موجود بينها، مخفي بطريقة ما في مقطع ما، قد أكون قد قرأته على عجل، أو ربما قد تمت بعثرته بين كلمات أخرى قد خدعتني بزيها المألوف. لم أعرف في حياتي كتاباً قد أعطاني هذا الإحساس الخاص، وقد يكون هذا تماماً ما قصده الكاتب.

أحتفظ بذكرى حية عن اليوم الذي رأيت فيه الإعلان عن «البروق المريب» في إحدى الصحف الإنكليزية. وقعت تحت نظري نسخة الصحيفة تلك في بهو فندق في باريس، وكنت هناك أنتظر رجلاً قد أرسلتني شركتي لتملقه وتسوية صفقة معينة معه، الأمر الذي لا أجيده جيداً كما يفعل الموظفون تحت إدارتي. وبينما جلست هناك في القاعة المريحة والهادئة، وقرأت إعلان الناشر، مع الاسم الأنيق لسبستيان نايت بالخط العريض، حسدته كما لم أفعل من قبل. لم أكن أعرف أين كان موجوداً آنذاك، وكان قد مر ست سنوات على الأقل، على آخر لقاء لنا، ولم أكن أعرف أنه قد وصل ذلك الحد من المرض والبؤس. بل على العكس، قد بدا لي الإعلان دليلاً على سعادته - وتخيلته جالساً في غرفة مبهجة ودافئة من نادٍ ما، مع يديه في جيبيه، أذنين متوهجتين، عينين رطبتين وبراقتين، ابتسامة ترفرف فوق شفتيه - وقد تحلَّق حوله كل الآخرين الموجودين في الغرفة، يحملون كؤوس الخمر، ويضحكون للدعابات التي يلقيها. لقد كانت صورة سخيفة، ولكنها استمرت في التألق في ذهني، مع بدلات سموكينغ سوداء، صدريات بيضاء، نبيذ مخملي ووجوه واضحة، كواحدة من تلك الصور التي تجدها فوق أغلفة المجلات الخلفية. قررت اقتناء الكتاب فور نشره، لطالما كنت أقتني كل كتبه فور صدورها، ولكن لا أعرف لماذا كنت نافد الصبر، على نحو استثنائي، للحصول على هذه. بعد لحظات، وصل الشخص الذي كنت أنتظره. كان رجلاً إنكليزياً، وبدا عالي الثقافة. عندما تحدثنا

في البداية عن أمور عادية قبل الانتقال إلى موضوعنا العملي، أشرت بطريقة عفوية إلى الإعلان في الجريدة وسألته ما إذا كان قد قرأ قبلاً لسبستيان نايت. قال إنه قرأ كتاباً أو اثنين - «الموشور شيء ما» و«ملكية ضائعة». سألته ما إذا كان قد أحب الروايتين. قال نعم، ولكنه قال أيضاً إن الكاتب قد بدا له، بطريقة ما، مخيفاً في عنجهيته، من الناحية الفكرية على الأقل. وعندما سألته أن يشرح ذلك، أضاف إنه يرى أن نايت يلعب لعبة قد اخترعها بنفسه، دون أن يخبر شركاءه بها. قال إنه يحب الكتب التي تجعل المرء يفكر، وهذا ما لم يجده في كتب نايت؛ إنها تتركك في حيرة وتمضي. ثم تحدّث عن كاتب حي آخر، كان حسب رأيه أفضل بكثير من سبستيان. استغللت فرصة لحظة صمت للدخول في مناقشة أعمالنا، التي لم تثبت نجاحها، تماماً كما توقعت شركتي.

حصلت رواية «البروق المريب» على الكثير من المقالات النقدية، كان معظمها طويلاً ومطنباً في الإطراء. ولكن هنا وهناك، تكررت التلميحات إلى أن الكاتب كان كاتباً متعباً، وهذا ما كان طريقة أخرى ومهذبة للقول إنه قد أصبح عجوزاً مملاً. حتى أنني أحسست أن تلك التلميحات تقترح شيئاً من المواساة، كما لو أنهم كانوا يعرفون بعض الحقائق الكئيبة والمرعبة عن الكاتب، والتي لم تكن مذكورة في الكتاب، ولكنها أثرت على موقفهم تجاهه. حتى إن أحد النقاد قد ذهب إلى حدّ القول إنه قد قرأها «بمشاعر مختلطة، إذ إنها، إلى حد ما، ليست بالتجربة السارة بالنسبة لقارئ، أن يجلس بقرب فراش احتضار أحدهم، دون أن يتأكد ما إذا كان المؤلف هو الطبيب أم المريض.»

اقترحت جميع المقالات تقريباً أن الرواية كانت طويلة جداً، وأن العديد من المقاطع كانت غامضة ومزعجة على نحو غامض

أيضاً. من جهة أخرى، أشادت كلها بـ«صدق سبستيان نايت» - أياً كان قصدهم. أتساءل ما كان رأي سبستيان نايت في كل ذلك النقد.

أعرت نسختي من الكتاب لصديق قد أبقاه عند لأسابيع دون أن يقرأه، ثم أضاعه في القطار. حصلت على أخرى ولم ولن أعيرها لأحد. أجل، من بين كل ما كتب، هذه روايتي المفضلة. لست متأكداً ما إذا كانت تدفع القارئ إلى «التفكير»، ولست بآبهٍ إن لم تفعل. أحبها كما هي. أحب ما فيها من أخلاق. وفي بعض الأحيان، أقول لنفسي إن ترجمتها إلى الروسية ستكون فائقة الصعوبة.

الفصل التاسع عشر

تمكنت تقريباً من إعادة بناء أحداث حياة سبستيان في العام الماضي: ١٩٣٥. لقد توفي في بدايات عام ١٩٣٦، وكلما نظرت إلى هذا الرقم، لا يسعني التفكير إلا بوجود شبه غامض ما بين الإنسان وتاريخ وفاته. سبستيان نايت ت. ١٩٣٦.... بالنسبة لي، يبدو هذا التاريخ انعكاساً لهذا الاسم، فوق صفحة بركة ماء متموجة. هنالك شيء في منحنيات الأرقام الثلاثة الأخيرة يذكر بالخطوط المتعرجة في شخصية سبستيان... إني أحاول، كما فعلت غالباً في سياق هذا الكتاب، أن أعبّر عن فكرة قد تكون راودته يوماً ما... إن لم أكن قد أفلحت، هنا وهناك، بالتقاط ظل أفكاره على الأقل، أو إن كان تفكيري العقلي اللاواعي لم يقدني، بين الحين والآخر، نحو المنعطف الصحيح في متاهته الخاصة، فإن كتابي إذاً، لهو فشل ذريع لا أكثر.

تزامن ظهور «البروق المريب» في ربيع ١٩٣٥ مع محاولة سبستيان الأخيرة لرؤية نينا. بعد أن أخبره أحد أصدقائها الخسيسين، ذوي تصفيفات الشعر الحريرية اللامعة، أنها ترغب في التخلص منه للأبد، عاد إلى لندن حيث مكث لشهرين، باذلاً جهداً جديراً بالشفقة، بخداع عزلته من خلال الظهور في الأماكن العامة، قدر ما استطاع. سيراه الناس، في هذا المكان أو ذاك، رجلاً ضعيفاً، حزيناً

وصامتاً، يلف وشاحاً حول عنقه حتى في أكثر قاعات الطعام دفئاً، مثيراً غضب المضيفين بشروده الذهني الدائم، وبرفضه اللطيف للانسحاب خارجاً، أو لتجوله وسط حفلة راقصة، أو حين كانوا يعثرون عليه في حضانة، منغمساً في لعبة Puzzle. ذات يوم، وبالقرب من شارع شارينغ كروس، التقتْ هيلين برات بكلير في متجر للكتب، وبعد ذلك بلحظات، وبينما كانت تتابع طريقها، رأت سبستيان. تلون خداه قليلاً مع مصافحته للآنسة برات، ثم رافقها نحو محطة الأنفاق. شعرت بالامتنان لتأخر ظهوره للحظات، وبامتنان أكبر لعدم إزعاجها بتطرقه إلى الماضي. لا بل بدل ذلك، أخبرها بقصة مفصلة عن رجلين حاولا خداعه في البوكر، في الليلة السابقة.

«سعدت لرؤيتك»، قال عند افتراقهما. «أعتقد أني سأجده هنا.»

«تجد ماذا؟» سألت الآنسة برات.

«كنت في طريقي لشراء [سمّى عنوان كتاب] من متجر الكتب، ولكني أعتقد أني سأجده في هذا الكشك هنا.»

ذهب لحضور الحفلات الموسيقية والمسرح، وشرب الحليب الساخن في منتصف الليالي الباردة، عند أكشاك القهوة ومع السائقين. قيل إنه عاود ولثلاث مرات، مشاهدة فيلم - فيلم لا يحمل شيئاً من المتعة يدعى «الحديقة المسحورة». بعد شهرين من وفاته، وبعد أيام من معرفتي بحقيقة السيدة لوسيرف، اكتشفت أن الفيلم متاح في دار عرض فرنسية، فذهبت لحضوره مدفوعاً بنية واحدة، وهو معرفة سر جذبه له. عند نقطة ما في منتصفه، تحولت القصة إلى الريفييرا، وكانت هنالك لقطة تعرض أشخاص يستحمون بأشعة الشمس. هل كانت نينا بينهم؟ أكانت تلك الكتف العارية تخصها؟ ظننت أن إحدى الفتيات التي التفتت صوب عدسة التصوير

قد بدت تشبهها، ولكن زيت الشمس، ولمعة الاسمرار، والظل الملون الكثيف فوق الجفون، لا تسمح بتمييز وجه على نحو صحيح. كان مريضاً جداً لمدة أسبوع خلال شهر أغسطس، ولكنه رفض المكوث في السرير كما أمر الطبيب أوتس. ذهب خلال سبتمبر لزيارة بعض الأشخاص في الريف: لم تكن معرفته بهم قوية، ولكنهم دعوه بوازع من الأدب، عندما ذكر أنه كان قد رأى صورة لمنزلهم في مجلة «براتلر». قضى أسبوعاً كاملاً في التجول حول منزل بارد، حيث ساد جو من الحميمية بين كل زواره الآخرين، وحيث استفاق ذات صباح وغادر مشياً نحو المحطة الواقعة على بعد عشرة أميال، ومنها عاد بصمت إلى المدينة، مخلفاً وراءه سترة عشاء وكيس أدوات استحمام. في بداية نوفمبر، تناول الغداء مع شيلدون في نادي شيلدون، وكان صموتاً للحد الذي دفع صديقه للتساؤل لماذا قد أتى لزيارته في الأصل. ثم تأتي فترة لا أعرف عنها شيئاً. يبدو أنه ذهب خلالها إلى الخارج، ولكني أعتقد، غير جازم، أنه لم يكن لديه أي خطة محددة حول محاولة جديدة للقاء نينا، الأمل الضعيف الذي سبب له كثير من القلق والألم.

كنت قد قضيت معظم شتاء ١٩٣٥ في مارسيليا، للاهتمام ببعض أعمال شركتي. في منتصف يناير ١٩٣٦، تلقيت رسالة من سبستيان، ولسبب غريب جداً، كانت مكتوبة بالروسية.

«كما ترى، فإني الآن في باريس، ويبدو أني سأضطر للبقاء فيها لبعض الوقت. إن استطعت القدوم فتعال؛ وإن لم تفعل فلن أشعر بالإهانة؛ ولكني سأكون ربما في حال أفضل لو أتيت. لقد سئمت من كثير من الأمور الملتوية، وعلى وجه الخصوص جلدي الثعباني المتبدل، وها أنا اليوم أجد عزائي الشعري في كل الأمور العادية والواضحة، والتي، لسبب ما، قد أهملتها طوال حياتي.

كان عليَّ، على سبيل المثال، أن أسألك عما كنت تقوم به طوال الأعوام الفائتة، وأن أخبرك عن نفسي: أرجو أنك قد أفلحت في حياتك أكثر مما فعلت أنا. في الآونة الأخيرة، كنت ألتقي كثيراً بالطبيب ستاروف، الذي عالج مامّا [هكذا كان سبستيان يدعو أمي]. قابلته صدفة ذات ليلة في الشارع ، بينما كنت مجبراً على التوقف والاستراحة فوق الرف الخلفي الخارجي لسيارة مركونة. بدا يظن أني كنت أتسكع في باريس منذ وفاة مامّا، وأذعنت من دون جدل لما رُوي له عن حياتي في المغترب، إذ وجدت أن الأمر أكثر تعقيداً من أن أشرحه. يوماً ما ستقع على بعض الأوراق؛ ستحرقها من فورك؛ للحقيقة، لقد سمعتْ تلك الأوراق بعض أصوات في دومريمي(*)، ولكن الآن، عليها أن تعاني من الشد إلى الوتد، لتُضرم فيها النار. لقد احتفظت بها، ووهبتها مساكن للإقامة الليلية؛ إذ إنه من الأسلم لأشياء كهذه أن تبقى نائمة، لأنني لو أعدمتها، لبقيت أشباحها تطاردني. ذات ليلة، وحين كانت بعض مشاعر قاتلة قد استحوذت علي، وقّعت على مذكرة موتها، وهذا ما ستعرفه وتنفذه لاحقاً. كنت نزيلاً في ذات الفندق المعتاد، ولكني الآن قد انتقلت إلى ما يشبه مصحة خارج المدينة؛ انتبه للعنوان. كنت قد بدأت بكتابة هذه الرسالة منذ أسبوع تقريباً، وعندما وصلت خلالها إلى كلمة «حياة»، بدلت توجيهها إلى شخص آخر. ثم، بطريقة أو بأخرى، عادت إليك، كضيف خجول في منزل غريب، سيتحدث مطولاً إلى أقرب نسيب له، كان قد جاء بصحبته إلى الحفلة. لذا، سامحني إن كنت قد أضجرتك، ولكني، لا أعرف لماذا، ولكني لا

(*) دومريمي: مسقط رأس الشهيدة جان دارك الفرنسية التي أعدمت حرقاً. (مترجم)

أحب منظر تلك الأغصان والفروع العارية، التي أراها من نافذتي الآن.»

أزعجتني هذه الرسالة، طبعاً، ولكنها لم تقلقني كثيراً، لأني كنت أعرف، ومنذ عام ١٩٢٦، أن سبستيان يعاني من داء عضال، يتنامى على نحو متزايد، خلال سنوات حياته الخمس الأخيرة. عليَّ أن أعترف خجِلاً أن ردة فعلي العفوية تجاه ذلك الإنذار قد كبحتْها فكرتي عن سبستيان بأنه كان شخصاً قلوقاً شديد العصبية، وأنه كان ذا ميل دائم إلى التشاؤم، إذا ما تعلق الأمر بأموره الصحية. لم أملك - وهنا أكرر - أدنى فكرة عن مشاكل في قلبه، لذا تمكنت من إقناع نفسي أنه كان يعاني من إرهاق بسبب إفراطه في العمل. ومع ذلك، لقد كان مريضاً وقد توسل لقائي بلهجة رأيت فيها شيئاً من رواياته. لم أشعر يوماً بحاجته إلى وجودي، ولكنه كان وقتذاك، يستعطفني بطريقة إيجابية. لقد أثرت فيّ، وأربكتني، ولو أني كنت أعرف كامل الحقيقة، لكنت ركضت للحاق بأول قطار يحملني إليه. تلقيتها يوم خميس، وعزمت على السفر إلى باريس في السبت والعودة مساء الأحد، لأني توقعت أن شركتي لا تتوقع مني أخذ عطلة خلال هاتيك المرحلة الحرجة التي كانت أعمالنا تمر فيها، والتي كنت أرعاها في مارسيليا. لقد قررت فقط، بدل أن أكتب شارحاً أنني سأرسل له برقية سريعة صباح السبت لأخبره بالوقت المحدد لانطلاق القطار.

في تلك الليلة، رأيت حلماً غريباً. حلمت بأني جالس في غرفة كبيرة ومعتمة، قد أثثها حلمي بعجالة، بأشياء غريبة مجموعة من عدّة منازل، عرفتها بشكل مبهم، مع بدائل أكثر غرابة، على سبيل المثال، رف غير مطلي، كان في الوقت ذاته درباً مغبراً. كان لدي شعور ضبابي أن الغرفة كانت في مزرعة أو بيت ريفي - انطباع عام

قد تركته الألواح والجدران الخشبية. كنا ننتظر سبستيان الذي كان يُفترض أنه عائد من رحلة طويلة. كنت جالساً فوق قفص أو ما شابه، وكانت أمي أيضاً موجودة في الغرفة، وكان هنالك شخصان آخران يتناولان الشاي إلى الطاولة المستديرة التي جلسنا نحن إليها أيضاً - رجل من مكتبي مع زوجته، الشخصين اللذين لم يكن سبستيان يعرف أي منهما، ولكنهما كانا هناك بترتيب من مخرج الحلم - فقط لأنه يجب ملء الخشبة، بأي كان.

كان انتظارنا قلقاً، تخيم على أجوائه روح الشؤم، وشعرت أنهم يعرفون أموراً أجهلها، ولكني خفت من أن أسأل لماذا كانت أمي تحمل كل ذلك القلق تجاه دراجة موحلة رفضت أن تحشرها في خزانة ملابسها: بقيت أبوابها مفتوحة. كانت هنالك لوحة لسفينة بخارية فوق الحائط، وكانت الأمواج تحتها تتحرك كموكب من العثّات. اهتزت الباخرة وأزعجتني - إلى أن تذكرت أن تعليق مثل هذه الصورة هو عادة قديمة وشائعة، عندما نكون بانتظار عودة مسافر. كان سيصل في أي لحظة، وكانت الأرضية أمام الباب مرشوشة بالرمل، كي لا ينزلق. تجولت أمي في الغرفة مبتعدة عنا بسبب دموعها التي لم تعد قادرة على إخفائها، ولسبب ما اختفى الشخصان الآخران، فوجدت نفسي وقد بقيت وحيداً، عندما فتح باب في ممر الطابق العلوي، ليظهر سبستيان، ويبدأ بنزول بطيء فوق درجات متهالكة، توصل إلى الغرفة مباشرة. كان أشعث الشعر ولا يرتدي معطفاً: كان، حسبما فهمت، قد استفاق لتوّه من قيلولة العصر. عندما نزل الدرجات، متوقفاً قليلاً فوق كل منها، مع إبقائه قدمه معلقة في الهواء ومستعدة للمتابعة، ومع ذراعه المسترخي فوق الدرابزين، عادت أمي وساعدته على النهوض، عندما تعثر وسقط فوق ظهره. عندما وصل عندي، ضحك؛ ولكني شعرت أنه كان

خجلاً من شيء ما. كان وجهه شاحباً وغير حليق، ولكن تعلوه مسحة من البهجة.

أمي، مع كأس فضية في يدها، جلست فوق ما تبين أنه نقالة، قد حملها فوقها رجلان كانا يقيمان أيام السبت في ذلك المنزل، وهذا ما أخبرني به سبستيان مبتسماً. لاحظت فجأة أنه كان يضع قفازاً أسود في يده اليسرى، اليد التي لم تكن أصابعها لتتحرك، والتي لم يستعملها أبداً - كنت مرعوباً إلى حد الغثيان، من أن يلمسني بها من دون قصد منه، إذ إني أدركت أنها يداً اصطناعية معلقة بالمعصم، وأنه ربما قد تعرض لحادث ما، أو أنه أجرى عملية ما. وفهمت أيضاً لماذا بدا ظهوره غامضاً، ولماذا سيطر هذا الجو من الغموض على انتظار قدومه، ولكنه، ورغم أنه لاحظ ارتجافي، تابع احتساءه للشاي. جاءت أمي من وراء ظهري للبحث عن الكشتبان الذي نسيته، ثم ابتعدت فوراً، عائدة نحو الرجلين اللذين كانا في عجلة من أمرهما. سألني سبستيان ما إذا كانت اختصاصية الأظافر قد جاءت أثناء غيابه، إذ إنه كان حريصاً على الاستعداد لوليمة العشاء. حاولت تغيير الموضوع لأني ما كنت لأطيق فكرة اليد المشوهة، ولكني بعد لحظات رأيت الغرفة مليئة بالأظافر المكسرة، ووصلت فتاة، كنت أعرفها (ولكن معالمها هنا كانت قد تلاشت على نحو غريب) مع حقيبة أدوات تقليم الأظافر، وجلست فوق مقعد أمام سبستيان. طلب مني عدم النظر. رأيته ينزع ببطء قفازه الأسود، الذي عندما انزلق، كشف عن محتواه الوحيد - عدد من الأيدي الصغيرة، تشبه المخالب الأمامية لفأرة، بنفسجية - وردية وطرية. كان هنالك الكثير منها، وقد وقعت فوق الأرض فجثت الفتاة في فستانها الأسود فوق ركبها. انحنيت لأرى ماذا تفعل تحت الطاولة، فوجدت أنها كانت تلتقط الأيدي الصغيرة، ثم تضعها في طبق - نظرت عالياً

فوجدت سبستيان وقد اختفى، وعندما انحنيت ثانية كانت الفتاة قد اختفت بدورها. شعرت أني لا أستطيع البقاء في تلك الغرفة للحظة أخرى. ولكن ما إن التفت وأمسكت مقبض الباب، سمعت صوت سبستيان خلفي؛ بدا واصلاً من أبعد زاوية وأكثرها ظلاماً، والتي تحولت في اللحظة التالية إلى حظيرة هائلة، مع حبوب تقطر من كيس مثقوب، عند قدمي. لم أتمكن من رؤيته وكنت متلهفاً للهروب، مع قلب يخفق بشدة، مغرقاً بصوت نبضه القوي الكلمات التي كان سبستيان ينطق بها. عرفت أنه كان يناديني ويقول أشياء مهمة - واعداً بأنه سيخبرني بما هو أكثر أهمية، في حال جئت إليه في الزاوية التي كان جالساً أو ربما مستلقياً فيها، محاصراً بالأكياس الثقيلة التي سقطت بين ساقيه. تحركت، وجاء صوته في آخر نداء عال وملح، ثم في جملة لم أجد لها أي معنى بعد أن استخلصتها من حلمي؛ ثم، وفي الحلم ذاته، دوّت كلماته محذرة من خطر وشيك، واعدة بحل لغزي الوحشي، وكنت في النهاية سأهرب إلى حضن سبستيان، لو لم أكن في نصف حلمي.

أعرف أن الحصاة العادية التي تجدها في قبضتك بعد أن تغرق ذراعك في الماء حتى الكتف، حيث تهيأ لك أنك رأيت بريق جوهرة فوق رمل القاع، إنما هي في الحقيقة الجوهرة المرغوبة، حتى وإن بدت كحصاة، بعد أن تجففها شمس النهار. لذلك شعرت أن الجملة الغبية التي علقت في رأسي عند استيقاظي، كانت حقاً ترجمة مشوشة لكشف مذهل؛ وبينما كنت مستلقياً على ظهري أستمع لأصوات الشارع المألوفة، وللمزيج الموسيقي التافه، الصادر من مذياع مبتهج في غرفة الشخص الساكن فوقي، أثناء تناول فطوره، سرت في بدني قشعريرة برد سبّبتها مخاوف مروّعة، صار بدني يرتجف تحت وطأتها، فقررت أن أبعث برقية لسبستيان أخبره فيها أنني قادم لرؤيته

في اليوم ذاته. ولكن، وباتباعي السخيف للعقلانية والحس السليم (الذي لم يكن إحدى نقاط قوتي) فكرت أنه من الأفضل أولاً أن أذهب إلى فرع شركتي في مرسيليا، لأرى ما إذا كان بالإمكان أن أعفى من حضوري في ذلك اليوم. وحين وصلت هناك، لم أجد أن ذلك لم يكن ممكناً فحسب، بل حتى غيابي في عطلة نهاية الأسبوع أيضاً. عدت إلى منزلي مساءً - مساء الجمعة - بعد نهار طويل من العمل المضني. كانت هنالك رسالة بانتظاري منذ الظهيرة - وكم كان غريباً أنني كنت قد نسيت تماماً الهمس الجدي للتحذيرات الغيبية الدقيقة التي كشف عنها حلمي، فلذلك، وعندما بدأت بفتح الرسالة، لم أكن متوقعاً إلا أخباراً عن العمل.

«حالة سفستيان ميؤوس منها. احضر حالاً. ستاروف.»

كان حرف الباء في اسمه مستبدلاً بالفاء، كما يلفظ بالروسية؛ لسبب أجهله، توجهت إلى الحمام حيث بقيت واقفاً للحظات أمام المرآة. ثم اختطفت قبعتي وأسرعت في نزول الدرجات. كانت الساعة الحادية عشرة إلا ربعاً عندما وصلت المحطة، وكان القطار سينطلق عند الثانية عشرة ودقيقتين، ليصل باريس عند الثانية والنصف من فجر اليوم التالي.

ثم اكتشفت أني لا أحمل نقدياً ما يكفي لحجز مقعد في الدرجة الثانية، وترددت للحظات، سائلاً نفسي ما إذا لم يكن من الأفضل أن أعود لأحضر المزيد من النقود، ثم أطير إلى باريس بمجرد عثوري على أقرب مقعد طائرة. ولكن تبين أن وجود القطار القريب كان مغرياً جداً. استفدت من أرخص فرصة، كما أفعل عادة في الحياة. ولكن ما كاد القطار يتحرك، حتى أدركت مصدوماً أني قد تركت رسالة سبستيان في مكتبي، وأني لا أذكر العنوان الذي كان فوقها.

الفصل العشرون والأخير

مكتبة
t.me/soramnqraa

كانت الحجرة المزدحمة، مظلمة، مليئة بالأرجل، ويكاد الهواء يختنق فيها. كانت قطرات المطر تدلف فوق النوافذ: لم يكن ذلك في خطوط مستقيمة، بل في مسارات متعرجة، مترددة، تتوقف بين الحين والآخر. كان المصباح الليلي بلون الأزرق البنفسجي منعكساً فوق الزجاج الأسود. كان القطار يزيد من اهتزازه وتأوهه كلما أوغل في الليل. ما كان اسم ذلك المصح بحق الجحيم؟ كان في أوله حرف «م». كان في أوله حرف «م». كان في أوله... تشابكت العجلات في حركتها المتكررة ثم استعادت إيقاعها. سوف أحصل على العنوان من الطبيب ستاروف. سأتصل به فوراً حالما أصل. كان أحدهم يركل أثناء حلمه، وكاد حلمه يدخل بين ساقي، لولا أنه انسحب ببطء. ماذا قصد سبستيان يا ترى بـ«الفندق المعتاد»؟ لم أستطع تذكّر أي مكان خاص اعتاد النزول فيه في باريس. أجل، لا بد أن ستاروف يعرف. «مار».. «مان».. «مات». أتراني أصل في الوقت المناسب؟ دفع ورك جاري وركي، عندما استدار من نوع شخير إلى آخر، أكثر حزناً. أأصل حيّه في الوقت المناسب وأجده حياً؟ أصل حيه... أجده حياً... أصل حيه... أجده حياً. كان يريد إخباري بأمر ما، أمر فائق الأهمية. بدت تلك المقصورة المعتمة، المهتزة، المليئة بالدمى المسترخية، كجزء من حلمي الذي

رأيته في أمسي. ما الذي أراد إخباري به قبل موته؟ انهمر المطر وضرب النوافذ، وبدأت رقائق ثلج شبحية بالاستقرار فوق الزوايا، ثم ما لبثت أن ذابت. عاد أحد الجالسين قبالتي إلى الحياة فجأة؛ سُمع في الظلام صوت خشخشة ورقة، ثم صوته يلوك شيئاً، وعندما أشعل سيجارة، بدا توهجه المستدير كعين سايكلوب تحدق بي. يجب أن أصل في الوقت المناسب، يجب ذلك. لماذا لم أتوجه إلى المطار فور استلامي للرسالة؟ كان عليَّ أن أكون مع سبستيان الآن! ما كان مرضه المميت؟ سرطان؟ ذبحة صدرية - كوالدته؟ وكما يحدث مع كثير من الناس الذي لا يقيمون للدين أهمية في شؤونهم الحياتية، اخترعت على عجالة رباً حنوناً، دافئاً، سريع البكاء، وهمست في أذنه صلاة غير رسمية: دعني أصل في الوقت المناسب، دعه يصمد حتى أصل، اسمح له بأن يخبرني بسره. تحول المطر كله الآن إلى ثلج، ونَمَتْ لزجاج النوافذ لحى رمادية.

الرجل الذي مضغ شيئاً ودخن عاد للنوم ثانية. أيمكنني محاولة مدّ ساقَي، لوضع قدميّ فوق شيء ما؟ تلمست طريقي برؤوس أصابع قدمي التي زادت سخونتها لتصير محرقة، ولكن الليل حولي لم يكن إلا لحماً وعظماً. عبثاً كان بحثي التواق عن شيء ما خشبي، أَضعه تحت كاحليّ أو تحت ربلتيّ. «مار».. «ماتامار».. «مار».. كم يبعد ذلك المكان عن باريس؟ الطبيب ستاروف. آلكسندر آلكسندروفيتش ستاروف. كان القطار يشق طريقه عبر المطر، مردداً حروف الـ "X" تلك(*). وصلنا محطة غير معروفة. عندما توقف القطار، تعالت أصوات من المقصورة المجاورة؛ كان أحدهم يقصّ

(*) مردداً حروف الـ "X" تلك: أي في اسم آلكسندر آلكسندروفيتش. (مترجم).

حكاية لا نهاية لها. سُمعت أيضاً أصوات غير منتظمة لجر الأبواب الانزلاقية، ثم فتح مسافر ذو وجه كئيب باب مقصورتنا أيضاً، وبدا الأمر ميؤوساً منه. ميؤوساً منه. «حالة ميؤوس منها». يجب أن أصل في الوقت المناسب. كم أهدر هذا القطار من الوقت متوقفاً في المحطات! تنهدت يد جاري اليمنى وحاولتْ مسح زجاج النافذة، ولكنها بقيت ضبابية مع إضاءة صفراء شاحبة تلمع من خلالها. انطلق القطار من جديد. شعرت بألم في كامل عظامي وفي عمودي الفقري. حاولت إغماض جفني والاستسلام للنعاس، ولكن كثير من الصور كانت تطفو فوق أجفاني الداخلية - وجاءت حزمة ضوئية صغيرة، تشبه النقاعيات المجهرية لتسبح عبرها، مبتدئة من الزاوية ذاتها. بدأت أميّز بينها شكل مصباح محطة مررت فيها منذ زمن بعيد جداً.

ثم ظهرت الألوان، والتفَتَ نحوي ببطء وجه وردي بعينين غزلانيتين واسعتين - ثم باقة من الزهور، ثم ذقن سبستيان غير الحليق. فقدت صبري على تحمل صندوق الألوان البصري ذاك، ومع مناورات متحرسة لا حصر لها، تشبه خطوات راقص باليه مصورة بتقنية الحركة البطيئة، خرجت إلى الممر. كان مضاءً وبارداً. بقيت هنالك لفترة أدخن، ثم تهاديت حتى آخر المقطورة، وتمايلت للحظات فوق ثقب قذر في أرضية القطار، يصدر صريراً، ثم تراجعت للخلف، ثم دخنت سيجارة أخرى. في حياتي كلها، لم أرغب في شيء بالقوة التي رغبت فيها أن يبقى فيها سبستيان حياً حتى وصولي، كي أنحني فوقه، وألتقط الكلمات التي أراد قولها. كتابه الأخير، آخر حلم رأيته، غموض رسالته، كل ذلك قد أكد لي، وبشدة، أنه كان سيكشف لي عن أمر ليس بالعادي. هذا إن وصلت وكانت شفتاه ما زالتا تتحركان. إن لم أتأخر كثيراً. كانت هنالك لوحة خريطة فوق إحدى النوافذ، ولكن لم يكن لها أي علاقة بمسار

رحلتي. كان لوجهي انعكاس قاتم فوق الزجاج. «من الخطير أن تستند إلى النافذة»، قالها جندي بشعر أحمر مسرح، كاد يكون لصيقاً بي عند مروره، وقد بقي في يدي وخز خفيف، بعد أن لامست كمه. كنت متحرقاً للاغتسال، متحرقاً لغسل هذا العالم الخشن عني، لأظهر في هالة باردة من النقاء أمام سبستيان. لقد انتهى الآن من كل الأمور الدنيوية المميتة، ولا يحق لي إهانة أنفه بعفونتها. لكم أرغب في لقائه حياً! لم يكن ستاروف ليصيغ رسالته بتلك الطريقة لو أنه كان متأكداً من وصولي بعد فوات الأوان. وصلت البرقية عند الظهيرة. يا إلهي! لقد وصلت عند الظهيرة وها قد مضى على ذلك ست عشرة ساعة، ومتى تراني أصل «مار».. «مات».. «رام».. «رات».. لا، لا، ليس «ر»، يبدأ الاسم بـ «م». للحظة واحدة، رأيت شكل الاسم على نحو غائم، ولكنه تلاشى قبل أن أتمكن من التقاطه. وقد يكون السر متعلقاً بنكسة أخرى: المال. كان عليَّ أن أهرع من المحطة إلى مكتبي لإحضار بعض المال، فالمكتب قريب جداً منها، أما المصرف فبعيد. أيعيش أحد اصدقائي العديدين بالقرب من المحطة؟ لا، فإنهم جميعاً يعيشون في باسي أو بورت سان كلاود - الحيين الروسيين في باريس. سحقت سيجارتي الثالثة وبحثت عن مقطورة أقل ازدحاماً. الحمد لله أني لم أكن قد تركت حقيبة في المقصورة التي تركتها، كي لا تجبرني على الرجوع إليها. ولكن المقطورة بكامل مقصوراتها كانت مكتظة، ولم أكن في حال تسمح لي بالذهاب إلى أخرى. حتى أني لم أكن متأكداً ما إذا كانت المقصورة التي بدأت بتلمسها هي الأولى ذاتها أم غيرها! لم تكن سوى مكان يعج بالأقدام والركب والمرافق - غير أن رائحة الجبن في هوائها كانت أقل. لمَ لم تسبق لي زيارة سبستيان في لندن؟ لقد دعاني مرة أو مرتين. لمَ تجنبته بكل هذا العناد، طالما أنه كان أكثر من أعجبت به بين الرجال؟ أولئك

الحمقى اللعينون الذين سخروا من عبقريته... وبينهم، على وجه الخصوص، أبله عجوز لطالما رغبت في فكّ رقبته النحيلة، وبشراسة. أوه، تبين أن ذلك الوحش الضخم الذي يتدحرج إلى يساري هو امرأة؛ صراع بين الكولونيا والعرق، انتهى بفوز الأخير. ولا حتى روح واحدة فوق هذا القطار تعرف من يكون سبستيان نايت. ذلك الفصل من «ملكية مفقودة» كان مترجماً بشكل سيّئ في مجلة «كادران». أو ربما «الحياة الأدبية»؟ أوه، هل تأخرت؟ أفات الأوان - هل مات سبستيان فعلاً بينما أنا جالس فوق مقعد ملعون بتنجيد جلدي رقيق وباعث على السخرية، لا يمكنه خداع مؤخرتي المتألمة؟ أسرع، أسرع أيها القطار، أرجوك! لم عليك التوقف في المحطة التالية؟ ولمَ تطيل الوقوف إن فعلت؟ تحرك! تحرك! فهذا أفضل!

تلاشت الظلمة تدريجياً متحولة إلى غبش رمادي، وبدأ عالم من الثلج يتضح بشكل ضعيف، من خلال النافذة. لم يقني معطفي الرقيق من البرد القارس. أصبحت وجوه رفاق السفر مرئية كما لو أن طبقات من شباك العناكب ومن الغبار، قد كُنست بعيداً. كان بحوزة المرأة إلى جانبي إناء قهوة حافظ للحرارة، وكانت تحملها بحنوّ أمومي. شعرت بلزوجة تجتاحني، وبألم في ذقني لأني لم أحلقها. شعرت أنه حتى وإن لامس الحرير وجنتي الخشنة الآن، فسيغمى عليّ. بين كل الغيوم الشاحبة، كانت هنالك غيمة وردية بلون اللحم، وفي العزلة المأساوية للحقول الجرداء، تلونت بقع الثلج الذائب، بالوردي الباهت. برز طريق وانزلق على امتداد مسار القطار، وقبل أن ينعطف، ظهر رجل يتمايل فوق دراجته الهوائية ما بين الثلج، طين الثلج الذائب، والبرك. أين كان ماضياً؟ من تراه كان؟ لن يعرف أحد أبداً.

أظن أنه كان عليّ النوم لساعة أو أكثر بقليل - أو على الأقل أن أُبقي عالمي الداخلي مظلماً. كان رفاقي يتحدثون ويأكلون عندما فتحت عينيّ، وشعرت فجأة بالاشمئزاز لدرجة أني دفعت بنفسي إلى الخارج للجلوس فوق مقعد إضافي خارجي قابل للطي، لبقية رحلتي، بذهن فارغ تماماً، كما ذلك الصباح البغيض. كان القطار، كما أُخبرت، متأخراً جداً، ربما بسبب العاصفة الثلجية التي ضربت ليلاً، أو شيء من هذا القبيل، وتبين أنه لن يصل باريس قبل الرابعة إلا ربعاً عصراً. مع نزولي إلى رصيف المحطة، اصطكت أسناني برداً، وراودني للحظات دافع طائش لصرف الفرنكين أو الثلاثة في جيبي على ليكور قوي. ولكني بدل ذلك توجهت إلى الهاتف. قلبت بدليل الهاتف ذي الغلاف اللامع الناعم، باحثاً عن رقم الطبيب ستاروف، محاولاً أن لا أفكر لحظتها فيما إذا كان سبستيان ما زال حياً أم لا. ستاراكوس للدباغة... ستارلي مهرج ومشعوذ.. أه! ها هو ستاروف: جاسمين ٦١-٩٣. قمت بعض التلاعبات المريعة ونسيت الرقم في الوسط، فعدت للمعاناة مرة ثانية مع الكتاب، وأعدت طلب الرقم، واستمعت للحظات لرنين مشؤوم. جلست لدقيقة صامتاً: فتح أحدهم الباب ثم تراجع مع تمتمة غاصبة. مرة ثانية، دار القرص وعاد إلى مكانه، خمس، ست، سبع مرات، ومرة أخرى، لا شيء سوى الرنين الحاد، دووون، دووون، دووون... لمَ كان حظي سيئاً لهذه الدرجة؟ «هل انتهيت؟» سأل الشخص ذاته - رجل مسن غاضب له وجه كلب بولدوغ. بأعصابي التي كانت على حافة الانفجار، دخلت شجاراً مع عجوز مقيت. لحسن الحظ، أصبحت مقصورة الهاتف المجاورة شاغرة؛ حشر نفسه فيها. عدت للمحاولة. وأخيراً نجحت. جاء صوت امرأة ليخبرني أن الطبيب لم يكن موجوداً، ولكن يمكنني الاتصال به عند

الخامسة والنصف، على رقم أعطتني إياه. عندما وصلت مكتبي في باريس، لاحظت أن وصولي قد تسبب بمفاجأة معينة. عرضت البرقية التي وصلتني على رئيسي، ومع ذلك كان أقل تعاطفاً مما يمكن للمرء أن يتوقع في مناسبة كهذه. بِرد فعل غير ملائم أبداً، طرح عليّ بعض الأسئلة عن أعمالنا في مارسيليا. في النهاية حصلت على المال الذي أردت، ودفع لسائق سيارة الأجرة التي كانت تنتظر أمام الباب. كانت الساعة آنذاك الخامسة إلا ثلث، أي أنه قد بقي أمامي ما يقارب الساعة.

ذهبت للحلاقة ثم تناولت فطوراً سريعاً. عند الخامسة والثلث، اتصلت بالرقم الذي حصلت عليه، فقيل لي إن الطبيب قد ذهب إلى المنزل وسيعود في غضون ربع ساعة. لم يسمح لي صبري بالانتظار، فاتصلت بالمنزل. أجابني الصوت الأنثوي ذاته الذي سبق أن سمعته، أنه قد غادر المنزل للتو. اتكأت على الحائط (كان كشك الهاتف في مقهى هذه المرة)، ورحت أنقر فوقه بقلمي. هل سأتمكن من الوصول إلى سبستيان؟ أين هم أولئك الأغبياء العاطلين عن العمل الذين كتبوا فوق الحائط «الموت لليهود» أو «عاشت الجبهة الشعبية»، أو تركوا رسومات فاحشة؟ كان فنان مجهول قد بدأ بمربعات سوداء - رقعة شطرنج، ein Schachbrett، un damier(*)... لمع شيء ما في عقلي وجاء الاسم فوق لساني: سان دامييه! ركضت مسرعاً وأومأت لسيارة أجرة عابرة. هل سيأخذني إلى سان دامييه، حيث يوجد المكان؟ فرد خريطة وبقي لبعض وقت يتفحصها على مهل. ثم أجاب أن الوصول هناك

(*) ein Schachbrett، un damier: رقعة شطرنج بالألمانية والفرنسية. (مترجم)

سيستغرق ساعتين على الأقل - بالنظر إلى حالة الطريق. سألته ما إذا كان من الأفضل لو أستقل قطاراً. قال إنه لا يعرف. «حسناً، جرب بأسرع ما يمكنك!» قلت، ثم نزعت عني قبعتي ما إن اندفعت داخل السيارة.

استغرقت مغادرة باريس وقتاً طويلاً. لم تبق عقبة دون أن تعترض طريقنا، وأعتقد أني لا أكره شيئاً في حياتي بقدر ما أكره ذراع شرطي أحمق تلوح عند مفترقات الطرق. أخيراً، نجحنا في تجنب الازدحام المروري نحو جادة طويلة ومظلمة. ولكن كانت سرعتنا لا تزال غير كافية. فتحت النافذة وناشدت السائق لزيادة سرعته. أجاب بأن الطريق كان زلقاً جداً - وفي الواقع، لقد انزلقت بنا السيارة على نحو خطير لمرة أو مرتين. بعد ساعة من القيادة، توقف وسأل شرطياً فوق دراجة هوائية عن الطريق. تفحص كل منهما كل إنش من خريطة الشرطي، ثم أخرج السائق خاصته أيضاً، ثم قارناهما. كنا قد أخطأنا منعطفاً ما، وتوجب علينا العودة لما لا يقل عن ميلين. نقرت مرة أخرى فوق الحاجز الزجاجي: كانت سيارة الأجرة تزحف ببطء. هز رأسه دون أن يديره نحوي. نظرت إلى ساعة يدي، كانت قد قاربت السابعة. توقفنا عند محطة وقود، وبدأ السائق بحديث قد بدا شخصياً مع عامل المرآب. لم أتمكن من تخمين مكان تواجدنا، ولكن، وبما أن جانبي الطريق قد أصبحا الآن محاطين بمساحات واسعة من الحقول، أملت أننا لا بد اقتربنا من الهدف. بدأ المطر بضرب النوافذ، وعندما توسلت السائق مرة أخرى لمزيد من السرعة، فقد أعصابه وجاء رده فصيح الفظاظة. شعرت بالعجز والخدر، وتركت نفسي للغرق في مقعدي الخلفي. اجتازتنا نوافذ باهتة الإضاءة. أتراني أتمكن من الوصول إلى سبستيان؟ وهل سيكون حياً في انتظاري إن كُتب لي الوصول إلى سان دامييه؟

تجاوزتنا سيارات أخرى لمرة أو مرتين أخريين، ولفتُّ انتباه السائق إلى سرعتها. لم يجب، ولكنه توقف فجأة، وبإيماءة غاضبة، فرد ثانية خريطته السخيفة. سألته ما إذا كنا قد تهنا عن طريقنا مجدداً. بقي صامتاً، ولكن تعبير عنقه الثخين لم يوحِ بالخير. استمر في القيادة. لاحظت بارتياح أن سرعته قد زادت. مررنا تحت جسر سكة حديدية، ثم توقفنا أمام محطة. تساءلت ما إذا كانت محطة سان دامييه. خرج السائق من السيارة، فتح بابي بعنف، «حسناً، ما الأمر الآن؟» سألت.

«عليك أن تكمل الرحلة في القطار»، قال السائق، «فأنا لست على استعداد لتحطيم سيارتي من أجلك. هذا هو خط سان دامييه، ويمكنك اعتبار نفسك محظوظاً إذ وجدت من يقلك إلى هنا.»

لقد كنت محظوظاً أكثر مما تصور لأني وجدت القطار على وشك المغادرة. أقسم حارس المحطة أني سأكون في سان دامييه عند التاسعة. كانت تلك المرحلة الأخيرة من رحلتي الأكثر ظلمة. كنت وحدي في المقطورة كلها، واستولى عليَّ نعاس غريب: إضافة إلى نفاد صبري، كنت مرعوباً أيضاً من فكرة أن يسرقني النوم فتفوتني محطتي المنشودة. توقف القطار في كثير من الأحيان، ولم يكن هنالك ما يدل على اسم المحطات، وهذا ما زاد من استيائي. عند إحدى هذه المحطات، اجتاحني شعور مروع عندما استفقت على اهتزاز مفاجئ، ظاناً أني قد غفوت لوقت طويل؛ وعندما نظرت إلى ساعة يدي، أشارت إلى التاسعة إلّا ربعاً. أتكون المحطة قد فاتتني؟ كدت أقرع جرس الإنذار، ولكني شعرت تواً أن القطار يتباطأ. أخرجت رأسي من النافذة، لمحت لافتة مضيئة، تجاوزناها قبل توقفنا، كُتب فوقها: سان دامييه.

مشيت لربع ساعة من الوقت متعثراً عبر ممرات مظلمة، وما بدا

لي، من خلال همهمته، أنه غابة صنوبر، أوصلني إلى مستشفى سان داميه. سمعت خلف الباب صوت جرّ أقدام ولهاث، ثم سمح لي بالدخول رجل عجوز سمين، يرتدي سترة رمادية سميكة بدل من معطف، وكان ينتعل خفاً بالياً. دخلت ما يشبه المكتب، وكان مضاءً بمصباح كهربائي ضعيف النور، قد تكدس الغبار فوق جانب واحد منه. بدا لي الرجل يومض بعينيه، مع لعاب النوم لا يزال يلمع فوق ذقنه، ولسبب ما لم أفهمه، بدأت بالتحدث إليه همساً.

«لقد جئت هنا»، قلت، «لرؤية السيد سبستيان نايت، K, n, i, g, h, t.»

نخر ثم جلس متثاقلاً إلى طاولة الكتابة، تحت المصباح المعلق.

«الوقت الآن متأخر للزيارات»، قال متمتماً كما لو كان يهمس لنفسه.

«لقد تلقيت برقية»، قلت، «إن أخي مريض جداً.» وبينما كنت أتحدث، شعرت أني كنت راغباً في سماع أي شيء يوحي بكون سبستيان لا يزال حياً.

«ما كان اسمه؟» سأل متنهداً.

«نايت»، قلت، «يبدأ بحرف K، إنه اسم إنكليزي.»

«على الأسماء الأجنبية أن تُستبدل دائماً بأرقام»، تمتم الرجل، «من شأن ذلك أن يبسط الأمور. هنالك مريض أجنبي توفي بالأمس، وكان اسمه...»

صُدمت بذعر فكرة أنه ربما يلمّح لسبستيان... أأكون قد تأخرت بعد كل هذا العذاب؟

«هل تقصد...» بدأت، ولكنه هز رأسه نافياً مقلباً صفحات السجل فوق مكتبه.

«لا»، قال مدمدماً، «الرجل الإنكليزي يا سيدي ليس ميتاً. K، K، K. . .»

بدأت ثانية: «K, n, i, g. . .»

«حسناً، حسناً»، قاطعني، «K, n, K, g... n. . . لست بالغبي. حسناً، الرقم ست وثلاثون.»

رن الجرس، وعاد للغرق في كرسيه متثائباً. ذرعت الغرفة جيئة وروحاً بنفاد صبر لم يمكنني السيطرة عليه. دخلت الممرضة وأخيراً، فأشار البواب إليّ.

«الرقم ست وثلاثون»، قال للممرضة.

مشيت خلفها في ممر أبيض، ثم فوق درج قصير.

«كيف حاله؟» لم أستطع إمساك نفسي عن السؤال.

«لا أدري»، قالت، ثم قادتني إلى ممرضة أخرى كانت تجلس في نهاية ممر أبيض آخر، نسخة طبق الأصل عن الأول، وكانت جالسة إلى طاولة صغيرة تقرأ كتاباً.

«زائر للغرفة ست وثلاثين»، قالت الأولى ثم انصرفت.

«ولكن السيد الإنكليزي نائم»، قالت الممرضة، وهي شابة مستديرة الوجه، بأنف صغير جداً ولامع جداً.

«أصارت حاله أفضل؟» سألت. «كما ترين، أنا أكون أخاه، وقد تلقيت برقية. . .»

«أعتقد أنه أفضل بقليل»، قالت الممرضة بابتسامة كانت في نظري أجمل من كل ما أمكن لي تخيله يوماً.

«لقد أصيب بنوبة قلبية حادة جداً صباح الأمس، والآن هو نائم.»

«اسمعي!» قلت لها وقد وضعت في كفها قطعة عشرة فرنكات

أو عشرين. «سوف أعود إلى هنا في الغد أيضاً، ولكني أرغب في دخول غرفته الآن والبقاء فيها لدقيقة.»

«ولكن حذار، يجب ألّا توقظه!» قالت، مبتسمة من جديد.

«لن أوقظه. كل ما أريده هو الجلوس قريباً منه لدقيقة.»

«حسناً، لا أعرف»، قالت. «يحق لك طبعاً إلقاء نظرة عليه، ولكن عليك أن تكون في غاية الحذر.»

قادتني نحو الباب ست وثلاثين، ثم دخلنا غرفة متناهية في الصغر، تبدو أقرب إلى خزانة، تحوي أريكة؛ دفعت قليلاً الباب الداخلي الذي كان مفتوحاً بشكل جزئي، ونظرت للحظة داخل غرفة مظلمة. في البداية، لم أستطع سماع سوى دقات قلبي، ثم التقطت أذني صوت تنفس سريع وناعم. حملقتُ كي أراه، ولكن كان هنالك ما يشبه الستار، أو شيء من هذا القبيل، نصف دائري، يحول دون ذلك. بكل الأحوال، كان ظلام الغرفة قاتماً لدرجة يستحيل معها تمييز سبستيان.

«تفضل»، قالت الممرضة هامسة. «سأترك الباب مشقوقاً، ويمكنك الجلوس هنا، فوق هذه الأريكة، لدقيقة فقط.»

أضاءت مصباحاً أزرق، صغيراً ومظللاً، ثم تركتني وحدي. اندفعتُ بحركة غبية لتناول سيجارة من جيبي. كانت يداي لا تزالان ترتجفان، ولكني شعرت بالسعادة. ما زال على قيد الحياة. كان ينام بسلام. إذاً، إنه قلبه - حقاً؟ - هو من قد خذله... كما خذل أمه من قبله. قالت إن حاله أفضل. هنالك أمل. سأحضر أفضل اختصاصيّي القلب في العالم لأنقذ حياته. وجوده في الغرفة المجاورة، صوت تنفسه الضعيف، قد منحني الإحساس بالأمان، بالسلام، وبارتياح عارم. وعندما جلست هناك أسمعه، شابكاً يدي، فكرت في كل السنوات التي مرت، فكرت في لقاءاتنا النادرة

والقصيرة، وقد علمت لحظتها، أنه ما إن يصبح قادراً على سماعي، سأخبره بأني لن أبقى بعيداً عنه بعد الآن، أبداً، سواء أعجبه الأمر أم لم يعجبه. الحلم الغريب الذي رأيته، إيماني بأن هنالك حقيقة جليلة يريد أن يورثها لي قبل موته، كل ذلك قد بدا لي وقتئذ أمراً غامضاً، مجرداً، كما لو كان غارقاً تحت تدفق عواطف أكثر بساطة، أو ربما هي أكثر إنسانية، بعد أن ضربتني موجة الحب الذي شعرت به للرجل الذي ينام وراء الباب نصف المفتوح. كيف تمكن من الابتعاد عني شيئاً فشيئاً؟ لمَ كان خلال كل لقاءاتنا القصيرة في باريس بكل ذلك السخف والكآبة والخجل؟ سوف أبتعد لوقتي الحاضر، وأقضي ليلتي في فندق، أو ربما قد يعطونني غرفة في المستشفى ذاتها، إلى أن أتمكن من رؤيته فقط؟ توهمت للحظة أن الإيقاع الضعيف لأنفاس الشخص النائم قد توقف قليلاً، وأنه قد أفاق وأطلق صوتاً خفيفاً، قبل أن يعود للغرق في نومه ثانية: عاد الإيقاع إلى ما كان عليه، خفيضاً إلى الدرجة التي لم تسمح لي بتمييزه عن أنفاسي. أوه، كنت لأقول له آلاف الأشياء - وددت لو أحدثه عن «الفص الموشوري»، و«النجاح»، و«الجبل المضحك»، و«ألبينوس باللون الأسود»، و«الوجه الآخر للقمر»، و«الملكية الضائعة»، و«البروق المريب» - كل تلك الكتب التي كنت أعرف كل شيء عنها، كما لو كنت أنا من ألفها. وكان ليحدثني هو أيضاً. يا لقلة ما عرفت عن حياته! ولكن، وبينما أنا جالس هناك، شعرت أني أعرف شيئاً مع مرور كل لحظة. ذلك الباب المفتوح جزئياً، كان أفضل رابط يمكن تخيله. ذلك التنفس الرقيق، كان يخبرني عن سبستيان كل ما لم أعرفه قبلاً. لو كان ليُسمح لي بالتدخين، لاكتملت سعادتي. أصدر رفاس الأريكة صريراً عندما غيرت وضعية جلوسي، وكم خفت أن يزعج ذلك نومه. ولكن لا: بقي صوت أنفاسه الحلو مسموعاً، وكأنه يتبع درباً

ضيقاً على أطراف الزمن ذاته، تارة يغور، وأخرى يعلو من جديد - في عبور مثابر لمناظر طبيعية قد شكلتها رموز الصمت: الظلمة، الستائر، وتوهج مصباح أزرق فوق مرفقي.

نهضت بعد ذلك ومشيت على رؤوس أصابعي نحو الممر.

«آمل أنك لم تزعجه»، قالت الممرضة، «فالنوم جيد له.»

«أخبريني!» قلت، «متى يأتي الطبيب ستاروف؟»

«الطبيب من؟» قالت، «آه، أنت تقصد الطبيب الروسي. لا، إنه الطبيب غينييه من يعتني به. ستجده هنا في صباح الغد.»

«كما تعرفين، أرغب في البقاء هنا الليلة، بأي طريقة كانت. أتظنين أنه ربما بالإمكان...»

«يمكنك أن ترى الطبيب غينييه حتى الآن»، تابعت الممرضة بصوتها اللطيف الهادئ. «إنه يقيم في المنزل المجاور. إذاً، أنت تكون الأخ، أليس كذلك؟ وسوف تصل والدته من إنكلترا غداً، أليس كذلك؟»

«أوه لا!» أجبت، «إن والدته متوفاة منذ زمن بعيد. ولكن أخبريني، كيف هو أثناء نهاره؟ هل يتكلم؟ هل يعاني أوجاعاً؟»

توجهت إليّ بنظرة امتعاض واستغراب.

«ولكن»، قالت، «سؤالك غريب. ما اسمك لو سمحت؟»

«هذا صحيح»، قلت، «فأنا لم أشرح لك. هو يكون أخي غير الشقيق، وأنا أدعى [سميت اسمي].»

«يا للهول!» قالت وقد علت وجنتيها حمرة، «يا إلهي! إن النبيل الروسي قد توفي بالأمس. وأنت كنت في زيارة السيد كيغان...»

وهكذا، فإنني في النهاية لم أرَ سبستيان، أو على الأقل، لم أره حياً. ولكن تلك اللحظات التي أمضيتها وأنا أستمع إلى ما ظننته أنفاسه قد غيّرت حياتي كلياً، تماماً كما كانت لتتغير لو تسنّى لي

التحدث إليه قبل موته. أياً كان سرّه، فقد تعلمت سراً أيضاً، وهو: أن الروح ليست إلا وسيلة للكينونة - وليست حالة ثابتة، وأنه يمكن لأي روح أن تكون روحك، في حال عثرتْ على دروب روحك المتعرجة واتبعتها. قد تكون الآخرة هي القدرة الكاملة على عيشنا بوعي في أي روح نختارها، في عديدها إن أردنا، عديد الأرواح اللاواعية لعبئها القابل للتبادل.

وعليه - أنا سبستيان نايت. أشعر كما لو أنني أنتحل شخصيته فوق خشبة مسرح مضاءة، مع كل الناس الذين عرفهم يروحون ويجيئون (وجوه غير واضحة لبعض أصدقائه، الأديب، الشاعر، والرسام) يكرمونه بطريقة رشيقة، ومن دون جلبة؛ وها هو غودمان، المهرج مسطح القدمين، مع مريلة الأطفال تتدلى من عنقه فوق صدريته؛ وهناك - كلير بتوهج رأسها المائل، تمسح دموعها الصامتة، بينما ترافقها فتاة بحنو بعيداً عن الخشبة. كلهم كانوا هناك يدورون حول سبستيان - أي حولي أنا، ممثلاً سبستيان - بينما ينتظر المشعوذ العجوز في الكواليس مع أرنبه المخفي؛ وتجلس نينا إلى طاولة في أكثر زوايا الخشبة إضاءة، تحت نخلة مرسومة، تحمل بيدها كأس خمر طافحة بالفوشين(*). ثم بعد ذلك، تشارف الحفلة التنكرية على نهايتها. يغلق الملقن الصغير الأصلع كتابه، في حين يتلاشى الضوء تدريجياً. النهاية، النهاية. سيعود جميعهم إلى حياتهم اليومية (وتعود كلير إلى قبرها) - لكن البطل يبقى، لأنني، ومهما حاولت نزعه جاهداً، لن يخرج مني: سيبقى قناع سبستيان مثبتاً فوق وجهي، لا شيء سيلغي الشبه بيننا. أنا سبستيان، أو ربما، سبستيان أنا، أو ربما نكون، أنا وهو، شخصاً آخر، لا يعرفه أي منا.

(*) فوشين: مركّب كيميائي. (مترجم)

مكتبة
t.me/soramnqraa

هذا الكتاب

وهكذا، فإنني في النهاية لم أرَ سبستيان، أو على الأقل، لم أره حياً. ولكن تلك اللحظات التي أمضيتها وأنا أستمع إلى ما ظننته أنفاسه قد غيّرت حياتي كلياً، تماماً كما كانت لتتغير لو تسنّى لي التحدث إليه قبل موته. أياً كان سرّه، فقد تعلمت سراً أيضاً، وهو: أن الروح ليست إلا وسيلة للكينونة - وليست حالة ثابتة، وأنه يمكن لأي روح أن تكون روحك، في حال عثرتْ على دروب روحك المتعرجة واتبعتها. قد تكون الآخرة هي القدرة الكاملة على عيشنا بوعي في أي روح نختارها، في عديدها إن أردنا، عديد الأرواح اللاواعية لعبئها القابل للتبادل.

مكتبة
t.me/soramnqraa